

هاني الراتب



رواية



المهزومون

دار الآداب

هَافِي الرَّاهِبِ

المهزومون

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٨ م

الفصل الأول

القطار المقبل يملأ من الفضاء حيزاً هائلاً ، وصغيره يتغلغل في الحيز الباقي ، حتى لقد حسبته هاجماً عليّ يريد افتراسي . تنحيت بسرعة متعبة عن قضبي الحديد الرهيبين ، ثم استيقظت . ومرّ القطار ، واختفى وصغيره لا يزال متلبساً في آذان الجو . نهضت من فراشي وأطلقت شتمة ضخمة ، ثم ثاءبت واستندت الى الجدار .

كانت الساعة المعلقة في البهو كقدر تعيس ، تدقّ برتابة مغيظة ، وشخير الساور يتعالى مختلطاً بصوت (ملك) من المطبخ .

— سوف تخلع رقبتى يوماً هذه الساعة .. ستّ الملوك ، لماذا

لا تضعين الساعة في غرفتك أنت والآغا ؟ .
ولم تجب ملك ، فقد سمعت السؤال من قبل مراراً ، وكانت
تبتسم كجواب أخير ؛ ثم تقدّم لي عصصاً مسلوفاً .
خرجت الى الشرفة والتقيت بدمشق تنحدر عن سفوح قاسيون
الى الأسفل ، وتزدحم بيوتها في القاع .

المثذنة لا زالت تنتصب بأحجارها الرمادية الكامدة ،
والممارات الجديدة حولها تنطرح مدّ النظر ، وتتلعب فيها
ألوان جذابة وأشكال هندسية منسّقة . إن سبعاً وأربعين مثذنة
أخرى تتعالى في قبولة أبدية ، آخرها عند حدود الغوطة
الشرقية ، وكلها متميزة بدوائر مغلقة وسلام حلزونية ممعنة
في القدم .

هززت رأسي واستدردت لأبتعد ، فرأيت جارنا يلتصق
بالشرفة وينظر الى ساعته . حيّاني وسألني إن كنت سمعت الأذان .
كانت على وجهه تتقلقل صفاقة ذليلة ، وعيناه تبدوان كليتين
متعبتين .

— صفير القطار يأتي بعد صراخ المآذن .. ولقد مرّ
القطار الآن .

ضحك جارنا في تسامح عاقل ، وطرفت عيناه بتثاقل ثم قال :
— تعال اربح لك صلاة .. الجامع قريب ، صهري إمامه .. إنها
لن تكلفك سوى بضع دقائق .

نظرت اليه من زاويتي عيني ، وأخرجت من أنفي نفساً قصيراً

ثم نظرت الى المؤذنة . وكرّر الدعوة فرمقته ثانية بتأمل طويـلة ،
وابتسمت .

وبدا أنه لم يستنتج جواباً ما ، فأخذ يطلب ثالثة بإلحاح هادئ
رزين ، ويعتدّ لي ما سوف أشعر به وما سيزاح عن صدري
بعد الصلاة .

قلت له هيا . والتقينا عند الدرج فصافحني ثم انطلق لسانه
ثانية . رأيت نفسي بعد قليل أتسرق التفكير بسميحة ، وشعرت
ببعض الحزن لأنها لم تنجح ، ثم عزمـت أن أراها عندما تتقدّم
للامتحان الأخير .

كنا نسير بين العمارات الجديدة المنسّقة ، وصاحبي لم يكف
عن الكلام . ووصلنا الجامع المستلقي على فرجة متسعة انبثقت
أمامنا . ثمة كان رجال بلباسهم العربية وسراويلهم الفضفاضة
الطويلة الذيول ، يتمتمون كلاماً لا يفهم ويمسحون شواربهم
باتجاه ذلك البناء المعرووق القديم .

وقفت بعينين ضيّقتين ، فتأملـت المؤذنة ، ثم رمقت جاري ،
وأطرقت . هتف بي « ادخل » فأطلقت ابتسامة مذنبـة ،
وأعـمـنت في تأملـه ، ثم قلت فجأة : - كلا لن أصلي .

ونظر إليّ وعلى وجهه تقبّض يتغلغل في عينيه الرماديتين ،
وحاول أن يتكلم . اعتذرت منه بسرعة واستدرت أمشي ببطء .
العمارات الجديدة حولي مرة أخرى ، والطريق المزدهج بأشعة
الشمس .

- (أمازلت تقاطع الصلاة) ، كان صوته يرنّ في ذاكرتي .
- (كما تقاطع أنت مقاطعتها) .
ورحت أخبّ على امتداد الطريق ، وأمسكت بعضا ملقاة
على الرصيف ، وطفقت أضرب بها بعض الحصى المبعثرة .
دخلت البيت فوجدت (هلالاً) يغتسل .
- مرحباً أستاذ .
- أهلاً آغاتي .

- كيف بنات الجامعة اليوم ؟ .
- كالدّبابات التي عندك .. محصّات ومنيعات .
- أم .. عندك منهن دبابة شديدة التحصين .. ما اسمها
قلت ؟ . سميحة ؟ . أجل سميحة . هذه التي تحبّها حباً فظيماً ،
شعرها وعينها ، وبشرتها الصافية ، وألوهية وجودها .
تلك الجمل التي تجعلك مهزوماً أمامي بالورق ، تعال ، بعد أن تتغدى
سنلعب الورق .

احتجّت ملك من المطبخ : - وصورتي ؟ .
صاح هلال : - فيما بعد ، سنأكل الآن ، تعال أستاذ
انفض رأسك من الغرام .. فأمامك معركة ورق يجب أن تربحها .
ظل هلال يتكلم طيلة الغداء . عندما انتهينا ، لعبنا الورق
حتى الساعة الخامسة :
- انتبه ، فلقد هزمتك .

- نكون قد صفّينا الحساب ، فأنا هزمتك البارحة .

- حالك تعب اليوم..ألا زلت تفكر فيها.. هذه التي تشكّل
بالنسبة لك شيئاً فذاً ينطوي عليه عمرك وقلبك . كان يجب أن
تستمرّ في مصاحبة الفتيات ، فأنت صغير للحب والزواج .
- أنا لست صغيراً لشيء .



سرت حتى محطة الحجاز ، والناس حولي في ازدحام
 دورائي ، وفي ذهني تشوّق للقيام بعمل ما . كان شعور بالكسل
 يتذبذب في خطواتي ، شتّت ذهني عبر هذا الصخب الضائع
 جهده من المارّة والباصات وبائعي البندورة المعفّنة .

ولمحت « وديعة » فجأة ، تسير باستغراق رصينة وقد تدلّت
 من ساعدها المتسقة محفظة سوداء ، لا بدّ وأنّ ميزان حرارة
 معطوباً يستقرّ في قعرها .

لم يكن في ذهني أيّ تصوّر عما سأفعله ، لكنني إذ رأيتهما
 تلج الباص تقفّيت خطاهما ، ثم جلست بجانبها وحيّيتها :
 — أتذكريني ، قلت لها ، فأجابت بابتسامة :

- أجل ، لقد طلبت أن تتعرف بي وأنت على سريرك .
- ذلك لأنك لفت انتباهي لفتاً قوياً بمشيتك الهادئة
وأحلام عينيك .

وأبدت ملاحظتها الكسولة على تفتّحي .

- هذا بسببك ، فأنت تحرّكين حتى جذوع الزعرور .
كانت تنظر لي من زاويتي عينيها ، تبتسم باستطراب ، وتعبث
أصابعها عبثاً هادئاً ، وإذ ألقيت ملاحظة على جمال تلك
الأصابع ازدادت جلستها تراخياً ، ولما أمنت في وصفها تحرّجت ،
وإذ أسرفت قالت :

- سيّد بشر ، أنا مخطوبة وإن كنت لا أحمل خاتماً .

قلت دونما تفكير :

- هذا لا يهم .. أنا أريدك مخطوبة أم غير مخطوبة .
فنظرت إليّ بدهشة مستغربة ، واتّسعت حدقتها البيضاء .

- افسخي الخطبة . قلت بلا وعي .

ضحكت ومطّت شفّتها . شعرت آنذاك بنشاط
مترعش ، ورأيت أنني اقتحم مجهولاً ، وأنا اتحسّس وجودها
يخاني فيملأني تيقظ مخدّر ، ثم ما عدت أشعر إلا بأنها تجلس
يخاني .

انتهى الباص إلى آخر الطريق فنزلنا معاً وسرنا نعبّر
أرصّة ضيقة . سألت :

- أيسبّب حرجاً أن أذهب معك ؟ .

— أجل فهذه سابقة لم يألف أهلي مثلها .
— ومع ذلك سأذهب .. قولي لي أنت من اليونان ؟ .
— يونان ؟! أبداً !! .
— من أين لك هذه الرموش المتهذلة والعينان النديتان
والابتسامة الحلوة ؟

ابتسمت بغبطة وسارت دون أن تتكلم . ورحت أثرثر كيفما
اتفق ، ثم تعلّلت بأن نبض قلبي يمنعني من الكلام فسكت .
ونظرت إليّ بعينين سائلتين ، فقلت لها إن عينيها حلوتان .
وابتسمت من جديد وصمتت عيناها . أحسست بها تسير الى
جانبي أشبه بهرة لا تحالب لها . وكلما أوغلنا سيراً واقتربنا من
مشارف قاسيون كان شعور مبهم يتناهض في صدري بقوة
غير واعية .

— هل سنذهب للبيت ؟ .
لم تنظر لي ، ولم تجب ، بل ابتسمت . تذكرت أهلها .
وابتسمت بدوري ، ثم انطفأت ابتسامتي . وامتنع عليّ
الكلام فرحت أتأملها بإمعان ، ثم التفت فجأة وقلت :
— وديعة .. أنا عائد ، بخاطرك .

وتدلّلت شفتها السفلى واتسعت حدقتها ، ثم اضطربت
ذقنها الصغيرة في محاولة للكلام لم تعش . ثم مدّت لي
يداً يأكلها الارتعاش وودعتني . الشارع اللتوي ،
الطويل والضيق ، سرعان ما ملأني بكآبة مترمّنة . بعد قليل
أخذ وقع خطواتي يضايقني فجلست على عتبة بيت صديء

أرتاح ، وأتمتع بخلوّ الشارع من الناس .

إن سميحة بعيدة وهي لن تسأخني على هذا التصرف .
شعرت أنني أخطأت مع عينيها الزرقاوين ، ولكني أطلقت
التيار لشعور آخر ملأني يأساً : إن من العبث أن أحبها طيلة
هذه المدة وهي لا تعرف من ذلك شيئاً . إن بصدري آلاف
الأمانى ، أمان تسقيها أعصابي ودمي ، وأسفح عليها نضرة عمري
وتحفّزي . لقد أحبت سميحة بسهولة غريبة ، ولعلّ في هذا شيئاً
مخجلًا . شعرت ثانية بالضباب يعبر وليجتي مليئاً بعنفوان باهت
سطحيّ . أمي على فراش الموت ، وإخوتي في غمر من مشأ كلهم
الخاصة ، وأصدقائي بعثرهم الزمن . كنا نحبّ بعضنا ونقسم ألا
ننسى . أما الآن فما أبعد الحياة ، إن الناس حولي أكثر استغلاً
من دبابية .

فُتح الباب فجأة وشق صوت سيّدة ، برعب « بسم الله
الرحمن الرحيم .. من أنت ؟ » التفتّ وقلت « آه » وانصفق
الباب ورأني بعنف .



الغروب يرتل أغانيه الخالدات ، وعلى المدى تنطرح
الأضواء فوق قاسيون تذكر الشعور أن ثمة بشراً يعيشون أيضاً.
نادتني ملك من المطبخ :

— بشر .. أتذكر خديجة بنت جيراننا التي تزوجت الشيخ
منذ أسبوعين ؟.

— هم هم .

اقتربت من المطبخ أحاول أن أصغي وأنا أقرأ مجلة أسبوعية ،
وما لبثت أن نظرت إلى ملك بحيرة شديدة :

— لقد عادت لبيت أهلها ، لأن الشيخ لم يستطع أن يتزوجها
لم يستطع أن يتزوجها بالمرّة ، ولقد نصحه أهله ورفقاؤه أن يشرب

بعض النبىذاو العرق، فرفض وصم أن يحاول من جديد. وكلمادخلا
الغرفة انطفأت طبيعته. وقد حدث أن استمر في مداعبتها لعله...
ولكنه خمد في الوقت الذي بلغت به اللحظة الحرجة عند خديجة
ذروة، فهرب من الغرفة وتبعته وهي تركض ركضاً أعمى
مجنوناً، وكأنها فقدت كل سيطرة، فاصطدمت بخاله، وانهارت
عليه قبلاً وضماً وكان أن أثير الحال....

برمت ملك رأسها جانباً واستمرت تبشر الباذنجان. هتفت
دونما وعي «يا محمد» وشعرت بجنكي جافاً فبلعت ريقى بصعوبة،
ثم نخرت بنهنية قصيرة بعض سخرية ملأت صدري قرفاً.

— لقد هربت من بيت الشيخ وحبست نفسها في غرفة
ببيت أهلها، أما هو فاعتصم بالجامع لا يراه أحد إلا مؤذناً
او مصلياً حتى ليل أمس، إذ قيل إنه اختفى منه وان الشرطة
التقطته في (باب توما) غلاً وأعادته الى الجامع.. لكنني أعتقد
أن الخبر كاذب، فالشيخ لا يمكن أن يشرب.

هزرت رأسي مستنكراً. لماذا لا يشرب، قلت لنفسي
وسألت ملك: ألم يعتد على نساء الشارع؟

— هه.. بدأت تكفر.. أنت وأخوك دائماً تكفيران!

— من الصعب أن يؤمن الإنسان بعد حادثة كهذه.

سمعت على الباب نقراً خفيفاً، فتحت فلم أجد أحداً. قلت
لملك: تعالي، جارتنا أم أحمد على الباب.

لكن أم أحمد حدثتني هذه المرة مباشرة، فطلبت مني أن

أحضر مع ملك وهلال الى بيتها .

أيقظت هلالاً من نومه ، وبعد دقائق جئنا بيت أم أحمد الملاصق لبيتنا . ووجدنا الشيخ هناك وأمه ، وجارنا وأمه . سلمت على الجماعة باضطراب ، ثم رحت أرشق كرش الشيخ البطين وذقنه القتية الغبراء بنظرات صبيانية . وسرعان ما انسحبت النسوة الى غرفة أخرى وبقيت مع هلال ، والشيخ وجارنا أحمد .

مسح الشيخ ذقنه بأصابع مقددة وخاطب هلالاً : « كيفكم سيدي ؟ » فرد عليه بلباقة عسكرية ، ثم سأله الخبر .

— الحانم الصغيرة ردت ردة العرس ، واليوم إن شاء الله نذهب معاً الى البيت .

— وكيف حياتك الآن ؟ .

— الحمد لله . سعيدة إن شاء الله .

قلت له متمعداً : — لا بد وأنك منتش من الزواج ؟

فأطلق نهضة فيها تعقل أصفر وقال :

— النسوة تأتي من الحمرة ، والحمرة مكروهة لدرجة

التحريم .

قلت : — أعترف لك أنني شربت زجاجة بيرة أمس .

— البيرة ليست محرمة .

نظرت بدهشة الى عينيه الضيقتين ، فابتسم وقال :

— الجر هو التي ، من ماء العنب إذا على وأزبد وانكب .

ضحكت وقلت : « غلى أم غلي ؟ » فأجاب : « على ..
كان يترك تحت الشمس فيغلي بنفسه » .

هرشت رأسي فرحاً بطرافة الموضوع ، ونظرت الى هلال فابتسم
وأشار لي أن أصمت .

بعد فترة سكون جاءت أم أحمد اليه ، وقالت إن البنت
خائفة ، ومنزوية في غرفتها ، وقد أرجت عليها الباب ،
ثم افترضت أن من الصعب جداً رؤيتها والتفاهم معها .

نهض الشيخ إلى باب الغرفة ، وتبعناه بتؤدة وفضول .
وهناك ناداها برفق وخشوع ، ونقر على الباب . وناداهما ثانية
فلم تتحرك ، واستمر يناديهما فترة ، دون أن نسمع نأمة من
الداخل . وطفق يضع رأسه على الباب ، وينقر ، فيفتح فمه
وعينه ويصيح ، دون أن يتلقى غير الصمت . وتراءى لي
في تلك اللحظات أشبه ببرميل مليء وخماً وقذى وعقماً . نظرت
اليه ساخراً ، هذا الممتنع عن شرب الخمر إلا في (باب توما) ،
وبلعت ريقاً كنت أودّ لو بصقته . وبعد دقائق استحال بأجمعه
الى بضع كلمات غريزية تطالب في قليل من الجاذبية وكثير من
الشناعة - هذه المنكشة في غرفة تشبه حياتها ، أن تأتي الى الباب
فتحدثه ، أن تتقدّم خطوتين . لكنها أبت .

مضى الوقت بطيئاً ، والشيخ لا يزال ينقر الباب فيجيب

بالصمت ، ويطلق نفساً يائساً ، وينظر الينا في محاولة فاشلة ليتسم .
وأخيراً سمعنا حركة مباغتة داخل الغرفة ، جعلته يربط أنفاسه
بالباب . اقتربت الحركة سريعاً ثم انهالت قبضة مغضبة على
الباب تضربه ضرباً شديداً وقد تجمّد صوت صاحبه على كلمة
واحدة : « اذهب .. اذهب .. اذهب . »

وتراخى الضرب بعد قليل ، وسمعنا ، مرة ثانية ، جسمها
يهوي على الأرض .

تلفتّ حولي فرأيت أمها تبكي وأخاها يلتصق بالجدار
أصفر يائساً .

انسحبت من الغرفة ممتلئاً بقرف هائل ، تناثرت في غرفتي
شتائم وبصاقاً ضخماً ورغبة في التحطيم . تطلّعت من الشرفة
ضيق العينين ، الى قاسيون الملهب بالأضواء . كانت مصابيح
المآذن قد انطفأت .



٤

إن جدول القرية الأزلي الخرير قد تعكّر بصورة لا يمكن إصلاحها . ومن عجب أن كل شيء يتزعزع ، حتى الإيمان بعد أربعة عشر قرناً . وتكون النتيجة أن الماء لا يغدو ماء ولا شيئاً آخر .. إنك لا تعرف هويته على الإطلاق ، ولا ميوله الساهرة في عينيه . ليتني أستطيع فقط أن آخذ الشيخ فيرى ذراعي سميحة العاريتين وثيابها الضيقة ، ويتأملها مثلي كل يوم فيعتاد على أشياء غير الستين ركعة في اليوم التي اعتاد أن يصلّيها .. إن المئذنة شديدة الارتفاع ، ومنفصلة بصورة حادة وعصبية عن بنايات قربها جميلة منسقة .

أقبل هلال وملك ، ورحنا نتبادل نظرات ساخرة :

— تعال .. أستاذ تعال .. لأهزمك بالورق .

وتعالى صوت ملك من المطبخ محتجاً :

— ألن ترسم لي الصورة هكذا ؟ .

— فيما بعد ... سوف نعيش معاً عمراً .. ماذا أعمل بعد أن

أرسم الصورة ؟ كيف « ربيعتك » أستاذ ؟ .

— رأيتها أمس في قاعة الامتحان ، تجلس وساقها

متناكبتان كالبارودة والذراع اليسرى ، وقد بدا من تحت

الفستان امتداد لباسها المنتهي عند الركبة .. لقد تضايقت

منه كثيراً .

— ثم ... امتنعت عن أن تحبها ؟ .

— لا ... بهذه السرعة ! ؟

* * *

أقبلت ملك من المطبخ لتشير لي بابتسامة ملفوفة ، أن

أحضر إليها . تبعتها الى نافذة المطبخ ، ففتحتها وأشارت الى

النافذة المقابلة . كانت زوجة جارنا الحلاق تهبيء السماور وقد

أخذ جسمها يهتزّ خلافاً رائعاً . ووقفت أطيل النظر إليها ،

كمن يخترن رؤيا في ذاكرته أسرت حواسه ولعابه .

هست ملك « هذه زوجة الحلاق ... إنه يضربها ويعذبها

كل يوم . ولقد سمعته أمس ، بعد أن عاد من الجامع يشتمها شتماً

فظيحاً ، لأنها تأخرت في تسخين الرزّ ! »

سألت ملك : ألا تحنون هذه المرأة المليئة زوجها ؟

فاتهرتني : — هـ هـ .. إنها من أشرف عائلات دمشق .
انضمت الى هلال ثانية وأخذنا نلعب . « متى ستبدأ
الدراسة ؟ » سأل .

— بعد نصف شهر .. في الخامس والعشرين من تشرين ..
ما هي أخبار اللاذقية ؟
— إخوتك كما هم وأمك يزداد مرضها .. لقد رفضت أن
تترك القرية .. وهذه المسكينة ليلى لا تزال تتعذب معها .
صمت هلال لحظة وأضاف :

— أمك لا تستطيع أن تنهض من الفراش بمفردها ، ولا أن
تطأطأ في المرحاض بمفردها .. وقد يمتنع عليها أحيانا أن تأكل
برغم جوعها . لقد امتدّ الروماتزم الى كل مفاصلها .
سرحت بعيني عبر النافذة وقلت :

— أبوك مات بالمرض نفسه .
نقر هلال أصابعه وأخرج بعض الكلمات المنقبضة ، ثم رمى
الورق من يده وتتم :

— لماذا يعذبهم الله بهذه الأمراض ؟ ما الفائدة من أن يبلونا
بالأمراض ؟

سألته : — أنت لا تؤمن بالله ؟ .

هزّ رأسه بامتعاض :

— لم ألس أنه تدخل في حياتي مرة واحدة لصالحى .. او ضدي .
وأخذ ينقر أطراف الورق على الطاولة . سألته بفضول
هاديء :

— بيم تؤمن اذا ؟ .

— لا ضرورة لأن أؤمن بشيء ... اسمع يا أستاذ لأفهمك :
عندما تسير حياتك في نسق رضى ، وتعيش على أمل أن تحقق
هدفاً ، وتكون شريفاً ، ينعدم عندك الشعور بضرورة الإيمان .
سألته ما الهدف الذي يريد تحقيقه ، فأجاب باختصار :
إسرائيل والجزائر . وقلت له إن هدفه دموي لا يمكن الأخذ
به . فأجاب بحماس أنه لا بدّ من هذه المرحلة للوصول الى الوحدة
العربية .

استرخت على الكرسي ورددت باستغراق :
— أعتقد أنه لن يكون لي هدف .. أيّ هدف . إن الوحدة
لا تكفي ... ومع ذلك فأني ما زلت أؤثر أن أؤمن بشيء .

— سوف تتعب كثيراً .. عود نفسك أن تكون الأخلاق
طبيعة فيك منفصلة عن المفاهيم والدين والعرف الاجتماعي .
الأخلاق للأخلاق . حتى النظام أجعله غريزة .. وبعدها لا ضرورة
للإيمان حتى بالحب . يجب أن ينبع كل شيء من ضمير الفرد دون
أن « يؤمن » به ، لأن هذا سيأسره وبقيدته . لقد كانت شخصيتي
في مثل سنك ضبابية ، وكنت أعتقد مثلك أن بالحب حلول
المشاكل .. ثم ما لبثت أن رأيت الحب مسلوخاً في عالمنا ، فهو
إما مراهق فاشل أو منفعي ، أو مستحيل . النظام يعوّض عن
كل شيء ، حتى الحب . افرض أنك عشت سعيداً ، فما معنى
السعادة بالضبط ؟ . إنها الرضى والاستقرار ، ولن يتأتى لك

الرضى ولا الاستقرار بالحب .. إنها يولدان مع النظام . أنت تعرف أنني أحببت قبل ملك ، في فترتي الضبابية ، فتاة شقراء تكلمت عنها كثيراً « خصلة مجدولة من شوق قلبي ، لوئت من وقد ايامي وحبي .. » الى آخر هذه الصبيانيات . ثم لم أستطع كالعادة ، أن أتزوجها . والتقيت بملك ورأيتها أشبه بالدافع لحياقي . وتأكد أن بيننا شبقاً روحياً مثله مثل الشبق العادي .
مددت شفتي نفياً :

— لا يمكن بحال أن أومن بهذا النظام .. أنت تعرف أنني أثور لأقل مضايقة ، وألوي خط سيري أمام أية عقبة ، او ما يخيل لي أنه عقبة . ولا أستطيع أن أغفر لإنسان إلا إذا أحببته ، هذا شيء من طبعي لا يناله النظام .
كان هلال ينفث دخان لفافته ويتأمل بهدوء . وهز رأسه عندما انتهت وقال :

— عندما تصلّب التجارب إرادتك ، ستتبّع هذه الأسس التي بغيرها لن تستقرّ . قد تقول عني « أنت عدمي » ولكن أبدأ ، الفلاسفة لم يستطيعوا حتى الآن أن يحلّوا مشاكل البشر .. كانوا يساوون ويقدمون نوعاً من التراضي .. والحل هو أن الإنسان يعيش بكل ما فيه . ويبقى أن النظام يجب أن يكون طبيعة . قلت باهتمام : — منذ بدء الخليقة لم يستطع البشر أن يعتادوا عليه .

فرفع حاجبيه وأجاب : — ذلك لأنهم انصرفوا عنه للإيمان

بأشياء ليست من طبيعة الإنسان .

قلت : - ولكن الحب من طبيعة الإنسان ، فهل تريده أن يرضخ لنظامك ؟.

فقرر :- الحب نشأة .. نبع من حاجة الإنسان للتخلص من وحدته .. وكان فشله مدعاة لأن تتغير طبيعته بالتدريج .

وأضاف مازحاً : - « أنت عاطفيّ وستهزم بسبب ذلك كما هزمت في الورق . » وارتفع صوته ينادي ملك :

- الساعة السادسة إلا الربع الآن ، البسي يربع ساعة الفستان الأبيض ، فنذهب الى السينما ونزور حسناء .



إذا كان أحدهما يشعر بلذة وهو جالس في مقهى ذات يوم خريفيّ يراقب جميلة مجدولة القوام انسيابية الخطى تسير عبر جلبه الشارع المتغلغلة في أعصابه ، فهو لا شك مستشعر غبطة فائقة إذا كان مثلي يتسرق من نافذة مطبخه نظرات طويلة نحو جارته الفتاة القابعة في مطبخ مغلق ، والتي يعذبها زوجها باستمرار ، وفي سكون كالجلبه متغلغل في الأعصاب . ولا بدّ أنه سيشعر بالأسف لأن يدين ناعمتين كيديها يتصلّب لهما بسبب غسيل الأطباق والملابس ، ولأن صدرها الفتي يسودّ بدخان السماور ، وحطب الحمام . ولعله سيعاني مثلي ، بعد ذهاب هلال وملك للسينا ، تملأً غريزياً وهو يرقب صدرها في نرفزته . إنها

ليست شقراء كسميحة ولا زرقاء العينين، لكنها رائعة، رائعة، بلا وصف ولا تعقيد .

منذ نصف ساعة وأنا أراقبها ، وقد دفعت يدها مرات تغلق النافذة احتجاجاً ، ثم تفتحها طلباً للهواء ، أما الآن فأنا أتسرق بلذة خبيثة أكثر من مجرد النظر إليها : حركاتها ، اهتزازها ، تلفتها ، غنج جيدها ، وظلال أجفانها ، تكشيرتها الفاتنة ، والتلألؤ الباهر في عينيها ..

تنهدت وأطلقت نظرة كسميحة ، ثم هزرت رأسي بمقت هادئ : كيف يتزوج حلاق أصلع أشبه بلوح جليدي فتاة كهذه ؟! كيف ، وأنا لا أتزوج ، رغم عبادتي ، سميحة المغزولة الشعر ؟!. إن سميحة لا تعلم بي ، ولا تحبني ، ولا أعتقد أن في هذا شيئاً هاماً ، وإن كنت أعجب من نفسي كيف لا أصاب بصدمة شعورية . وإذا كان الشاب يضعف من وقع الفشل ، فما الذي يخفف هول الصدمة على هذه الشابة المجردة من كل قوة الا الجمال ؟

الروس يصعدون الى القمر .

نظرت ثانية الى النافذة ، وتكسّر في تلك اللحظة صحن أبيض كانت تنظفه . وأطرقت عيناها نحو الأرض ، وارتفعت يداها جانبا ، ثم انسدتا ببطء حزين . وبعد قليل رفعت عينيها مليئين بالدمع ، فسيحتين متعبتين ، وهمت تتابع عملها ، فرأيتي . وانصفت النافذة :

— يا أخى نحن جيران ، إسلام ، وليس من اللائق أن تنظر من الشباك وأنا دائماً في المطبخ .

قلت وقد تلبّستني حالٌ متحكمة من الوقاحة :
— من المؤكد أن تصرّفي تنقصه الحشمة ، ولكني أحب أن أنظر اليك كثيراً ، فأنت جميلة ، وشديدة الجاذبية .

— يا سيّد بشر لا تزدُ أرجوك .. نحن مسلمون وهذه أشياء محرّمة .

كان صوتها هذه المرة وديماً ينفذ الى النفس بوتر رخم أسير .
— نحن بشر يا سيدي .. وأنا لا أعجب بك فقط ، بل أشفق عليك ، على الحشيش الأخضر تطأه أقدام ثور . لماذا رعبت إذا انكسر الصحن؟ أيستحقّ صحن أن يجعلك تبكين بهذه السهولة؟ .
قاطعتني وقد انقلب صوتها الوديع مكابراً عذب المكابرة :
— أرجوك اسكت .

شعرت برغبة في القفز . أمسكت بزاويتي النافذة ومددت رأسي :
— لماذا لا نتكلّم ، لا نتحدّث ؟ .. أنت تعرفين أنني لن أوديك . هذه ليست أشياء محرّمة .. ليس حراماً إلا الزنى والقتل ، وظلم الزوجات .. لا تطفئي النور . أنا أعلم أنك تصغين لي ، وحتى ولو ذهبت سأبقى أتكلّم الى أن تعودى .. افتحي هذه النافذة ودعينا نتحدّث ، فأنا لا آكل بشراً .. كلنا يريد من دنياه شخصاً ، أيّ شخص يصغي له بحنان واستغراق ، فلماذا تهربين ؟ . أنا وحدي وأنت وحدك . لقد صدمت مثلك بطريقة أخرى .. فأنا أحببت فتاة لا تحبني .

الظلام كان مخيمًا ، يتغلغل فيه صمت جارح الترقب .
قالت : - أما .. زلت تحبها ؟
أطلقت زفرة طويلة وأجبت :
- لست أدري .. أعتقد أنني يجب أن أنساها .. وأنا لم أتحدث
اليها قط .

- هل يمكنك أن تتحدث اليها ؟
فصمت أستوعب كلامها ثم قلت :
- أجل .. في الجامعة يمكن أن يكفر الإنسان ويجلس في
مقعد واحد مع زميلته ، ومع ذلك لم أتحدث اليها .
- هذا أحسن ، فبنات الجامعة لسن مؤدبات .
قالت ذلك ونهز رأسها الى الوراء .
سألتها: من قال هذا ، فأجابت إنه زوجها ! سألتها ثانية :
أتفكرين انه صحيح ؟ . فلم تجب .
فتحت النافذة ببطء ، ونظرت الي خطفأ وخشية ، ثم أطرقت :
- اذا لم تذهب فسأغادر .. لأجمع الثياب .
قلت مبتسما : - إذن ألحق بك .

ارتسمت على وجهها تموجات حائرة مهزومة ، ثم أغلقت
النافذة بهدوء . كان الفراغ الفاصل بيننا يتسقط من السماء بعض
ضوء النجوم ، وجدرانها الأربعة تتواكب بصمت وسكون .
هتفت : - ألا تزالين هنا ؟ .

فلم أسمع كلاماً ، ولا تحرّكا . وانسحبت الى البهو ببطء ،
وأخذت دقائق الساعة تنفجر في أذني ، ودوار حيرة ثكلي ينوس في

رأسي صامتاً مغرقاً . ذهبت الى الشرفة وتأملت المئذنة الرمادية العتيقة ورأس الشيخ المعمّ يطلّ منها بين العمارات المستقلية في أرجوحة لونية رقيقة ، تبتعد عنها بيوت دمشق المتحدّرة من سفح قاسيون المتجمّعة عند القاع . المساكن التي حولنا طينية صفراء ، يشقها خطا القطار الأسود الممتدان حتى مغيب الشمس . نوافذها المحجّبة بخشب لا يتحرّك استحالت بسبب من غبار الشارع ودخان القطار سوداء قاتمة لا توحى بغير التقزّز .

» ماذا تفعل جارتى الآن ؟ « سألت نفسي .

كانت دقّات الساعة برتابتها المتحركة واضيقاقها المستمر تملأ الغرفة بكدر أصمّ ، ونفسي باحتقار ورغبة نأر .

هذه التكتكات التي تبصق من داخلها ما أكنف وخامتها !

تركّت الباب موارباً وصعدت الى السطح . كان الظلام يسربل الفضاء غامقاً كوشاح أسود قصيّ المدى ، وسفوح قاسيون سماء سقطت نجومها الملتهبة على الارض . فقفزت فوق الجدار الخفيض بين بيتنا وبيت الحلاق ، وتقدّمت بين الشباب المعلقة ، حتى رأيته تقف راعشة متلعثمة الأطراف .

تقدّمت ، فتراجعت . تقدّمت ، فتراجعت . لم أستطع أن أبسم مع أنني وددت ذلك بعنف ، ففتلّصت شفتاي . وظهر أثر تكشيرتي سريعاً على وجهها ، فالتصقت بالجدار الثاني مصلوبة اليدين والإرادة ، في عينيها ترقب راعب دفين ، وعلى وجهها البضّ الصافي تقلّصات ألم مستسلم عكر ، شدّ ما راعني .

عندما اقتربت منها ، ألوت رأسها وركضت . ركضت وراءها ، وعند بداية السقيفة المنتصبة فوق المهبط والمضائة بكهرباء ضعيفة ، التقطت ذراعها وقلت : قفي . تلقّنت ، وهي تحاول التملّص ، وقالت : لا ، لا .. لا يمكن .

وقفنا معاً ، ذراعها بين أصابعي ، كلانا نلهث ، وكلانا نحملق بسكون وأعين نصف مغمضة .

ومضى أكثر من دقيقة ونحن متصلبان ، ثم شعرت بذراعها تتراخى ، ثم بها تتحرك نحوي بقوة ، وتنطرح على صدري فتنتحب انتحاباً مريراً . تحرّكت يدي بلا إرادة وطوّقتها ، وبدأت تسرح على ظهرها وقد تراقص في صدري لهب فرعوني أهوج . انتفضت بذعر ، ونظرت إليّ بذعر . كان دُعراً عابثاً مقيداً برباط خفي مريد ، تنفرط منه أسئلة لا عدّها . وفي سكون طأطأت رأسها .

قلت بابتسام رزين : - لا تخافي ، فلست أنوي سيئاً . اجلسي .

وسحبتهَا من يدها الى السقيفة وأجلستها على منديلي . تحوّلت الى الثياب أجمعها ، دون أن أتجه لها بأية نظرة . وبعد قليل أقبلت نحوها فوضعت الثياب الى جانبها ، وجلست على الأرض . ومَرّت فترة صمت كانت دموعها خلالها تتجمّع في عينيها ثم تنفرط على الأرض ، فيما ينعكس عليها ضوء الكهرباء

البخيل يسحّ حزناً ، بسكون بالغ الرثاء .
قلت بخفوت : - لا تبكي ... في الحياة مناسبات أخرى أشدّ
إيلاماً ، احتفظي لها بدموعك .

فحولت وجهها باتجاه الجدار وحاولت مسح دموعها . وأخذتني
الحيرة ، فعبثت أصابعي على السطح الصلب ، ورأيت نفسي
مدعوّاً لقول شيء ما :

- أرجو أن تسامحي تطفلي .. نحن شباب ونأخذ الدنيا
عبثاً .. نفعل أشياء كثيرة لا مبرر لها ولا غاية . ولكن تأكدي
أنني لم أقصد إيذاءك .. أنا آسف وأرجو أن تسامحيني .

مسحت دموعها ثانية ، وهوّم على وجهها خيال ابتسامة
بعيد . ولحّت هذه الدموع البلورية تتحدّر ، وتتجزىء على
الأرض غزيرة هادئة . أعطيتها منديلاً ثانياً ، وطلبت منها أن تهدأ
وتمسح دموعها . لكن عينيها ، في تلك اللحظة ، بدتا كبيرتين
جداً فقط لتمثلتا بالدموع .

قلت باضطراب وإحساس بالإيلام غامر يكمّ النفس :
- لا تبكي ، فما أبعد عن مثلك الدموع .. أنت فتية شابة عمرك
ست عشرة سنة ، أليس كذلك ؟ .

فهزّت رأسها باستحياء ، وشعرت أنها بدأت تهدأ . قلت :
- لماذا لا تقضين مع ملك بعض وقتك ؟ .
فتناثرت من فيها كلمات متقطعة ثم صمتت .
- إذن فأنتم تتحدثان كثيراً ... هذا جيد ... بم تتسلّيان ؟ .

نظرت إليها أترقب الجواب ، فتحرّكت يدها تعبت بالمدّيل
وابتسمت :

— أعتقد أنّي ضايقتك ببكائي .. أنت ثاني رجل
أحتكّ به قريبة منه ، في حياتي .. وقد لا تدعو الأول رجلاً
فأنا لم أعرف معه معنى الرجولة .. كان دائماً يغتصبي .
— ما اسمك ؟ .

فرفعت إلى عينيها الفاترتين وقالت :
— ثريا .

وتأمّلتها معقود الحاجبين ثم رددت :
— اسمك جميل .. لكنه للأسف مقيد بتراب من الأرض .
هل يغار عليك ؟

هزّت رأسها باستخذاء وقالت :

— لو رأي معك لكانت نهايتي الموت . انظر .
واقتربت مني برأسها ، وهي تمدّ جيدها الرخاميّ الطيّع .
وتأمّلته بشغف سرعان ما انقلب إلى ارتكاس حزين . كانت ثمة
جلطة جلدية تختّر فوقها دم أسود . حاولت أن أقول شيئاً
فشعرت أن كلامي عبث ، وأنه سيكون نوعاً من التعبير مشلولاً
قصير المدى . صمتت برهة ، بينما راحت تسرد لي بعض حياتها
هذه التي تجلس أمامي في عنقوان وميعة ، والتي رُوّجت منذ
شهرين لرجل أصلع .

قلت بعد لأي : — ماذا تفعلين طيلة النهار ؟ .

فأجابت في شرود :

— أطبخ وأجلو .. وأكوي .. أنظف البيت .. أغسل .

سألت باسم :

— هل تطبخين جيداً ؟ .

فابتسمت ولم تجب . وعلقت :

— يجب أن تطعميني شيئاً مما تطبخين ..

وسريعاً ما رفرف عليها ارتياح سعيد ، ابتسمت ، واستدارت
نحوي :

— تحبّ العصص ؟ .

فحدقت بها مشدوهاً ! وضحكت بصفاء ثم قالت :

— إني أسمع ملك زوجة اخيك تناديك لتطعمك عصصاً .

ولقد رأيتك مرة تأكله بشهية .. غداً سأصنع شيخ المحشي معه ،
فأنت تحبه أيضاً .

كانت دهشتي من كلماتها ممعنة في السعادة ، وبدلاً من أن
أحاول الترسية عنها رأيت نفسي في موضع محاباة ، طفت على
أمواج رقتها بلا حساب . قلت بأسف :

— والآن اذهبي الى البيت .

فالتفت الى الشباب ، فاحتضنتها وقالت : « بودّي أن لا أراه

أبداً .. هذا الزنزانة الأبدية . »

قلت : — لا تعودى الى حزنك من جديد . اذا احتججت شيئاً ..

فلا تترددي . قولي لملك اذا استحييت مني .

رددت باستحياء : — لا ، لم أعد أستحي منك . قل لي أصحيح
أن بنات الجامعة لسن مؤدّبات ؟ .

— ابدأ .. نجلس معاً كما جلست معك ، إنما بلا دموع . ابتسمي

قبل أن تذهبي ، ولا تغلقي النافذة بعد الآن .

نزلت يهدوء ، وابتسامة رقيقة تلوح خجولة على شفيتها

الطريّتين . سألت نفسي أسئلة كثيرة ، ووقفت أُتبطّن شعوراً
دواراً أشبه بالدّوامة . كانت خطوات ثريا ما تزال تطقّ على
الدرج ، وقبل أن تختفي التفتّ فرأيت عينيها مليئتين بالدموع .
وعدت ، فاصطدمت عيناها بالمئذنة يتلأأ منها ضوء أسود ،
ويبرز من حازونتها رأس الشيخ المتعب يقول : « الله اكبر » .

كان ثمة شعور مبهم المحتوى رنان الإيقاع يتأرجح كأنشطة ،
يلفّني ، وساقاي تتحدّران على الدرج . وفي البيت رأيت هلال
وملك . كانت تقول له من المطبخ :

— هكذا .. إذن فلن ترسم لي صورتي ؟ ولم تتمّ اللوحة .

ويحببها هلال :

— فيما بعد .. فيما بعد .

ثم يلتفت إليّ ويقول :

— حسناء تسلم عليك؟ لنتعشّ ونلعب بالورق .



إذا كان لذكرى « المولد » عندنا في اللاذقية احتفال عائلي صغير يقرأ فيه أخى الأكبر بعض القرآن، ويؤدى بعض الصلاة، فهو في دمشق ملقى عملياً : منذ سنتين لم أحضر « مولداً » ولا أعرف حتى كيف تتم الموالد . ولعلّ لذلك سبباً في أن جارنا لم يضع وقتاً طويلاً لإقناعي بحضور مولد يقيمه « أبو الخير » في باب الجابية .

لبست ثيابي ، وتعطّرت ، واصطحبت شبّابتي ، طبقاً لطلباته ، ثم خرجنا معاً . كان الظلام راكداً ، وأصوات مبهمة تتصعد من وراء مكان ما . وأحسست بشيء من الرهبة زاده شعوري بأني مقدم على تجربة جديدة لا خبرة لي بها . انمطفنا

في أزقة ضيقة كثيرة، بنيت حولها البيوت على طراز عثماني، تتفرع منها ممرات ضيقة، غالباً ما يوجد في نهاية كل منها باب الدار . الطين، ولون أصفر رمادي، ونوافذ عالية، أبدأ مغلقة، وصمت يحوم هنا وهناك، حتى لتحسب نفسك في قلعة أو مدينة مومي تتحرك عظام سكّانها داخل لحود رصاصية .

كيف يحتفل الناس بالمولد؟ إن صمت الجدران المظلم لا يفصح عن شيء . ورحت أستحثّ الخطى بتشوق أرعن، حتى وصلنا زقاقاً انعطف منه مسلك، سرنا به حتى النهاية . ثمة كان باب ارتفاعه ثلاثة أمتار ونصف المتر، مطعم بصدأ كثيف، يحثم في قلب الليل . نقر جاري على الباب، وبعد قليل فتح وأطلّ منه حاجبان أشعثان وشوارب منتفخة، صرخ صاحبها مرحباً وفتح لنا الكتلة الحديدية الضخمة .

دخلنا فسيحة مسورة، ترتبت على جانبها الأيمن عدة غرف، تقارب في تداخلها من بناء « الحرم لك » . وعلى الجانب الأيسر غرفة واسعة كانت تنبعث منها مهمة ملفوظة .

في الغرفة كان ما يقرب من عشرة أشخاص ينطرحون على كنبات وثيرة، وفي يد كل منهم كأس من الشاي . في الصدر كان الشيخ، وإلى جانبه رجل ضخم المنكبين أمسك بيده كتاباً صغيراً .

لقلقتهم بنظرة باردة، وسلمت، ثم جلست قريباً من الشيخ وقدم لي فوراً كأس من الشاي، ثم تسلل إليّ الصمت . تكلم

الشيخ كأنما يصل حديثاً سابقاً ، وتلفت أمسح الوجوه المطعجة
حولي بحاجبين مقفلين .

« هذه بدعة أحدثها أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي
بن بكتكتين التركماني » .

ملت على جاري فقلت : « اذاً ليس عربياً ! » فشدني بيده أن
اصمت - صاحب أوبل في اواخر القرن السادس .

ثم تناول الشيخ الكتاب الصغير ، وأخذ يقرأ مقدمته :
« باسمك اللهم يا رافع السماء ، وسامع الدعاء ، وملهم الحمد
والثناء ... وسعت نعمته كل سابح في الماء ، وسانح في الهواء
وسارح في الخضراء ... »

تذكرت أمي ، إنها لا تستطيع أن تسبح ولا أن تسبح
ولا أن تسرح .

كان الانتباه قد أنزل ذقون الحاضرين ، ودلّ شفاهم ،
وخلق في الغرفة سكوناً وقوراً . رحلت أناملهم يهدوء ، ودون
أن أحرك رأسي لمحت الشيخ ، وقد وقف عن اللعب بمسبحته ،
ينظر إلى كؤوس الشاي الفارغة . وكأنما أدرك الحاجبان
الأشعثان معنى نظرة الشيخ فصرخا : هات الشاي يا محمد .
.. وبرز واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء

العلية - انفصل الرجال عن كتابتهم نهوضاً وهم يصلعون .
وخمنت أن عليّ القيام أيضاً فنهضت وكانوا قد جلسوا . أخذوا
يمسحون أوجهم وذقنهم ، يشربون الشاي ، ويملاون أفواههم

بالصلاة والسلام . لكزني جاري ففعلت كما فعلوا .

«وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ...»

كان الشيخ قد اتكأ على كنبته جيداً ، وإذ انتهى أسدل أجبانه ، وصمت لحظات ، ثم بدأ ينشد بطريقة صوفية ، ويكثر من التردد والترجيع ، بصوت لم يكن مقبولاً بالمرّة ، وكلما تقدّم في الغناء زادني هلعاً وتقزراً .

كان صوتاً رهيب النشاز ، يغني فيفتح في الأذن نفقاً ، ويتمدد فتقبض عضلات وجهه ، يقف فيغمري غثيان ، ويستمر فأشعر برأسي بين فكيّ ملزمة . واستمرت القراءة أكثر من ساعة .

كان غناء الشيخ فظيماً . واذا ازداد انسجامه أخذ يتأيل ويهز رأسه هزاً دورانياً وهو مغمض العين ، وقد سال بعض لعبه من زاويتي فيه . أرسلت لجاري نظرة مستغيثة ، فحدّق بي مهدداً ، وكان أن تناولت كأس شرابه خطأ فجرعته .

.. لكزني بيده : — لا تكثر من الشرب ، انتظر .

أشرت له أنني أريد أن أتقياً ، فتقوّس حاجباه عجباً .

انسحبنا بهدوء وبطء ، ولحق بنا صاحب الدار . بعد قليل اخذنا مجلسنا ومال عليّ جاري وقال :

-- اسمع ، هذه مدائح للحضرة النبوية .

وانطلق الشيخ فجأة يغني ، بالتجويد السابق نفسه :

« هَيْمَتِي .. تَيْمَتِي .. لا بكأس أسكرتني . »

وتردّدت أصوات مبعثرة ثقيلة :

« الله .. الله .. يا شيخ جمعة . »

— اللهم صلّ وسلم عليك يا أشرف الخلق .

وصرخ الشيخ ثانية : « هَيْمَتِي »

فانطلقت الأصوات : الله .. الله .. يا شيخ جمعة .

— تَيْمَتِي .

فامتلأت الغرفة بالتهليل . وكانت الحروف تخرج من
فمه أشبه بحركة غريزية يحاول صاحبها التملّص من بين شدي
حوت أطبقا عليه ، وكان خروجها محاولة انتحار أخرى
بالنسبة لي .

« جاءت مبرقة فقلت لها اسفري »

عن وجهك القمر المنير الأزهر »

— الأزهري .. أمان ..

وكأننا تفتّحت سجيته فانطلق يقطع الحروف ويلوكها ،
وأخذ حنكه يتمطى بالكلمة ويتعرج بمخرجها . كان وجهه
في غيبوبة ، وعيناه ضائعتين ، وبدا كأنه انفصل عن العالم :

« القمر المنير الأزهر . »

إن جارتنا ، زوجة الشرطي ، وشعرها الأحمر البرّاق ،
جميلة جداً .

— جاءت مبرقة .

لقد خرجت بقميص النوم ، كالعادة لتنشر الثياب على الشرفة . وأنا .. أنا وحدي .. أراقبها من عل . إنها ليست مبرقة ، بل إنها في الواقع نصف عارية ، وذراعاها مليتان بروعة برونزية لا مثيل لها .

- جرحت قلبي بلحظها الفتاك .

جسمها ، يا لجسمها .. ذراعاها العاريتان .. يا لها ..

- فتى يا حياة الروح ألقاك .

صدرها ، يا لصدرها .. قامتها .. كلها ... كم أودّ لو ألقاها !

- جرحت قلبي ...

إن منيرة لم تجرح قلبي ، لكنني أخذت أقبّلها بنهم في غرفتي الصغيرة وأنا اطل منها على البحر بين الحين والحين .

نهض رجل فأحاط خصره بلاءة حمراء وطلق يرقص بعنف .
ما أبعد ما تتحرك أعضاؤه ! إنه يتلوى كلبلاية ! أخذت منيرة ترقص أيضاً .. كانت سعيدة جداً ، ثم انهمرت عليّ وقالت برنة عميقة الحزن :

- لا أدري كم أحبك ، أحبك كثيراً .

وانقلبت وعادت ترقص ثانية . انقتل الرجل ، وضربت المزاهر والدفوف ، وانتزع جارنا شبابتي ووضعها في فمي ، وانقلبت الغرفة ، واختفى الجميع .

بعد قليل شقت وفتحت عيني لأجد أكثر من عشرين عينا أخرى تحمق . وتعال نداءات فوقتي تشجّني وتستحثّ

« رجولتي » . كان ثمة ما يبرر أصواتهم ، فقد مدّ سباط طويل عليه خروف محشو ، جثم على مشاعرهم ، نهض الشيخ فقطعه بالتساوي : حصة لكل اثنين . وكنت مع جاري .

وهجيم الرجال على الطعام ، وأقبلت رغم غثياني آكل بشية ، فقد كنت جائعاً . أخرج جاري من جيبه زجاجة صبّ منها في كأسه سائلاً أخبرتني رائحته أنه عرق . أحسست كأن دمي يغور في شراييني ، فوضعت راحتي على الكأس وقلت :

— ارجع هذه الزجاجة الى جيبك وكبّ هذه الكأس بجذء غير فك .. هذا لن تشربه .

فاطلق نهضة فيها تسامح عاقل وردّ :

— لا جارنا .. لا جارنا .. هذه لتصفية المزاج !

— لا تأخذني بالمزح ، فإني أتكلم جاداً .. أنا لا أشربه ، وأنت لن تشربه .

وردّ جاري بنهضة فيها تسامح عاقل :

— ولكن هذا ليس محرماً .. إنه غير مسكر ولا تنطبق عليه شروط الحظر .

قلت بإصرار ، يتخفّى على استعداد للثورة ، حازم ، فظّ الثبرات :

— لست أحدثك عما أمر به القرآن وما لم يأمر .. ولن أحدثك .. ولكني أقول لك ، لن تشربه .
وتأملني بابتسام حائر ، وتأملته يجمود . كنت شديد الضيق ،

بالغ القرف ، فتناولت كأسه ووضعتها يجاني .

وبعد الأكل قرىء شيء من القرآن ، وتليت بعض النصائح .
ثم نهض الرجال وبدأوا تحركاً عجيباً . كان الشيخ أوله ، دفع
كرشه للأمام ، ففعلوا ، وظهره للخلف ، ففعلوا ، ثم كرشه
للوراء ، وظهره للأمام ، ففعلوا ، فيما كان رأسه يدور كخذروف
حاذ الطرف . نهضت معهم بحركة غير واعية ، وما لبثوا أن
تحلقوا وبدأوا يدورون ويدندنون وهم يتابعون الحركات نفسها .
سألت جاري :

— لم الدوران ؟ .

فقال إليّ وهمس :

— إنه الحركة الدورانية الفلكية في عالم الخلق ، والتجددية
الدورية في عالم الأمر ، لإظهار الوجد والتواجد للحضرة الربانية .
شعرت كأن إصبعاً قاسية تشد أُمعائي وتسحبها .
قلت لجاري :

— هل أستطيع أن أجلس ؟ .

فهمس بسرعة : — سوف تقسد الانسجام .

ازدادد الاصبع قسوة وأحسست بمزاريق حادة تعبر بطني
مبوراً عنيفاً . بعد قليل جعلت أعتصر وسطي وأتلوى ،
انسجبت مرغماً دون أن أدري أين التجيء . كانت خطواتي
صيرة مفاجئة متخبطة ، وزاد في شعوري بالتخبط تحركات
لرجال الالتوائية الغربية .

تدحرجت ، أتلوّى ، وأستنجد بصوت خافت أن يخرجوني
من الغرفة . تعالت هممة فنظرت اليهم بسياء متقيئة ، كانوا
يحمجون إليّ بأعين مشرشرة ويبتسمون . اقترب جاري وقال :
— مثلك من يظهر الوجد .. إنّ تلويك تحفة .

وأطلق نهبة قصيرة فجّة . تقبّض وجعي بعنف وصرخت به
بوحشية :

— إني أموت ، يلعنك ويلعن تلويك ...

— لو أنك شربت ، لما حدث هذا معك !

واقترب مني مع رفاقه قبل أن أنهار على الأرض .



٧

أمضيت طريح الفراش ثلاثة أيام ، كنت خلالها عرضة لارتفاع الحرارة المتعب ، وقهقهات هلال ، ونظرات ملك المشقة . في اليوم الثالث أحسست بتحسن ، فنهضت من الفراش أتجول في غرف الشقة ، لكنني تعبت سريعاً ، فجلست على كنبه - في تلك اللحظة تسلل الى أذني صوت رخيم مفعم بالحنان يتحدث من مكان ما وراء بيتنا دون أن أفهم منه شيئاً . أغمضت عيني وألقيت رأسي على الجدار . وتنبّهت بعد ثوان لشيء لدن ساخن يلذع شفتي . فتحت عيني ورأيت ملكاً تحمل يدها عصصاً ضخماً مكسواً بالدهن ، مسلوفاً ، والحرارة تتصعد منه . وشرعت تهز رأسها مهددة ، وتبتسم لتنقل معنى مترف

العقاب :

— ماذا علمت بثريّا .. يا ملعون ؟ متى أصبحت ترسل لك عصصاً ، وتوصي به خصيصاً لك ؟ .

رويت للملك باختصار ما حدث ، وشعرت في نهاية الحديث بانتعاش سعيد . وهزّت رأسها باستنكار :

— معقول ؟ .. انت أو أخوك ، هل اعتدتما أن تتركاً مناسبة كهذه ؟ . بدينك : كم مرة قبلتها ؟ .

زالت عني تساؤلة مفاجئة من دعايات ملك وضحكت . وأكدت لها أنني لم أمسها بهذا القصد مطلقاً ، واضطرت أن أوكد كلامي عدة مرات ، حتى بدا أخيراً أنها اقتنعت .
— من أين أتتك هذه الفضيلة المفاجئة ؟

— ليست فضيلة .. لكنني لا أدري كيف تصرفت ، فلم أخطّط ، ولم أفكر بشيء على الإطلاق .

عندما بدأت ألتهم العصص ، ردّدت ملك بعفوية :
— فلاح .. ستبقى فلاحاً ... كأنك جئت للتوّ من قرينك .
ودخلت المطبخ .

كانت ساعة الحائط تبدّد دقائقها أشبه بأيام اليهودي التائه . تذكرت سميحة ، فنهضت بخفة ، ولبست بدّي .

يجب أن تنتهي علاقتنا الى شيء ما ، فالحق أن سميحة تعرف جيّ لها . ولكن ما الفائدة ؟ إنني لم أحدثها مطلقاً .

— ستّ الملوك ... بخاطرك .. أنا ذاهب لأرى سميحة .

— الله معك .

لا... إن الحب وحده معي ، وبه ستذوب مشاكلي .
سرت والليل يلج أثر النهار وبقلي نبض يتراقص أرعن
قوياً . إذا لقيت عند سميحة صدى .. كم أودّ لو ألقى عندها
صدى . لقد مضى من عمري عشرون عاماً ، دون أن أحب .
كان إخوتي يشفقون عليّ وكنت أشعر بذلة شفقتهم وبفقدانها
للعاطفة التي لا تنبع من شيء غير الشعور بالواجب . سأرتاح
مع سميحة ، وأنفث دخان التفاهة المقرف الذي يخنق أيامي .

اقتربت من الجامعة ، وفي داخلي جلبة تصرخ ، وشعور
بالرهبة من شيء ما سيتقرر اليوم . ورحت أهبي نفسي لتلقي
صدمة عاطفية ، فهذا هو حيّ الأول ، فلا أظن أنه سينبت غير
الشوك . شعرت بسكون مهيب يحترج كياني بإقلاق راعش :
ضوء الزوايا الباهتة ، وبريق النجوم الغافية ، أخذاً يضغطان
قلبي بعنف شديد .

عبثت خطتي الحديد ، وسرت ، فعبرت خطين آخرين
وسرت أيضاً .. لم يكن القطار هناك .. كان ثمة شعور صافٍ
غير معقد ، ولا دوراني كمجالات القطار ، يتجول في خاطري
ويستعد للقاء سميحة .

علمت أنها في قاعة الامتحان « بمديرية التسجيل » ، فانعطفت
من مدخل الجامعة يمينا وسرت ، وكم لذي المسير . وقفت أمام
باب القاعة ، فرأيتها منكبّة فوق أوراقها ، وقد وضعت ساقاً
على ساق . وشرعت أنأملها مفتوناً مركز الحواس ، مجتمعة
العاطفة ، كأنني أرى في تفاقم شعرها الأشقر ، سرّ الله والعبقريّة .
لا أدري كم من الزمن مرّ وأنا على استنادتي الحاملة : ظهري

الى الجدار ، وعيناي إليها . لكنني تنبّهت الى قامتها تنهض وتطلق تنهّدة ضخمة ، ثم تختفي في القاعة قليلاً ، وتظهر عند الباب فتَهزّ استنادتي .

سارت منبسطة المحيّا ، وعبرت الممر الذي أقف فيه ، ثم خرجت من الباب دون أن تميّزني ، وانطلقت وراءها بدون وعي ، فأدركتها عند المنعطف المتّجه صوب الجامعة . ووقفت بقوة راغمة . كانت تسير ، بكعبها العالي ، وكأنها تخشى أن توقظ إنساناً نائماً ؛ ويرنّ في قلب الظلمة صدى خطواتها النحيل المحنوق كجبة فيروزية قصيرة المدى ، ثم تنتقل بتلكؤ ظلي وخفته فوق سديم الأرض المغبرّ ، والليل حولها يشوش صورتها في عيني فتزداد روعة وانسراباً .

وأُسّرت فأدركتها ثانية ، وحاولت أن أتكلّم ، فتصاعد نبض بالغ القوة الى حلقي أوقفني عن الكلام . وغالبت جمح صدري ، فتقدّمت منها ، وحاولت بعنف رفع صوتي فقلت :

— سميحة .

وبدا أنها لم تسمع ، فكرّرت النداء ، وكنت قد وقفت بجانبها . التفتت إليّ مدعورة فأربكني اضطرابها . قلت :

— مساء الخير .

فردّت باقتضاب ، وتابعت سيرها ، دون أن تنظر نحوي .

— اعتقد أن ما سأحدّثك عنه غريب ... وقد يكون فظاً ..

ولكن يجب أن أسألك .. أحقاً ستركين الجامعة ؟ .

حدّثت بي مغیظة عابسة وقالت :

— لا ..

وكانت لهجتها هادئة . فقلت :

— يعني أننا سنراك في الجامعة ؟ .

فلم تجب .

وشعرت بضآلة غامرة ، فأسرعت إلى القول :

— سمیحة .. أنا أحبك ، فما رأيك ؟ .

تأملتني بدهشة ، ثم ابتسمت ، وبعد هنيئة أخذها الاضطراب فأطرقت خجلى .. سرت بجانبها منتشياً ، ولحت بعض العبوس يرادو خديها الصافين . كرّرت سؤالی وانتظرت الجواب ؛ لكن ردّها خرج بطيئاً شديد المفاجأة . وقد توقّعت أنّها ستصمت مزيداً من الزمن قبل أن تقول :

— اذا كنت ستستمرّ على وقاحتك ، فلا أقبل من أن تذكر أنّي لم أتحدّث اليك من قبل .. كيف تقول هذا الكلام ، وأنّ ترى الخاتم في يدي ؟ . ألا تعرف أنّي لا يجوز أن أتحدّث معك وأنا مخطوبة ؟

ثمّة كانت حلقة صفراء تحيط ببنصرها اليمنى . وانطلقت مني قهقهة قصيرة لا إرادية ثمّ تملّكتني همّة مستحثة فقلت :

— هذا لا يمنع أنّي أحبك .. وأريدك .

ولم تنتظرني ، ولعل ذلك كان إنقاذاً لي من ارتباك بدأ يأخذ بمداركي ، أعتقد أنّه كان بسبيل أن يورطني في مواقف ممعنة

الخطر . وبينما وقفت ، انحرفت هي عند مدخل المديرية وسارت نحو النهر . وأخذ هيكلمها المتسق يتباعد في جوف الظلام ، وتتبدد من حوله نظراتي ، وقد خلت من كل معنى . شعرت بتخثر شعوري ، وثقل عليّ التفكير ، وبدأت أصفر أغنية جبلية ، وغبت في متاهة الشارع . الأشكال أمامي راحت تتخذ شكلاً هلامياً تلفه قيلولة المساء باستغراق واجمة . وفجأة انطلق صفير القطار هادراً ، حاداً ، وانبعثت منه دخنة خانقة ، ثم تغطى بعرباته وهجم فوق القضبان . شتمت الحضارة يهدوء ، وبصقت أعصابي على عواء هذا الوحش الحديدي ...

ما أشد انغلاق سميحة ! لقد مرت بهذه التجربة في الرابعة عشرة من عمري مرتين ، الأولى مع عذراء لم تتكلم ، والثانية مع متزوجة أفهمتي برقة نخجلة أنها ... متزوجة .

وصلت البيت في التاسعة ، كان هلال يعبث بالراديو ، وملك تطالبه برسم صورتها مختلطاً بصوتها بشخير السماور . لم أتكلم بل دخلت غرفة الحمام وفتحت نافذتها ، كانت ثريا تكشر فوق صحن كبير ، يتصاعد منه بخار كثيف فتأملتها بشغف ونبست :

- است .. اس .. هي .

وتلفّنت ببراءة فرأتني . وابتسمت لها ، فالتفتت بسرعة وأغلقت باب المطبخ ، ثم انسحبت عن وجهها تكشيرتها السابقة ، وطرفت نحوي بعينيهما الغضاريتين الفسيحيتين . وهمت بأن أتحدث لها عن سميحة ؛ ولكني سرعان ما أدركت تفاهة الحديث .

وكان أن أشرت لها بيدي الى العصص ، ورسمت لها
في الهواء شكله ، ثم وضعت يدي على صدري في خشوع ، ورفعت
رأسي . فضحكت بصفاء ، وحرّكت يدها في الجو ، نصف
دائرة علوية ، ثم إصبعها بالطريقة نفسها . طويت يدي على
صدري وهزرت رأسي يئنة ويسرة ، مبتسماً مغمض العين .
وبعد هنيهة صمتٍ مفعمة بسعادة داخلية ، ضحكنا بصوت عالٍ ،
ووقفت أتأملها تتناول الملاعق ، والشوكات ، ثم تلوح لي بيدها
البضة ، فتترك المطبخ .

عدت الى الغرفة واستلقيت على السرير . سألني هلال مازحاً :

— كنت تتحمّم أستاذ ؟ .

فرفعت صوتي بقوة سعيدة ، وقلت :

— غداً سأكل عصصاً .

— تعال نلعب الورق .

— سوف أهزمك .

الفصل الثاني

لقد أضعت قسماً من عمري ، والبقية في الدرب الى الضياع .
 المولد يبتزّ بعضه ، والفراغ واللاجدوى بعضه الثاني ، وسميحة
 بعضه الأخير .

سميحة مخطوبة ! متى وضعت هذا الخاتم في يدها ؟ وكيف
 لم أره ؟ لقد سارت من أمامي كما يسير ظلّ غمامة على الأرض .
 سميحة مخطوبة ، ما أشد ما تعبت بالقلوب الحياة !
 لست أدري ماذا افعل بأيامي ! إنها مليئة بالبعثرة والتردد ،
 مفعمة بالاستحالة . ولعل قدحاً من البيرة ، أشقر بارداً ، يطفئ
 الجذوة ، ويخمد هذا الشعور الحادّ بالأسى والرغبة المتحفزة
 للقيام بعمل ما . ما أحوج الإنسان الى أن يغرق في شيء ما ،

يفرق بجميع أبعاده ، فلا يستفيق إلا على أجراس نبيّ جديد .
ما أحوجهُ للتمرد في وحول هذه الدنيا المحرّمة ، ليعرف على
الأقل لماذا حُرِّمت . ليعرف السبب الذي حدا بسميحة الى
أن تنتهرني .

وما أشد ازدحام الشارع . أعتقد أنني أعرف هذا الدافع
الذي لا يقاوم عندها ، الدافع الذي جعلها تهرب مني . ستترك
الجامعة لتتزوج . تلك مسألة في منتهى البساطة ، وجدّ مألوفة .
كثيرات يعبرن الشارع ويذهبن . لكنه مع ذلك مزدحم ...
ما أشد ازدحامه !

على هذه الناصية مخازن ترتسم على زجاجها الخارجي خيالات
مبهمة كسيحة ، ثم تنتقل بسرعة وتذهب . إذا كان ثمة من يحزن
لهبوت الصورة ، فالزجاج الهشّ الصافي . إنه يريد لها واضحة
نيّرة ، زاهية الألوان ، جمّة التقاطيع .

الازدحام يتضاءل . والصورة تتركّز . لقد اختفى كثير
من الصور ، لكن الباقي منها يزداد توضّحاً .

ما الفائدة ؟ لم يعد ثمة زجاج يعكس من الرؤى إلا الباهت .
وكلما مررت أمام واجهات المخازن هذه ، ألحفت في التطلع الى
ارتسامي ، وبالرغم من أنني أراه مرات لا تحصى ، فإني أحب أن
أتأمل من جديد ، ففي كل مرة أراه فيها ، يخيّل لي أنني
اطلعت بدقّة على شكل جسمي ، وطولي ، وعضلاتي . ثم ما
ألبت أن أترقب مروري أمام الواجهة التالية لأتمنّ فيه

مرة أخرى .

مررت بالواجهة الأخيرة ثم سرت .. لقد اختفت صورتي
من زجاج المخازن .

الازدحام معدوم الآن . لقد فرّ الناس من الطريق المؤدي
إلى الجامعة ، وتناثروا في أماكن أخرى .



٢

عند باب الكلية ، كان شبحان يقفان بابتسامة منتظرة .
وعلى البعد تبينت فيهما « دريد » و « صالح » . كان دريد
يستند بقامته الطويلة الناحلة الى الجدار ، وصالح يهز ساقه .
هرعت اليهما مسرع الخطى والوجيب . وإذ وصلت انبالا عليّ
قبلاً وعناقاً . وأخذنا نضرب بعضنا ونصرخ ، ونقفز ، ثم نتعانق
من جديد ونضحك ملء الجو .

— متى جئنا من الجنوب ؟

— أمس مساء .

وتبادلنا النظر بعبور ، فضحكنا ، وأسرعت أتأبط
ذراعيهما . وسأل صالح :

— كيف أيامك أبو البشر ؟

— تعبانة .. وانتم .. متى يطير صاحبنا ؟.

هزّ صالح رأسه مهدداً :

— شهر أيضاً .. عندما تتكّتل القوى الثورية ونخطط ،
ويقدح الفكر ، سترى صاحبنا مطروحاً على حذاء .

أقترح دريد : — هيا بنا الى خمارة بقلة .

وسرنا نحو الحانة ، ويداي لا تزالان ممسكتين بيديهما .

قلت : — اي دريد .. كيف « الخضراء » ؟

ضرب دريد الأرض بمقدم رجله ، ونشم ، ثم قال :

— ميتة .

قلت : — ميتة كيف !.. وصاحبنا ؟..

— شهر . أجاب دريد باقتضاب .

وعقب صالح : — ما اسرع ما ستتمّ الوحدة !.. فماذا يبقى
بعد ذلك من إسرائيل ؟. أتدري .. عندما قامت ثورة العراق ..
اوه .. قامت المظاهرات قيامة .. يم ، البلاد كلها ، بحر تموج به
الخلائق البشرية . ومع ذلك كان الوضع رهيباً . الدوريات
باستمرار في الشوارع ، وحظر التجول يطبق بشدة هائلة .
ولكنك رغم هذا كنت تسمع سبة الاستعمار أننى سرت .
والمظاهرات ؟! يا الله تلك الأيام ما أجملها !

قال دريد :

— لقد سجن صالح .

تطلعت الى صالح ضاحكاً مستفسراً ، فضحك بدوره وقال :

— قدت مظاهرة بشوارع « الخضراء » ، أخذت تهتف للعروبة والوحدة فطوّقني الحرس وأخذوني الى السجن . سألته كيف خرج ، فضحك ، ونكش أنفه كأنه يتذكر الحادثة :

— أقنعتمهم أنني كنت أمتف لصاحبنا قائد العروبة ، فتركوني . فقهقهت ملء صدري ورحت أقبل صالح ، وأحله ، وأأوله بعض الكلمات . وسرنا وأنا متخف بمجبور لعوب .

وصلنا الحانة ، وانفردنا بطاولة غبراء في زاوية ملفوفة بضوء أزرق . وبعد ذلك أحضر السّاقى زجاجات بيرة ثلاثاً وضعها أمامنا . تأملنا بعضها بابتسام ، وصمتنا ، كمادتنا ، احتراماً لشبهة البيرة عندما تُنزع عنها السّداة المقيدة .

تناول صالح زجاجة وأغرقها بعينيه ، وتلفّظ ، ثم جرع بعضها .

— دريد .. اشرب ، واستمخ .. كأس للعروبة وبس . علينا دورنا الذي لم تنم .. أبا الدرد .. سنطبخ بصاحبنا ونضع وحدة .. ونعيش في جمهورية عربية جديدة .

صببت قدحاً لدريد ، وآخر لي وقلت :
- أهنئكم وأنا اشعر هنا بضآلي . أعتقد أن ليس لدي سوى
الانتظار .. أترقب اليوم الذي يهبّ فيه غيري ، فيصنع لي
وحدة عربية . ليس لدينا شيء ضد الحكومة فنسجن بسببه ،
ولا يمكننا محاسبة بقية الحكومات العربية . أغير شيئاً من
الفساد أن تبقى نسبته ونشتمه ؟
قرّر صالح :

- رح انكبّ .. انت تعيش في جمهورية عربية .. ونحن
نعيش في سجن .

قلت : - أعتقد أنك أشرف مني . نحن ننتظر . المهم الآن
أن شيئاً ما لا يبدّ سيحدث في المستقبل ، وإلى ذلك الحين فأنا
وأنت سنعيش عائلة على الدنيا . أما إذا حدث أي تهديد للوطن ،
فعند ذلك يجب أن نموت . أوكد لك أنني في منتهى القرف من
حياتي .. تصور أننا لن نشارك في قيام ثورة أو في توسيع الجمهورية ..
ولولا أن ثورة العراق تعطي للوجدان شحنة هائلة من العزيمة
والآمال ، توقف إلى حين طمي الانهزام الشعوري الموحد الذي
يفرق حياتنا ، لقتلنا الزمن .

تناولت قدحي وجرعته حتى نهايته : أريد من الحياة حباً
طلقاً ، يفور كزبد هذه البيرة . وينتهي بسرعة انتهائه ، يبدأ
فيفور من جديد .. ماذا جرى لغيداء .. دريد ؟
ونقر دريد بإصبعه على الكأس ، وظهرت قواطعها في

ابتنامة مهزومة :

— رأيتها في النادي ..

صمت قليلاً وردد :

— أسألك: « كيف أنت غداء » فتجيب « مبسطة » ولا شيء آخر .. لا أدري ، إذا أظهرت عواطفني ، ماذا ستكون النتيجة .. وحتى العواطف هذه لا تزال أعنتها في يدي .

نبر صالح محلاً :

— أنت حسابي دريد ، كصاحب هذه الحمارة . عندما تحب لا تسأل عن النتائج . هذه مرحلة يجب أن تجتازها . تريدها أن تغازلك ؟ قل لها إنك تحبها ، وإذا فشلت فلن تقوم القيامة . هات صب لي بيرة ، فأنا في غنى عن غداء وسميحة .. بالكأس !

كنا نبسم ، وتابع صالح :

— شلة غرائق ستجدد هذا العام ، وبدلاً من العمل السياسي ، سنتحول الى العمل العاطفي . هدف الشلة مناصبة الفتيات العداء ظاهراً والحب باطناً ، وملاحقتهن بالشاؤ .. نحت جديد لشاي وكاتو .. الفكر يقدر ، والبيرة تلعب لعباً .. كأس للعيون الخضراء والربيع الخالد في الجمهورية العربية ، بأقاليمها السابقة واللاحقة .. أسمعنا شيئاً من الشعر أبا البشر . قلت وابتسامة صغيرة على وجهي تعان كأس البيرة النشط :

— لم أرتو بعد .

ضحك دريد وقال :

- أليس لديك مصادر أخرى للوحي ؟ .

رميث رأسي جانباً واسترخت ثم قلت :

- كثيرة .. مئذنة وساعة حائط وقطار ، وزوجة فاتنة

تأكل علكة كل يوم ، صرير الباص وشخيره ، والقمر تراه
فتحسبه لمبة معلقة فوق الشارع .

اقترح دريد :

- هيا بنا نمسح الشوارع .

دفعنا الحساب وانطلقنا في شارع بيروت .

قلت هازلاً :

- المشكلة أنه ليست لدينا مشكلة .. لو أن أحداً منا يعاني ..

لا أدري كيف أعبر ...

انعطفنا باتجاه « ابي رمانة » ثم قطعنا الشارع الجميل ضحكاً

حتى نهايته . وعند الجامع المنتصب هناك أخذ دريد يصفر ،
وصالح يتأمل البنايات الجميلة ، ويداي تنقران على أسوار الحدائق
التي نعبر بها .

مضى وقت طويل دون أن تتكلم . وطرقتنا أسواراً كثيرة ،

أنقرها بيدي ، ويصفر لها دريد ، ويتأملها صالح .

قال دريد : - ما أبشع أن يكون الشيء صلباً !.. انظر

بأية قسوة تستقر هذه الحجرة على الرصيف .
قلت له : - في الحجر جمال الصلابة ، أما الأبدع والأشد
إيلاماً ، فأن يكون قلب الانسان جيفة .
وصمتنا من جديد .

في شارع ما سألتني صالح :
- ألدبك الشبابة ؟
ثم تحمس إبطني الأيسر فأخرجها :
- مات فالوقت مساء .. ولتبدأ بالشيطان ، ولكن أسمعني
بعد ذلك مقطوعي .

بعد دقائق وقفت عن النفخ وقلت لدريد :
- ما بك ؟

فأجاب مطرقاً :
- نحن نأفهمون .
سرنا دون أن نتكلم . وأعلن دريد ثانية :
- نحن نأفهمون .

ثم اقترح أن يعود كل الى بيته .
كان ضوء نجيل ينهزم من نافذة مطبخ قريب ، وظلال ترتفع
باستمرار نحو السماء كأنها وجوه تتقيأ ابداً غاز الآزوت .
وسرنا ثانية .

وفي منعطف صغير رأيت شجيرة ورد داخل سور حديقة
مرتفع . مددت يدي فقطفت زهرتها الوحيدة البيضاء .

سألني صالح :

— ما هذه ؟

فأجبتني :

— فلة .

قال دريد : — ما كان ينبغي أن تقطفها ، فغداً ستذبل .

قلت باسماء : — إذن أقطف غيرها عندما يأتي غد .

قال ضاحكاً : — شتتني الورد بهذه الطريقة ...

فعلق صالح : — لا تخف .. ثمة أشجار كثيرة يمكن أن

تزرع .

تطائر من أمامنا باص « المهاجرين » الضخم ينحدر نحو « الحميدية »

فتأملتني بسخرية متقرزة ثم نقرت بإصبعي على سور حديقة جديد .

قال دريد : — عندما كنا صغاراً علمونا القناعة ، وحب الله

ومحمد وما بقي عليه الإسلام .

فرددت : — ثم قرأنا بعد ذاك « الذباب » و « كاليجولا »

و « العادلون » . دعونا .. سأذهب من هنا .

وركبت الباص .

وفي البيت كانت هلال يدخن واجماً وملك تقف على عتبة

المطبخ ساهمة . تأملتني باستغراب عابر ، ثم تقدمت ففتحت

الراديو .

أعلن هلال مبتسماً :

— سنهجر ك يا أستاذ .

قلت ويداي تعبشان بالراديو :

— إلى القاهرة ؟.

فرفع حاجبيه :

— اي نعم ، في الأسبوع الأول من كانون الأول .

ما أقصر المدّة .



في صفنا وأيّ صفّ حلو الروى والتنبؤات حفنة من أريج
 مغناج فاغم الحسن . فيه « سحاب » ولو لم يكن فيه غيرها
 لكفاه روعة وتشويقاً . عيناها البنفسجيتان ترسلان أبدأ سؤالاً
 حائراً ، لا السؤال تفهمه ، ولا الحيرة تدرك سببها . غير أنك
 ترى ، في انفراجة شفتيها الثريتين ، شيئاً آخر ، إنه دعوة
 للحياة ، وتفتّح ، بسمة جزلاء ترسم فما تلبث أن تندفق بين
 الضلوع بلهيب متحجّر أصم . إنها تنظر بتثاقل لا مبالٍ حزين ،
 حتى ليخيّل اليك أحياناً أنها تحمل ملء عينها سرّاً دفيناً
 جارحاً ، وأن تحت الكنزة الرمادية الجميلة التي تتطرح على
 كتفها في كسل يشبه كسل خطواتها ، أغواراً لا تسبر .

لم يكن وجهها غريباً عني ، لقد ألفتني في العام الماضي ،
لكنني لم أتعرف الى صاحبتني ، ومع أنني لم أشعر بشيء غير
عادي ، عندما سمعت بعض الرفاق في الصف يقولون «مطلقة» ،
فقد رحلت أتأملها من مقعدي المزوي في طرف القاعة حتى
انتهت المحاضرة .

دندفت الى صالح نظرة عابثة وأشرت لها ، فهزّ رأسه
ببطء ثم أشار لغيدهاء ودريد في مقعد أمامي . هزّزت رأسي
بالمقابل وأرسلت الى فتاة ناعمة ، تثير نظرتها الشفقة والدم ،
تطلّعة فاحصة .

قال صالح : - من هي هذه المائل خشمها الى اليسار ..
ذات الشعر الشبيه بالبندورة الفرنسية ؟
قلت له : - إن جمالها من نوع عديمي .
- أترى التي يجانبها ؟

فنظرت للوجه الصافي المشرب بشحوب فاتن أسير ، بينا
هزّ رأسه ورنا إليها بتأمل شريد :
- مطلّقة ، وما أشد ما تغري !

وحيرتني بنظرة مذنبية . وبعد قليل شعرت ببخار يتصاعد
من صدري فيضيقه . قلت بسكون :
- اذا صح هذا ، فمجيئها الى الجامعة شيء رائع . إن صفنا
يشتر بموسم خير .
ابتسم صالح : - الفكر يقدر ، والقلب يلعب لعباً ..

الشاتوه والشلّة ، سيدآن عملاً .

خرجنا من القاعة ، وعند الحديقة انضمّ الينا دريد .
وانسحبت عيناى بسرعة الى مدخل الجامعة لتلتقيا بسميحة
تسير نحو الشارع الخارجى .

— أبا البشر .. ركضاً . نبر صالح ببشاشة .

وبالرغم من أن شعوراً أقرب الى شعور من يمشي في المؤخرة ،
ملأني تعباً وإحساساً بالعقم ، فقد سرت كأنّ قدميّ مشدودتان
الى المسير . تبعتهما الى مديرية التسجيل ، وبين عينيّ صورتهما
الملائكية ، وأيامي الضبابية السابقة التي مرّت بلا وقائع ولا
ذكريات .

وصلنا الى محطة الحجاز ، وأنا لا أزال أمشي بغير تصميم
على المشي . وبعد قليل ابتلعها باص ضخم ، عجّ صوته الشخيري
البشع يبعدها عني سريعاً . وتعاقت وراءه الباصات حتى
اختفى .

جرجرت خطواتي نحو الجامعة عودة ، وبدأت أحلق
بارتسامي في واجهات المخازن : كان في قعر الزجاج ، يتحرك
مبهماً بعيداً ، وفي عينيه بريق منطفيء كأنما ذابت منه للتوّ شمعة .
— سحاب مشتعلة .. إنها تحرقني .

— ما الفائدة ؟ . فهي ليست عذراء !

عبر قعر الزجاج شبجان ، مسرعين ، ماتت أعينهما .
هل أعود الى الجامعة ؟ . أين أذهب ؟

بعد ربع ساعة دخلت مبنى الكلية . رأيت في نهاية
الرواق « سحاب » تثير بمشيتها المتناقلة مويجات مترفة من
الخيال . كانت رغم الاستسلام العميق الطافي فوق خطواتها
مفعمة بالنداءات ، رائعة الوحشة .

تقفيت خطاها دونما تعيين ، وعندما انتهيت الى آخر الرواق
كان طالبان واقفين يتأملاني :

— فلتانة .. قد تجد في الجامعة عريساً ، هذه نيتها .

— ماذا يمكنها أن تعطي عريسها ؟ إنها لا تصلح لغير المتعة .

وصلت الى الحديقة وجلست على أحد مقاعدها . كانت
الشمس تغزل أشعتها في خمول ، والطلاب يروحون ويغدون .
وأقبل صالح يضحك ، فسألني عن سميحة . ولم أدر كيف
أشرح له ، فاكفيت بحملة متعبة :

— إنها مخطوبة .

جلس يجاني ، وطوق كتفي بيده ، ثم سأل :

— وسحاب ... كيف رأيتها ؟

فابتسمت وتأملت التراب الأبيض بين قدمي . وتابع صالح :

— في عينها بريق لزج تحس أنك تستطيع أن تمسكه ، لكنه

يهرب منك ، شأن الضوء ، ليعود فيجذب يدك وناظريك من

جديد . عيناها ، أبا البشر ، عيناها .. يا الله ، كيف طُلقَت

فتاة كهذه ! كان على زوجها قبل أن يطلقها أن ينتحر !

علّت لصالح ، بطريقة ما هذا الطلاق ، وأصخت بسمعي

لسكون الجو الدبق المثقل الضياء . الشمس في أوقات كهذه
تبرعم في دفء أشعتها أجلاماً صغيرة هادئة ، سرعان ما تذوب ،
ليعود بها إلحاح : إلحاح الحياة ، وإلحاح الفراغ . ماذا تفعل
الآن سحاب ؟ . كيف تقضي أوقاتها ؟ التفتت الى صالح فلمحت
على شفتيه ابتسامة ذات معنى :

— كأس .. وفراش .. وسحاب .. وشيء من النسيان
المطلق للزمن .

نهرته ضاحكاً : — هذه مثلك العليا .

وانتظرت منه أن يتكلم ، فلم ينبس بشيء . التفتت اليه
فوجدته يتأمل « سحاب » وقد وقفت على درجات مدخل
النادي .

تأملتها انا الآخر ، والشمس تطوق تنورتها البيضاء بشعاع
عادل لموب . بعد قليل سارت باتجاه الحديقة .

وغفلت عنها قليلاً ، ثم رنّ في أذني صوتها الأبحّ الأغنّ ،
تخاطب زميلة لها ، فيحمل لي انطباعة عن إله بار ومات ، ولم
يبق من صورته الا الحيال ، وصوته الا الصدى . ومع أن صوتها
كان حزين النبرات ، لكن ارتعاشاته بقيت في ذاكرتي زمناً
أبعد من مجرد التخيّر .

أحسست كأنني مخور بكآبة تتنصل من واقع الزمن لتلتقي
مع سحاب بتأرجح أثري الشكل ، عنفواني المحتوى ، بعيد كل
البعد عن مئذنة رمادية عتيقة ، قرب بيتنا ، تنفصل عن العمارات

الجديدة حولها كسجين هارب .

وشعرت بثقل الانطباعة التي جثمت على صدري ، فسألت
صالحاً :

— أين دريد ؟

و كأننا استفاق هو الآخر من تخثر مماثل :

— آه .. أنت تعرف أين هو .

قلت شارد الذهن : — أراه متعجلاً .

وسرحت . وبعد فترة أضاف صالح :

— عندما تحين اللحظة الحرجة يبطيء ويقف ، إنه دائماً

يخشى شيئاً مبهماً يشل إرادته .

قلت لصالح بوجوم : — إنه يخشى من نفسه .

نهضنا ندور حول رصيف الحديقة ، وزرافات الجامعيين

تغدو وتجيء ، وقد شعرت بغبطة العائد الى موطنه ، عندما

يعيش أيامه الاولى في شبه لا مسؤولية . ثم ما لبث الشعور

العابث ان استحال الى نظرات طويلة ساهمة . وسألت نفسي

بملل : « أهو حقاً أول يوم من ايام السنة الجامعية ؟ »

ودعت « صالح » وانطلقت أغدّ الخطى الى البيت . كانت

الساعة تقترب من الواحدة ، والشمس تتكبد السماء .

فتحت الباب ، ودخلت بسكون . رأيت ملك في المطبخ

فتقدمت نحوها ببسمة متعبة ، وحييتها . وتبسمت بطريقة

خاصة ، ثم هزت رأسها وقالت :

— ام .. لا أدري ماذا فعلت بثريا . كل يوم عصص .
وأمس دبرت لك غرفة عند أهلها .. ولست أدري ..

فتحت النافذة ونظرت الى مطبخ ثريا . كانت صلعة زوجها
تلمع تحت ضوء النهار ، وقد طأطأ يقحف بقايا حساء بارد .
أغلقت النافذة ، وبصقت ، ثم تناولت العصص من ملك .

انتقلت الى السطح حيث قابلت ثريا منذ أيام ، وتأملت
المكان خاوياً هادئاً ، يثير في الذهن بتحتسه السادر ذكريات
تتناوم رغم فراغ الأيام . قد لا يبتعد الزمن بثريا قبل أن تطلق
زوجها . من يدري ؟ . أهي نفسها الأسباب التي أرغمت سحب
على الطلاق ؟ . هل صادفت هذه « المطلقة » زوجاً لصقة
قصدمت بأمانيتها وتمرّد عنفوانها كما حدث لثريا ؟ . يا لثريا ،
إنها كسحاب تقاسي عذاب الغريزة والذكريات .

لو أنني أستطيع أن أضحكها ، كما أضحكت ثريا . إني أتوق
لذلك ، فكم أودّ لو يضحكني إنسان ما .

هبّ النسيم لطيفاً طبعاً ، فاستنشقت بعمق ، وتطلّعت الى
دمشق تنحدر بيوتها عن قاسيون وتتجمّع في القاع ، وما أكثر
ما في القاع من تجمّعات .

عدت الى البيت فرأيت « هلال » يغسل يديه :

— كيف بنات الجامعة أستاذ ؟ .

أعلنت له : — في صفّا أجل فتاة فيها على الإطلاق
واسمها سحاب .

مسح وجهه بالمنشفة وقال :

— حاول أن يصير بينكما كذا مدا .

ومطّ شفتيه وحركهما شمالاً ويمينا . هززت رأسي :

— لا بد وأنها حساسة بالنسبة لقضاياك هذه ، فهي مطلقة .

فتناول طعاماً لم ينضج بعد وأخذ يلتهمه وقال :

— جميلة ومطلقة ! ما هذا الجمال إذن ؟ . لا بد أن زوجها

قد ضبطها بشيء ما .. الرجل لا يطلق زوجته الجميلة ما لم تكن

فلتانة .. تعال لأهزمك بالورق ، تعال .

قلت له ضاحكا : — يا رجل حرام عليك ! أنت لم تسمع بعد

إلا باسمها .

ثم أضفت : — اللهم قنا شر النظام الإرهابي هذا .



٤

التقيت بصالح ودريد على الرصيف يحملان كيسى ورق
ويضحكان . هتف صالح :

- أبا البشر .. هذه بيرة ونبيذ لنا .. تعال إلى غرفتنا .
وغرفة صالح مفروشة ، بعرف الإيجارات ، تنفتح مباشرة
على صحن الدار ، وتستقل بسرير وخزانة وبضع كنبات ،
وسألت دريد : - هات دريد .. قصّ لنا ماذا جرى .
خرج صالح لبعض التحضيرات ، ونقر دريد أنفه بإصبعه :
- لا شيء .

فتأملته منتظراً أن يتكلم أكثر ، فاسترخى على كنبته ،
وندّت من صدره زفرة متهيّجة : « غداء معقّدة » ثم قوس شفتيه

وأخنى رأسه ببطء ، ورفض أن يتكلم .
أقبل صالح يُرقص قدميه ، فوضع الأقداح على الطاولة :
— سنشرب نخباً جديداً اليوم .
وواصل تراقصه . قلت له :
— وستعرف شيئاً جديداً ، ولقد قصّت لي حسناء ، قريبتى ،
أُمس حكايا الطلاق والزواج وكل شيء .
مزج صالح البيرة بالنبيذ في كؤوسنا ورفع يده :
— والآن ستقصّ لنا هذا الكلّ شيء .
جرعت من قدحي بعضه وتأمّلت دريد بنظرة باسمة وقلت :
— يا سيدي ، هذه سحاب : عمرها واحد وعشرون عاماً .
تزوّجت في الثامنة عشرة من مهندس يعمل في الكويت ، وقد
قضت شهر عسل أسطورياً . . في اللاذقية عدة أيام ،
ثم في استنبول ، فالنمسا فالإسكندرية . . فالكويت . اثنا
عشر ألف ليلة في شهر العسل . إني لأبيع رقبتى بنصف هذا
المبلغ . وبعد شهر العسل اختلفت مع زوجها ، لا أدري لماذا ،
لكن الخلاف ذرّ قرنه وأنتج فاتام كحرب زهير بن أبي سلمى .
وكان أن طلبت الطلاق ، فرفض زوجها . وأخذت تذله اجتماعياً ،
أندري كيف ؟ . كان يخرج بسيّارته في شوارع المدينة فيرى
المارّة واقفين يتأمّله بفرابة ، وإذا يوقف السيارة ليستطلع
الخير ، كان يجدها راكبة على المؤخرة . ذلك في الكويت ،
وسكانها متمسكون بالحشمة تمسكاً قَبلياً .

— الفكر يقدح .. لا بدّ وأنها « تعبانة » فتاة كهذه .

— واستمرّت حكايتها سنة وبضعة شهور ، ولدت خلالها بنتاً جميلة . وترثت لعلّ حياتها تتغيّر فتصبح ممكنة بعد أن ولدت ، لكنها لم تستقد شيئاً . تركته وعادت الى دمشق ، ثم التقيا في مجدون ، فلم .. تستقد .. شيئاً . طلبت الطلاق . فرفض ، وأصرّت فأصرّ . عادت الى دمشق ، وذهبت الى بيت أبيه لتعطيهم وليدتها وتخبرهم أنها تريد الطلاق . ورفضوا استلام الطفلة . أتدري ماذا فعلت ؟ . رمتها على رصيف الحديقة ، ورفضت أن تقابل زوجها أو أحداً من أهله ، حتى جاءتها ورقة من المحكمة فطلّقت وتنازلت عن ابنتها .

— برر ر ر ر . ما أروع هذا التحديّ !.. لكنني أعتقد أن قلبها تفحّم . قال صالح .

ورّد عليه دريد : — الجميل في حياة الإنسان ألا يرضخ لحسابية في الزمن ، بإمكانه أن يستجد حتى العواطف اذا لم تسعده .

قلت له : — لماذا لا تفعل ذلك دريد ؟.. قل لغيداء إنك تحبّها ، أبعده « الخضراء » عن ذهنك قليلاً فأنت تعيش في جامعة دمشق . لقد أعجبك سلوك سحاب الشاذّ بالطبع .

— أجل فالمجتمع صار عندها صفراً . لكنني لم أستطع ، ولا أستطيع في وقت ما ، أن اقول لغيداء ذلك ، فهي كل يوم تمشي مع شباب من الجامعة . إنها سلبية ، لا أدري كيف ،

ودائماً تسدّ بوجهي الحديث .

كان صالح يدندن وكأسه في يده . وشربنا نخب سحاب ،
ثم أعلن : « أعتقد أنني أحبها »

انقلت كلماته في رأسي كالخدروف ، فرفعت قدحي الى فمه
وصييته داخله . أخذ يضحك ، ثم سعل ولفظ الشراب ،
ونفض عن كرسيه مفرقاً في قهقهة نصفها سعال ونصفها عويل .
خبطت يدي على الطاولة وقلت :

— يا سيد صالح .. عرّف لنا الحب .

شكل صالح بسبابته وإبهامه الرّم (٥) ، وأقفل حاجبيه
برزانة ثم قال :

— الحبّ حقيقة ووجود .

وانقلت إصبعاه في حركة دورانية من يده ، وتقدّم إليّ
ضاحكاً . مدّ أصابعه تحت إبطيني فأخرج الشبابة ووضع مقدّماتها
في فمه : « يا الله أبا البشر » وأخذ يرقص الدبكة .

ونفض دريد فتأبّط يده وأخذ يدوران في الغرفة . ونهضت
بدوري فرقصت منفرداً وفم الشبابة في فمي . ولا أدري كم مضى
من الوقت قبل أن ننطرح على الكنبات ثانية ، ورؤوسنا تدور ،
نلث ، وتتأمل بعضنا بإمعان .

أخذ صالح يهزّ رجله بتؤدة وسكون ، ودريد يبرم رأسه
حول حافة الكنبه بالهدوء نفسه ، وبشيء أكثر من اللاهث .
وقفت أشخص الى الشبابة ، وإلى ملك وهلال من خلالها ، وقد

مرحت تخيلتي في أيامي القادمة التي سأعيشها بأعصابي بلا أهل
ولا اطمئنان .

ثم دريد ، ثم نفص من عينيه نظرة تحتية ، ورأسه لا يزال
ينطرح على الكنبه ، وهومت على منتهى شاربيه ابتسامه
متهافته . وامتدت يد صالح الى كأسه وأخذت تدورهما بتأنٍ
وتعاطف وانتظار ..

— ما أجل لو كنا في الجنوب .. في « اللبدة » .

وطفرت من عينيه نظرة حنان ، وأطاح رأسه للوراء ،
فلأفه مزيج البيوة والنبيذ البني اللون ، ثم انحنى بسرعة فاتحاً
رجليه وطأطأ رأسه وقد برزت شفته السفلى الى الأمام .

— لا يمكن ، يا إخوان ، أن نستسيغ الحياة بلهثا إلا
في الجنوب . يعيش صاحبنا هناك حيث يتسم الناس ، دون
أن يعرفوا ان وحدة عربية تنتظرهم ، وأن بإمكان جلودهم
المجعدة أن تتحمل خلق حضارة جديدة .

ردد دريد وعيناه عالقتان بالسقف :

— الحياة لا تطاق في كل مكان .

« ثمة لا بد من وجود مهرب » قلت لنفسي ، « وإلا فكيف
نعيش ؟ » . والتفت الى صالح :

— ولكنك لن تعيش في اللبدة ، فأنت مرتبط بالمدن قدرياً .
وأقبل إليّ تغزل مشيته وعيناه ، وأخذ يقبلي بضع دقائق :
— نحن مرتبطون ببعضنا .

ونظرت اليه مبتسماً فرأيت في عينيه دمعين حائرتين .
وحجبت نظرتي نحوه ، وشددت على يده بتقليدية ملأني للتو
نفوراً وقرقفاً . نهضت اليه بحمئة :
— لا بدّ سنخلق شيئاً جديداً .

وجلست على أرض الغرفة . ونهض دريد فجأة وأخذ يدور
في الغرفة ثم يتأمل الجدران مولياً إيانا ظهره . ثم نكس رأسه
واجماً وعاد الى مقعده :

— يجب أن يتحرّر الإنسان من الوهم ، الأوهام تقتل دقائقه .
أمي وأبي يقيّداني . سوف أتحدّث ، الى غيداء في الصباح .
لا أدري لماذا أبقى صامتاً .. نحن أحرار ، ونملك مشيئتنا ..
ونحن أيضاً متحرّرون ، ويجب أن لا نخشى شيئاً . سوف
أتحدّث لغيداء ، هذا أمر في منتهى البساطة . يجب أن يخلق كل
منا نفسه كفرد ... أستاذ .. الفرد الإرادة الواعية .. الحرّة .
كانت سبابته تنتصب في الهواء :

— أستاذ .. أسمعنا شعراً .. أستاذ .. أريد شعراً ، شعراً
يغذّي ، يشعرني أنه ما تزال في القرن العشرين روح تتكلم
وأحاسيس قويّة تعيدني للحياة .
خبطت يدي على كتفه :

— الفنّ مات ... حبيب الجماهير ، ارتطم على الارض ،
فالفن مات ... وارتط أحداث الحياة . عاشت الغريزة الجنسية !
صالح !.. أتدري .. أتدري صالح ؟ أنت لا تحبّ سحاب بل

تشتيهي ، لكنك لا تقول ذلك لثلا تشعر بخزي انحطاط
رغبائك . كلنا هذا الرجل .. كلنا نشتهيها . إذا بليتّم بالمعاصي
فاستروا .. أي مبدأ !! لقد أصبح اشتهاؤنا للمرأة جريمة . إن
صغير القطار الحادّ يعلو في الجوّ على قرع أجراس الكنائس ..
اسمع .. لقد وصل الى المحطة .

تناولت الشبابة وخرجنا . كان الشارع ينفثل أمامنا ،
والسيارات الصغيرة تتطاير فوقه ، كأنها على موعدمع الشيطان ،
فتترك في أعيننا ذبلاً متفسّخاً من النعمة .

وضعت مقدمة الشبابة في فمي ونفخت . وبينما تراقص صالح
أخذ دريد ينشد .

انعطفنا كثيراً ، ومررنا بأرقة متعدّدة ينتهي بعضها بالآخر .
وأعلن دريد :

- إذا صادفت فتاة في الشارع فسأقبلها .
وواصلنا الخطى . « لا بدّ من نومة في النظارة .. أنا أشتهي
أن أنام في النظارة من سنين » قرّر صالح .
كنت لا أزال أنفخ في الشبابة .

- است .. است .. هي ..

أخذ صالح يلوح بيده وينادي سيدة تقف في الشرفة .
جلست على الأرض باتجاهها ونفخت أغنية شعبية . ولكنها
دخلت بهدوء وأطفأت النور . وبقيت في مجلسي وقد غامت في
ذهني الأبعاد .

في زقاق ثانٍ كان شبّاك أرضيّ مفتوح يشي بضوء ينبعث من
غرفة داخلية دون أن ينفذ إلى الخارج .

طأطأت رأسي فرأيت صبية تجلس بلباس النوم على كنبه
وثيرة ، متهذلة الشعر واليدين . أشرت لها بيدي ثم لوّحت
أصابعي . وابتسمت مشيراً إلى صالح أن يأتي إلي .

تناولت الصبية عن الأرض حذاء ولوّحت به . فجلست على
الرصيف ، وتابعت هي التلوّيح ، وبعد ثوان اصطدم الحذاء
بجديد النافذة ، وارتدّ على أرض الغرفة المظلمة .

أخذت أهزّرجلي هزات قصيرة ويدي لا تزال تلوّح في
الهواء حتى أغلقت الصبية الباب الذي نراها منه .

سحبت شبّاتي وبدأت أنفخ . وأقبل دريد وصالح فجلسا
يجانبني يحركان أصابعهما مع النغم فوق ركبهما .

بعد قليل شعرت بالتعب ، فطوّقت ساقَيَّ بيديّ ورميت
لصالح نظرة منطفئة . ضحكنا .

فتح الباب الداخلي بتسرّع وأطل منه رأس مرفوع
الحاجبين تساؤلياً ناعماً . لوّحت لها بيدي فأسرعت تغلق
الباب . نهضت إلى باب الشقّة . كانت الضوء منطفئاً . عدت
فنظرت من الشباك ثم قلت لصالح :
- أطفأت الضوء .

وتقدمت للباب ثانية ونزلت الدرجات القليلة التي تنتهي به ،
فجلست على آخرها ، وبدأت أنفخ بالشبابة .

بعد دقائق لحقت بدريد وصالح ، وكانا يستندان الى حائط
خويل ويدخان بانتظار . قرّر صالح :
— نريد امرأة ، نهدة الكفل ، والصدر ضعيفة الحصر
والإرادة .

ثم بصق وتابع :
— ما أحقر أن تنتهي مشاكلي بامرأة !
وسأل دريد :

— من أين نجد امرأة ؟ . الساعة الآن .. الثانية عشرة .
ونظر اليّ نظرة خاصة فضحكت .
كنت أعرف « أبا الخير » معرفة وثيقة . وهكذا غمزني
صالح أن أذهب اليه ، فمشينا معاً ، وسار دريد وراءنا بخطوات .
ودخلنا الزقاق نستحثّ خطى متعبة واجفة ، ونُخَفِّينَا عَنْ
دمشق بيوت كامدة من الطين لا لون لها .
ثمّة كانت امرأة في آخر المنحنى تقف بسماء منتظرة ،
هربت عندما رأتنا ، فابتسمنا وتقّينا اتجاهها .
عند الزاوية نهذه صالح ، فالتفتّ اليه . كانت ابتسامة
مذنبة تزبد على وجهه :

— أنت تحب حقاً ان تذهب للنظارة ؟ . دعنا من هذه
المحاولة .
— انتظرنني عند رأس الزقاق ، وسأعود اليك . انتظر
مع دريد .

فوقف متردداً وتقدمت .

— دعنا بشر .. دعنا منها هذه الليلة .

فابتسمت وتابعت المسير . وكانت دار أبي الخير مفتوحة
فدخلتها . رواق مظلم لا حياة فيه ، ينتهي بسلم خشبي ،
وقفت عنده وصحت : « أبا الخير » . وردّ عليّ صوت متناوم
فقلت له : « تعال » .

ونزل أبو الخير بشيابه الداخلية ، فوقف يجاني ، وكانت
تجمد وجهه ابتسامة صفيقة مازحة :
— تأخّرت جاراننا .. الدنيا منتصف الليل الآن ..
تعال غدا .

— لا .. نريد الآن .

— والله ما عندي ..

— الله يلعنك .. تصبح على خير .

وشيّعني أبو الخير ببضع جل علكها ويعلكها دائماً ثم صعد .
وقفت عند الباب ورحت أتأمل البيوت الخالية من الضوء
والمنتنة بأبشع صورة . وتنبّهت الى حركة خفيفة فالتفت
شمالاً . كان ضوء أزرق ينبعث متمزقاً من غرفة فتح نصف
شباكها وأطل منه وجه امرأة زاهياً نضيراً . تبينت فيها المرأة
التي هربت منا عند المنعطف ..

— ماذا تريد ؟ .

فمسحت أسناني بلساني برهة ، ثم نهزت رأسي وقلت :

- غرفة للإيجار .
- أجابت بلذعة هادئة :
- الآن ؟ . الغرف يبحث عنها في الصباح ، ليس الآن .
- سألها وقد بدأ قلبي يضرب بعنف خاتق :
- عندك غرفة ؟
- هذا تسأل عنه في الصباح .
- قلت ببرود : — لو جئت صباحاً فماذا تقولين ؟ .
- أجابت بنبرة خاصة :
- عندما تأتي صباحاً تعرف .
- وتقدّمت خطوتين يجهد بالغ . كان نبض قلبي يتعارم بشدة :
- وإذا جئت الآن ؟
- تعال بعد قليل .
- وأغلقت الشباك ، ثم نقر أذني صوت مشيتها المؤنثة تبتعد الى الداخل .
- ووقفت حائراً . نظرت الى الباب بتردد ، وهرشت رأسي .
- وأعجبني الوقوف بعد أن أعياني إيجاد تصرّف آخر .
- ماذا تريد في هذه الساعة ؟ .
- كان الصوت لسيدة عجوز ، وقد سقط عليّ من أعلى .
- ورفعت رأسي فرأيت شبحها ملثماً بالبياض يتقرّع فوق أشبه بالغول .
- ماذا تريد في هذه الساعة ؟ .

فرفعت رأسي ثانية وتأملتُها ، وخيل إليّ أنّي لم أعد أريد شيئاً ، فسوّيت وضع رأسي ، وسرت متخاذل القدمين . التقيت بدريد وصالح ينتظراني عند مدخل الزقاق . الاضطراب أخذ يشتت حتى تفكيري ، وحرارة دافعة في صدري بدأت ترمح وتنفور بعنوّ جامع . شعرت بطبيعتي الداخلية متجبرة ملتزمة ، وبأعماقي تطنّ ويضطخب فيها عنفوان بدائي مريض . وتقبّضت يدي بلا إرادة ونظرت لهما بنجل :

– اسمعا الآن .. سأقصّ لكما ما حدث ، فقولاً لي ماذا ينبغي أن أفعل . أعتقد أنّي لا أستطيع التفكير بالمرّة ...
فصّلت لهما ما حدث :

– هذه التي كلّمتني محترفة وسأعود إليها . قولاً لي فقط الطريقة الأنجح .

وسحب دريد منديله بصمت ، ففتحه وجلس فوقه على الأرض . وأخذ يتأملني ببلاهة ، بينما أعلن صالح :

– فكّنا .. الدنيا ليل .. من يدري ماذا يصير معك ؟

ألفيت نفسي متحمساً أكثر :

– هذه محترفة ؟

فاستدار نحو الحائط المخروش ينقر عليه بإصبعه . ووقفت بجانبه أنتظر جواباً ، وفي أنفي رائحة غريبة تكتم النفس .. كان تحسّس أرعن ينغل في صدري بجميّة وعنفوان ، ورأيت ساقني تتحرّكان فتسيران في شبه دائرة مفلطحة .

مضت بضع دقائق . الرائحة الغاية لا زالت تعبق في أنفي ،
والتحسس الاضطرابي الأرعن ما زال يدوم في صدري .
- أعتقد أنني خرجت عن طيعي .. أنا أعلم أنني سأندم على
ذلك غداً ولكي سأذهب .

وتحركت نحو الزقاق بحزم وهدوء . وأخذت حبيبات رمل
منناثرة تحت حذائي تصدر صوتاً يحرح صمت الليل . مشيت على
كعبي ثابتاً بطيئاً ، وانعطفت عند الزاوية ، كأن الضوء الأزرق
ينبعث مترفاً . بدأت أضطرب فتركت راحة قدمي تستقرّ على
الأرض ، ثم سرت فوصلت الشباك .
- ماذا تريد في هذا الليل ؟ .

هزرت رأسي بقت وأخرجت زفيراً متضيقاً .
- ماذا تريد .. جئت متسرفاً تبصبص من الشباك ؟
رفعت رأسي نحوها بفتور وقلت :
- يا أختي ، أنتِ ما دخلك ؟ دعي الناس وشأنهم !
- لا يجوز أن تأتي قتبصّ من الشباك بهذه الطريقة ،
العالم نيام .

التفتّ نحو الشباك بغير اكتراث ، وتأملت الوجه الزاني
النضير ، ثم عدت أدراجي في هدوء .

عندما وصلت بداية الزقاق كان ما ورائي يعجّ بالأصوات .
هرعت أنعطف باتجاه آخر ، وبعد قليل أقبل دريد وصالح ،
بتأنٍ فلحقا بي . وجلسنا على درج رخامي كنا نقف بجانبه .

وفي هدوء نسم دريد ثم نقر ألقه :

— أعتقد أنني أتمنى لو فعلت مثلك . أجل لقد كان بإمكانني أن
أذهب معك وبكل بساطة ... أنت لم تربح شيئاً ، لكنني أنا ،
خسرت . كم أودّ أن أثبت لنفسني دائماً أن المجتمع صفر .

اعترض صالح : — لا ربح ولا خسارة ، فكنا من الموضوع ،
انتهى .

رفعت رأسي فرأيت صليباً حجرياً يلتصق فوقى على الجدار :
هذه كنيسة يا جماعة !.

وتأملناها معاً ، وضحكنا بخفوت ، شعرت أنني منطفئ ،
وأن برأسي زئبقاً . كنت جدّ بعيد عن البيت .



المطر يغسل الفضاء ، وحباته تسقط على الأرض فتتناثر أشبه
 بخيالات تولد دائماً وتندثر . والحبات والخيالات ما تني تتميع
 في كآبة ذهنية وخيمة تتأثل وحالة المثل العليا : إن إلحاحاً
 مسرفاً لا يلبث أن يعود بها ، إلحاح الحياة وإلحاح الفراغ ، لعله
 قلق البحث عن مصير .
 — هذه فتاة عاهرة .

كان شاب يتطاول بأنفه تحت المطر ، ويركض فيرقى
 درجات السلم ، ثم يمر متجهاً الى النادي .
 بصقت .

سرت حول رصيف الحديقة ، والمطر مازال يغسل الفضاء .

أدركت أنني سأبتلّل بكل يسر، فالمطر يتخلّل مسام الجوّ بأكملها .
نكست رأسي وعدوت نحو كليّة الحقوق بأقصى سرعتي .
عندما انتهيت الى المدخل اصطدمت كتفي بقامة طويلة مشوقة
برزت أمام وجهي فجأة .

زدت أسفاً عندما علمت أنّ القامة لطالبة ، واضطربت
عندما تبينت أمامي وجهاً خريفاً شاحباً . ابتسمت لاني أمسكت
يدها في اعتذار يسير .

— آنسة سحاب ؟.. لا أدري كيف أعذر لك .

— المطر نعمة الربّ، فلماذا تهرب منها ؟

وسارت تحبّ بسكون سادر أشبه بحطب أخرس يشعل لهباً .
هذه امرأة كاملة تسير بردائها البني المخطط رويداً ورقّة ، تعبر
حديقة خالية من الناس والمطر ما يزال يغسل الفضاء . أين تذهب
الآن ، والمحاضرة توشك أن تبدأ ؟ . إنها الثورة نفسها التي دفعتها
لطرّح ولیدتها على رصيف حديقة ما في قلب دمشق المهترئ .
انتبهت ثانية الى المطر ينفذ من ثيابي فيسيل على جسدي ،
وتأملت السماء بابتسامة واسعة . كانت الغيوم تحجبها بأكملها
وترسل الى الأرض مطراً غزيراً ، قوياً ، صافياً يغسل الفضاء .
بعد أن جلست في مقعد بالقاعة ، أقبلت تنتصب ملء العين ،
ثم دخلت فجلست قرب صوحيباتها . الرداء البني ما زال يلفلفها ،
وحبّات المطر تقف لحظة عليه ثم تنحدر ، وترسم أخيراً مجرى
متعطفاً صغيراً . إنها نفسها ذات الوجه الشاحب والعينين

الراقصتين ، سوى أنها تجلس أمامي الآن ، فتشير بي حساً كحولياً مرمضاً .

لم أفهم من المحاضرة شيئاً ، ولم أهتم لأن أفهم ، ذلك أنني استهلك الوقت نظرات إليها وغمزاً من صالح .

عندما انتهى الوقت واتجهنا خارج القاعة ، لحقت بها وقلت :

— هذا المانطو الحلو يا آنسة لم يدعني أفهم شيئاً .

وتلففت وراءها كمن فوجئت ، ثم أسدلت جفنيها ، وقالت بخشونة مقصودة :

— لماذا جلست ورائي ؟ .

تذكرت أنها هي التي جلست أمامي ، ومع ذلك أسقط في يدي ورددت :

— لا لشيء .. جئت فجلست .. لقد جئت الى مقعدي قبل أن تأتي أنت الى مقعدك .

أيقنت أنني استحضرت رداً مفحماً ، فانتصبت أكثر ، وسرت دون ان أتكلم معها .

— بدأت شلة غرائق عملاً .. الفكر يقدر .

حيث صالح مبتسماً :

— أريد أن أتعرف بها فقط ، اؤكد لك أن سلوكها عند الحديقة ، وفي القاعة ، حيرني . لقد زادني رغبة في التعرف إليها ، رغم أن هذا التعارف لا خير فيه : أتدري صالح .. إن فيها

شيئاً خاصاً وغريباً ، هذه البنت .. ما الذي جذبك اليها ؟

وفيا سرنا في الرواق ردّ صالح :

– فيها شيء غامض أحرار في تفسيره ، لكنه جذاب وهي أكثر من هذا شهية حتى لتتهك أستار القلب .

لكزت صالح :

– انظر سميحة ، إنها تعبر الرواق البخيل الضياء .

ومشيت طيلة الرواق أرتعش بنبض قلبي ، وأغالب تدفق العاطفة والعاصفة في شعوري .

وضحك مني . فابتسمت وقلت :

– كيف لا تلتقي بهن قبل أن يخطبن (أنا مخطوبة وإن كنت

لا تعلم ذلك) .

غيّمت ضحكة صالح وأجاب بسخرية مبطنّة :

– كيف لا تلتقي بهن قبل الزواج والطلاق ! .

بلغنا نهاية الرواق واستدرنا ، وعند مدخل الكلية كانت

سحاب تتقدّم باتجاهنا . سأله :

– هل يصنع الطلاق مشكلة ؟ .

فهزّ رأسه بقنوط :

– كل المشكلة . لكنني لا أظن أن القضية بلغت هذا

المستوى .. أعتقد أنني أستهيا ، كما قلت لي أمس .

سمعت ورائي خطوات فلم التفت حتى حاذتنا . وتطلّعت

نحوها بغير مبالاة ثم هممت بالتصفيّر . وفجأة ركزت عينها

الضاحكتين بعيني ، فأرسلت للتوّ فيها مساً كحولياً جديداً .
التفتُ إلى صالح بنظرة مذنّبة ، فوجدته يتأمل من شباك
الرواق الحديقة الداخلية . أطرقت .

في القاعة جلسنا على مقعد واحد فننتظر الأستاذ . وبعد
قليل أقبلت سحاب فجلست يجاني :

- « الحساء القاسية » لكيتس ، كيف يعطينا شعراً
لنترجمه ؟! هل ترجمته ؟ .

كنت متحرّجاً من صالح فتحرّجت منها . وفي عقدة اضطرابي
سحبت دفقري وقلت :

- أجل ترجمته شعراً .

فنظرت اليّ بدهشة وتراقصت في خيلتي عيناها
للبنفسجيتان . قالت :

- تعني ترجمته بالعربية شعراً ؟ ! .

كان صالح يتأملنا ويبتسم . وفجأة نادتها زميلتها في المقعد
الأمامي فنهضت . وعلّقت : « سنقول لك : مع الأسف ،
فتألق وجهها ابتساماً وسألت لماذا ؟ أمعنت فيها نظرتي برهة ،
وأمعنت ثم قلت :

- لقد جلستِ يجاني وعليك أن تتّمي جلستك .

كانت ابتسامة صامتة تتلاعب حول شفّتها الطريّتين عندما
أمسكت بكتبتها وانتقلت دون أن تتكلم . واذ ذاك ملأني حرج
كبير ، فتشاغلت بتقديم ترجمتي للأستاذ . وفوجئت أنه أعجب

بها وطلب أن أكتب أولى مقاطعها على السبورة ، فأحسست
ببعض التسرية .

عندما خرجنا من القاعة ، انضمّ الينا دريد ، ثم تقابلنا
مع سحاب ورفيقتيهما ، سألتني بعض الأسئلة عن القصيدة .
وعلّقت :

- جوّ هذه « البلاد » غريب .

فعقّب صالح :

- لكنه عاطفي .. حتى لقد شعرت أني الفارس المعذب فيها .

ضحكت الفتيات بصفاء ، وسأل دريد :

- ألم تشعرن بالغضب من السيّدة التي عذّبتّه ؟ .

قالت سحاب بسرعة :

- وكذلك برّاء متضايق بالنسبة للفارس الذي أخلص لها

بلا سبب ، وأحبها فوق ما تستطيع أن تتقبّله من حبّ .

خيل لي أن لكلام سحاب معنى ، ولما هممت بالتعليق رأيت
أنا بلغنا باب الحديقة ، فتودّعنا .

كانت نسيات دمثة تنطلق في الفضاء ويد خريفية الحبور

تعبث بقلبي رقّة وهونا . أحسست أني أريد أن أطيّر .

وأن في الكون أشياء عميقة ينبغي الوصول اليها بالجاح .

انفصلت عن الجامعة وعدت الى البيت . وأخذ العبث

الحروري العذب يتلاشى مني ، وبعد قليل شعرت بتثاقل

بوهن ساقى .

سحاب مطلقة ، تلك هي المشكلة .
وصلت الى البيت فتأملتني ملك مقطبة الجبين :
- أنت غاضب ، ماذا جرى ؟ . ماذا جرى ؟
ضحكت :

- لا شيء .. حياة فقيرة يا ست الملوك .
استلقيت على السرير ، وتأملت المئذنة الرمادية العتيقة تنطلق
دقات في الفضاء الخارجي الفارغ مكفهرة الى الأبد . كانت
الساعة ترتدي فوق صدري ثقلاً كبيراً حائراً .
امرأة ما ، « نهدة الكفل والصدر ، ضعيفة الخصر والإرادة »
ساحرة الملقى والمبسم ، تبحث أصول الفراغ والعدمية من
دقائق الأيام .



التقيت بدريد يتمشى على رصيف الحديقة فسألت عليه :

— هم .. ماذا حدث لعيداء ؟

وهز يديه بعصبية ثم ابتسم ابتسامة مهزومة ساخرة .
وتابعت تأملي له ، فضحك :

— مزيداً من التفاهم والتجاوب . إن شيئاً ما ينقصنا ،
أحسّه كلما جلست بجانبها . هل تذكر ما قلته لك في سكرتنا
الأخيرة ؟ . لقد تناسيت كل العوائق التي أحسّها ولا ألمسها
عندما ألتقي بها ، وضعت أمامها غابة كثيفة من التحدّي .
وجئت الى الجامعة فالتقيت بها في الندوة . جلسنا معاً .
« كيفك غيداء ؟ » . « مبسوطة » أسقيتها قهوة ، وأردت أن

أُحِبُّ اليها كمقدّمة للحديث فقلت :

— « احسبي لي بالفنجان » . ماذا لو حسبت لي بالقهوة ؟ .
رفضت . لم أدر ماذا افعل . قضيت معها أكثر من ساعة ولم
تحدث بغير الدرس والمحاضرات . إنها تحيرني : مثقفة ، راقية ،
متواضعة ، جميلة ، في منتهى الوداعة ، فكيف يمكنها أن تظهر
سلبية بهذا الشكل !! .. إنها تفهم أنني .. أنني أريدها ، فلماذا
لا تظهر لي أنها تفهم ؟

صمت دريد لحظة ثم أكمل :

— دعوتها للعب بكرة الطاولة .. فقالت إن هذا معيب ،
ولما سألتها عن وجه العيب فيه ، قالت إن فستانها قد يرتفع ،
أو أنها ستتهرّ وهي تلعب ، وباختصار أنه لا يليق . وأعترف لك
أنني رأيت مرة إحدى الطالبات تلعب فأثارتن ، لذلك لم أتضايق
لتبريرات غيداء ، لكنني رأيت فيها تناقضاً ، فقد كنت ألمح
لديها رغبة دفينّة بأن تلعب . وأعترف لك ثانية أنها لو لعبت
معي لما أحسنت تفسير لعبها . إنها معقّدة .

صمت دريد وسار مطرق الرأس . والتفت لأتفادى إحراجها
فرأيت سحاب تقبل نحونا ، تهتّ بخطواتها السريعة كوتر مستثار ،
وتدفق من شففتها الطريتين — لست أدري كيف رأيتها —
تلك البسمة الألافة ، يبريق فذّ من عينيها الرائعتين . كانت
الابتسامة لي فقلت : مرحباً .

لم يعلّق دريد بشيء ، واستمرّ يحدثني عن غيداء ، حتى

وصلنا الى القاعة فوقفنا الى أقرب شبّاك بانتظار بدء المحاضرة .

أقبل الآذن يعلن اعتذار الاستاذ عن المجيء . وتعالّت من المقاعد مهمة مبتهجة خرج بعدها الطلاب الى الرواق ، وسرنا معهم . بعد ثوانٍ أدركتنا شلةٌ سحاب ، ووجدت نفسي أدعوهم للمقصف بهدوء وإصرار ، وقبلن الدعوة : سندخل غرفة الطالبات قليلا ونأتيكم .

سبقناهن الى المقصف وجلسنا . قال دريد فجأة :

— سحاب تنظر اليك يا بشر .. صحيح أنها كانت منزوية عندما كنت تحدّثهن ، لكنّها لم ترفع نظراتها عنك .

أهيجني كلام دريد فسألت « حقاً » ؟ وشعرت أنّ كلماته أمّ وأكثر جذية فقلت :

— إنني أرئي لها ، ولعلّها تلمس ذلك من حديثي ونظراتي ، وتحسّه بطريقة شعورية ، هذا ما في الأمر ، أنت تعلم أنّي أحب الفتيات الشقراوات وهي سمراء . وإذا كان ثمة أكثر قلت لك إنها ما لم تحتكّ بي جسماً لجسم كما حدث أمس ، فلن يكون بيننا أية إشارة من أي نوع . كنا نجلس خمسة في المقعد ، وكان لا بد أن تلتصق بي ، ومضى الدرس كله نغبشات ترعش ردي الأيسر ، وغالباً ما كان ساعدي يلتصق بخصرها الضامر ويستلقي على كفها الرعوب . ولعلك تستنتج شيئاً إذا قلت لك إنها كانت تحدّثني بطلاقة عجيبة ، وتسالني عما لم تفهمه من الأستاذ ، بينما بدوت مخدّراً ، مخدّراً كأنني لم أضمّ بعد امرأة

في حياتي . لقد أطلت التفصيل لأثبت لك أنني لا أفكر بها ،
وأني إن كنت أحب أن أتعرف بها فللوقوف على سر الروعة
العجيب في تصرفاتها كزوجة وأم ، لا أكثر . أنا أعلم أن صالحا
يحبها بطريقة ما ، وأعلم أكثر أن أية صلة بيني وبينها ، ما لم يكن
رائدها الزواج الفوري ستؤدي الى أن ينهشها ثمانية آلاف لسان
من الطلاب المداومين في الجامعة .

نهضت فابتعت الجزازات ، وبعد قليل استقبلنا الفتيات
وسألناهن عن الشراب الذي يحببنه ، فاقترحن أن نحضر كل
واحدة شرايها بنفسها .

أحضرت فنجان قهوة لي ولدريد ، وعدت الى الطاولة .
وبعد لحظات أقبلن فجلسن حولها .

وتسلم دريد الحديث ، فأغرق الفتيات في حلم فيضي من مثله
ومخططاته حتى سكتن كلهن وتابعن حديثه وموسيقاه . أخذت
أنظر الى سحاب بين حين وحين . وإذا أحست بكثرة نظراتي
بدأت تحوّل عينيها الفسيحتين عن دريد ، ثم تنظر لي بسكون
عميق ، وقد انفتح هذان الدنان من الأزجال والفتن على سؤال
مغلّف بالنور . ثم أخذنا نبتسم بهدوء وتأمل واستغراق .

لم أدر كم من الزمن مرّ ، ولم أشعر به . انتهت اليهنّ ينهضن
فنهضت ، واتجهنا للقاعة الثالثة . وهناك جلست الفتيات
في مقعد ، جلسنا وراءه . وبعد دقائق شعرت بالملل من الدرس
فتراخيت في جلستي . ومددت ساقيّ تحت المقعد ، فاصطدمتا

بقدمي سحاب . طأطأت رأسي للأسفل فرأيت ساقها متصلبتين عائدتين الى الوراء . وأرسلت قدمي الى الأمام مرتعش الصدر ، وبالتدريج جعلت أقترب بهما من قدميها حتى التصقت الأقدام دون أن تشعر بها ، ثم أخذت أضغط عليهما . مضى بعض من الوقت ، وما لبثت الفاتنة أن سحبت قدميها دون أن تلتفت . وشجّعني صمتها على الاستمرار ، فترثت حتى أعادت ساقها للوراء ، فأعدت العملية ، وشدت قدميها بحيث لم تستطع الإفلات بهما .

انقضى الدرس ، والعبث لم ينقطع . وانسحب الطلاب من مقعدي ، فبقيت فيه حتى التفتت فتأكدت من هوية المتطفل على قدميها الصغيرتين . لم تعبس ولم تتكلم ، فشجّعني هذا التصرف الصامت على السرور من فعلتي . وازدادت يقيناً من جهة أخرى ، بأن لهذه الفتاة وضعاً غير طبيعي تعانیه بمرارة .

تطلّعت الى وجهها الخريفيّ الفاتن ، يهزّز بالفتنة والحلم والبساطة ، ولم أؤكد أملك نفسي من الدهشة حين رأيت تراقص عينيها وسكون وجهها . ودهشت ثانية ، وبصورة أعمق ، حين رأيتها تبسم فتأكدت من أن انطباعة خديها قد خدعتني ، اذ التمعت عليهما من العذوبة نشوة مفرطة غريبة الجور .

في اليوم التالي تغيّر شيء ما معها . لقد بدت لي لأول مرة غير عادية : تلفّتها ، غنجها ، شعرها ! بالأمس فقط كانت هادئة ، واليوم أحسست بها نائرة عارمة .. الثورة نفسها التي

دفعتها لطرح وليدتها على الرصيف . وضحكت لي ، ضحكة تبطن غير ما تظهر ، تحمل دعوة وتقدّم جسداً ، دعوة مغرية ، وجسداً في أوج تفتّحه : لقد كانت تسير مع زميلتها ، وفجأة ركزت بي عينها الضاحكتين ، فأرعشت نبض قلبي ، وما لبثت أن أبتمت لها .

فكرت : هل يمكن أن تصلح لي زوجة فتاة مثلاً ؟ . واستعمرني نشاط محوم . تذكرت مؤخرة السيارة ، والرصيف وعينها المتلاعبتين . « هذه فتاة عاهرة » كان أحد الطلاب يطلق حكمه بكل بساطة . تأملته بازدياد : كيف يتصور الشرف بعض الناس ! . وفوجئت به يقف فيحدّق بي مستخفاً ، ثم يتقدّم نحوي فيعلن :

— أعتقد أنني أسأت لشعورك ... اسمح لي .
تأملته ثم أجبت ممتعضاً ببطء عاقل : — لا أعتقد أنك تعرف كيف يساء للشعور .

فتأملني مقطباً وقاعدة وجهه لا تزال هازئة :
— أعترف لك أنني لا أدري أأنت تمدحني أم تزدمني .
وتقدّمت منه مغيظاً فلكته على وجهه ، ثم صفعته على الخد الثاني . وانتظرت منه أن يتقدم ، لكنه تحامل الى جدار الكلية ، فاستند وقال :

— لماذا ضربتني ؟ .. لو كنت في صحّتي لما سكّ لك .
عقدت ما بين حاجبي ، ووجّهت له نظرة استفهام حائرة .

وأدركت أنني سأشعر بحرج شديد ، فلم أشأ أن أصدقه . ونبرت
ببضع كلمات :

— « إذا لم يكن بوسعك الضرب ، فليكن بوسعك أن
تحترم غيرك . »
ثم تركته وسرت .

لماذا تصرف هكذا ؟ وقضيت النهار كله متضايقاً سريع
الغضب .

عندما رجعت الى البيت في المساء ، كان هلال يحزم أغراضه
وملك تبكي . أدركت أن قد حان الرحيل .

— من سيلعب معك الورق بعد اليوم يا أستاذ ؟
كان يبتسم ابتسامة حزينة ، تتخفى على شعور بالذنب
لا مبرر له :

— إذا احتجت نقوداً فاصرف من راتبي بالإقليم الشمالي ،
فسيصرف لنا راتب آخر في القاهرة .. وأرسل لنا رسائل .
خذ البابور فقد تودّ أن تسلق عليه عصصاً .

أحسست بعيني تمتلئان برطوبة ساخنة ، وأمسكت بالكريمي .
كانت ملك جالسة ، وما زالت تبكي .

منذ نصف عام سكنت مع هلال ، وخلال هذه المدة فقط
من عمري تذوّقت طعم العائلية ، وشعرت بالشبع من طبخ
البيت ، وراحة جوّه ، ولذة حياته . أما الآن فسأعود الى ما
كنت عليه طيلة سنوات مضت في الثانوية والجامعة : غرفة

أستأجرها ، ووحدة طويلة طويلة تعتصر أعصابي وتنبح
في شراييني .

تأملت هلال سامماً ، ثم نهضت أساعده في حزم أمتعته
داخل الحقائق ، وخيم على الغرفة سكون جارج ، يفتح على
صمته ، شفقي الذكريات . وانتقلت ملك الى المطبخ ، وبعد
هنيهة عرفت أنها تتحدث مع ثريا .

— هذه الصورة لنا.. أتأخذها أنت أم نحن ؟

انتصب هلال في وسط الغرفة يحمل بيده صورة لنا
في (المعرض) .

هزرت يدي ، فقد كان الخيار صعباً ، وبعد قليل من الحيرة
قرّر هو بنفسه : « اتركها معنا » .

وعدنا نحزم الحقائق . وبعدما يقرب من ساعة جلسنا على
الكنيات وأخذنا نتحدث . ولما كان على هلال أن يستيقظ
مبكراً فقد ذهب كل الى فراشه بكثير من الحزن .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ركبنا الى المطار .
وفي الثامنة أقلعت الطائرة تشقّ عباب الفضاء .



الفصل الثالث

غرفتي الجديدة جميلة ، منزوية ، في الطابق الثالث من عمارة ضخمة يمرّ أمامها باص « المهاجرين » . ومنذ اليوم الأول لسكنائي فيها لم أستطع أن أمكث بين جدرانها سوى بعض الساعة ، إلا عندما يزورني دريد وصالح ، فنحتسي معاً بعض البيرة وتحدّث عن حياتنا .

لم أتعرف بأهل ثرياً . بل لقد أظهرت لهم تخاشياً مقصوداً فامتنعوا عن دخول الغرفة .

وهكذا درجت بي الأيام : في الغرفة سكون ليس بالسكون وعزلة منفرة مقبضة ، وفي الجامعة موجة عنفوان تصطبغ بي وتنقل ، وفي مقدمتها سحب . لقد ازدادت صليتي بها حتى

بتّ أعتقد أنها إنما كانت تأتي الجامعة للتلقي بي وأنا الآخر
أفعل ذلك للسبب نفسه .

وقد التقت بي يوماً أسير مع حسناء عند صندوق الرسائل ،
وكانت مع زميلاتها ، فسألت علينا ، وفطرت إليّ بقلق متسائل
ثم أخذت تستفسر عن أحوال حسناء وصحتها ، فيما قلت
للزميلات :

— إني لأرى كلّ الرسائل إلاّ الخاصّة بي .

والتفتت فقالت :

— إذن فأنا أبحث لك عن رسائلك وأنت تبحث لي
عن رسائلني .

— هذه طريقة مريحة ، ففيها يصبح التحدّث معك مشروعاً .

ضحكت وهتفت :

— صحيح .

فررت حروفها في أذني بطريقة خاصة قلقة . ثم تودّعنا .

وفي اليوم التالي سألتني عن معرفتي بحسناء ، وكانت تخفي
وراء سؤالها الجرمي القلق نفسه . وأجبتها بحيث لا أنير
شكوكها في أنني أعرف عنها شيئاً ، أي شيء .

واعدت أن أبحث عنها فأدعوها الى النادي ، وتذهب مع
زميلتها نوال ، فنجلس طويلاً ، نتحدّث ونضحك وكأن الدنيا
قد خلت إلّا منا . لم تكن تتكلّم ، ولم تكن تعترض ، ولم تكن
تنظر لشيء غير وجهي .

وفي أوائل كانون الأول بدأت مع دريد وصالح نشاطنا للدخول في مجموع انتخابات اتحاد الطلاب . وقد غرقت فيه حتى رقبتي ، حتى أنني عندما رأيت سحاب تقبل بقامتها الهيفاء الرائعة أشرت لها بأصبعي أن تأتي ، ثم تسيت أنني أشرت لها . - نعم . . ماذا يريد الكبير الذي يشير للناس بأصبعه فقط ؟ .

فقلت على عجل : - انتسي لإحدى اللجان الست . . التي تعجبك ، ثم اجلسي في الصف واحفظي لي مكاناً بجانبك . فاعترضت : - بدلاً من أن تحتفظ لي أنت ؟ وابتسمتا معاً .

عندما كتبت اسمها على ورقة الانتساب تأكدت من رقم عمرها ، ورأيت بالتالي أنها تكبرني عاماً كاملاً . وبعد أن انسحبتُ الى الصف ، جئت اليها فوجدتها تجلس بمفردها في مقعد منزو . كان عليّ أن أحصل على أكبر كمية من أوراق الانتساب ، فانتقلت الى المقاعد الأخيرة حيث جلست زميلاتها . ووجدت أنني بسبب هذه الأوراق مضطّر أن أجلس بجانبهن . وتقدّمت منها فطلبت أن تأتي فتجلس معنا . لكنها اعتذرت بابتسامة خفيفة وبضعة حروف . شرحت لها الموقف وكررت الطلب ، فاعتذرت ثانية .

- هل غضبت يا سحاب ؟ . لو أنني أستطيع الجيء لما توانيت . . إنه ، من المحرج أن أترك المقعد ، وأني متحرّج

منك ايضاً .

ابتسمت دون أن تنظر إليّ ، ولحمت على وجهها غلالة أسمى
مكتوم ، وانكساراً آلمني . وشعرت أنا الآخر بتفاهتي فقلت :
— سحاب لا تفضي رجاءً . ، تأكّدي أنني لا أحاول أن
أعبر لك عن شيء يجلسي هناك .

وأذكر تماماً ، ولعلّ الى الأبد ، تلك اللحظة المنفعلة التي ملأني
سعادة دافعة وشعوراً قوياً بالسيطرة الحانية أمام استسلامها
الداقيء القوي .

في اليوم التالي لقيتها تتجه نحو غرفة الإعارة بالمكتبة
ففسأل عن كتاب « لسورست موم » . قلت لها إنه غير
موجود . فالتفتت صوبي وابتسمت ، واقتربت منها . « شعري
منفوش ؟ » سألت وعبثت به قليلاً ، فملأ رثتي فيض نفخها
ومدّد لساني بجيوية مفاجئة :

— يا من لها شعر كحظيّ أسود . شعرك أجمل شعر في العالم .
نور أسود يضيء الغيابات ، وكنز يغني عن ميرانية
الولايات المتحدة .

أنذرتني : — إنهم يسمعونك .. تكلم بحفوت .

اقتربت منها أيضاً فطار من أنفي مسّ كحولي وقلت :

— الحفوت أكثر شاعرية . غير أن من يقع تحت تأثير البريق

المكتوم في عينيك لقي سيتكلم ولو كان ذلك يحمله حبل
المشنقة .. قولي لي : أين هربت أمس ؟ .

— لم أتحرك من المكتبة .

قلت مرفوع الأصابع :

— هذا آخر مكان يخطر على بالي .. من أين لك هذا الاجتهاد ؟ .
فاستنكرت :

— أنت تدرس أكثر مني . !

فرفعت حاجبي الأيسر وعللت :

— ذلك لأنني أقل ذكاء منك .

وأجابت بفتح :

— « أنا اذكى منك ؟ »

فاسترسلت :

— إن من يشاهد بريق عينيك يتيقن أن فيها سر الله

والعبقرية .. فكيف بي أنا الفقير لله تعالى وهذا البريق ؟

هزت رأسها : — لقد ألهيتني . لو استمعت اليك ساعة لما
تركت الكلام . .

وهمت تسير ، فصحت : « محاب » . ووقفت تنصت الى

ما أقول ، فهمت لها :

— هذا قلبي .. وليس لساني .

فتابعت وقفها تتأملني باستفهام متمكن عميق ، ثم لاحظت

على شفيتها الكرزيتين رؤى ابتسامة حلوة متعبة .

كنت في السرير أقرأ رسالة من هلال ، وأرشف بعض الشاي حين سمعت على الباب نقرأ خفياً .
أصخت للطارق الليلي ، يضرب بابي بهذه النعومة . ويعيد النقر ، فنهضت وفتحت الباب .
كانت ثريا تقف بقامتها الفتية الرائعة في تلفت مدعور .
ودخلت الغرفة دون أن تنتظر تحيّي وأشارت أن أقفل الباب .
تأملتها بذهول ، فتأملتني بابتسام .
— ثريا . . ماذا تفعلين هنا ؟
فأجابت باسم نافذة الصبر :
— ألا تريد أن آتي إليك ؟ .

وملأت صدغي خنّة كلماتها المؤنثة :

— ولكنك تعرفين معنى هذا؟.

— ولو ... لقد ربّيت في دمشق .

تأملتُها بإمعان ، وتردّد ثانية غنج صوتها في مسمعي ، وتبيّنت فيه خيط غصّة بعيداً ، فأخذ جفناي يرقّان بسرعة . ابتسمت واقتربت منها . كانت قد مدّدت ساقها على السرير ، وأسندت ظهرها الى الجدار . رمقت قدميها الصغيرتين ، وسرعات ما تبيّلت فيها بقعة كامدة . وببطء رفعت عيني إليها متسائلاً ، فهزّت رأسها ايجاباً، تمسّيت الى النافذة فأزحمت ستارها ونظرت الى الشارع . كان صوت مؤذّن بعيد ، يتناهى خافتاً مدغوم الحارج ، يختلط بههمة الحشود المرهقة في الشوارع ، على مدى الأبعاد .

أغلقت النافذة والتفتّ فرأيت ثريا تقف يجانبي حافية ساكنة ، رافعة الرأس ، محدّقة باستغراق وإصرار .

— ثريا ... ارجعي الى البيت .. نحن بمفردنا .

كانت ترتعش فتركها وسرت في الغرفة مثقل الخطى .

— هل أضع لك شاياً ؟..

وصلت الخزانة وفتحتها بلا سبب ، واصطدمت عيناها بعينين اتّسعت حدقتاهما وانطفاً بريقهما .

مكثت أتأمل شكلي برهة ففزعت منه . كان شديد الوحشة مشدود الملامح ، وكان يشتهي . أغلقت الخزانة .

ودوّم في ذهني سؤال رصين الوقع : ماذا أفعل الآن؟ نظرت الى ثريا فرأيتها تستند الى جدار النافذة وظهرها باتجاهي . لم يكن ثمة بدّ من التفكير بأنها امرأة رائعة ، واقتربت منها فتبيّنت أنها تبكي . امتدّت اصابعي كأنها استطلاات خرجت من أضلعي الى الأمام يجهد وارتعاش ؛ ثم هرشت رأسي ، وأطرقت ملتهب الجبين .

كان لا بدّ من التفكير بأن ثريا امرأة رائعة .

وكان مجرّد التفكير يترك بصماته على صفحة وجهي . أما دموعها فما أكثر ما هدمت من صحتي وتحفّظي . وبعد ذلك كلّ كنت لا أزال صامتاً . لم أسأل نفسي لماذا ، فقد كانت مسام جسمي كلها مكبّلة بقيد مبهم مريد . وخيل لي أنني ينبغي أن أواسيها ، وأتحطّي هذا التلبّس الغايّ الذي غلني ، فرفعت يدي الى كتفها .

كانت الكحول هذه المرة أدفاً من توقد أصابعي . غير أنه ينبغي أن أبقى فوق مستوى الدم .

انضوت ثريا تحت ساعدي ، وأخذت تلتنفس بسرعة . طيّبت خاطرها بطلاقة ، وما لبثت أن أحسست بشيء ساخن ينزلق على زندي . رفعت وجهها ومسحت عنه الدموع ، وأجلستها على الكنبه ، فاطرقت عيناها الكبيرتان مغرورقتين بالدمع . وفجأة ، رفعت أصابعها الى فيها ، فوضعتها بين أسنانها ، وعضّت عليها عضاً عنيفاً . وذاب نفسها في البكاء ، وأخذ جسمها

يرتعش كنباض أفلت للتوّ من الشّد . جثتها بقدح ماء ثم هيّأت
للماور ، ووضعت عليه إبريق الشاي . وبعد أن مسحت يدي
تقدّمت فجلست بجانبها .

أحسست كما لم أحسّ من قبل بمحقارة الزمن . وراح الغيظ يمتصّ
دمي كما يفعل البقّ ويرعى تماسكي . تذكّرت أمي المشلولة منذ
ثلاث سنوات ، يعذبها الروماتزم أقصى من الوحش ، وثرثرا تنسج
إلى يميني تمعّذها طفرة الشباب المقيدة . انظر إلينا أيّها الربّ ،
إننا نموت جوعاً . تذكر أنني كنت أبصق دماً وأن ثريا تجلد
كالهرمين .

تنبّهت إلى أنني ملزم بقول شيء ما ، واستدار ذهني إلى أهلها
فصالتها دونما وعي :

— ألا تحكين لأبيك ما يحدث معك ؟ .

فرفعت حاجبيها نفياً :

— إنه يعتقد دائماً أنني مخطئة .

كان شعرها الخرنوبيّ الطويل يستقرّ على كتف الكنبّة ،
ويهدوء مال رأسها فاستلقى على يدي التي كانت ممدودة وراءه :

— ألا تريد أن تعبت بشعري ؟ .

صمتّ قليلاً ثم سألتها :

— ثريا . . ألا تؤمنين بالفضيلة ؟

فأخرجت من فيها نفساً قصيراً ساخراً ، وحكّت جفניה ،

وبعد صمت قصير همهمت :

— اذا كان إيماني قد تزعزع .. فكيف بالفضيلة ؟ .

ثم برمت رأسها على ذراعي باسمة مغمضة :

— في دمشق كل شيء قد مات .. لن أحدثك عن أمي وأبي ،
ولكنك يجب أن تعيش على سجيّتك . عندما يتململ الجسد ،
تنهزم الأخلاق . فلا تجعلني أعتقد أنك تتمسك بهذه الأخلاق
الميتة ، لأنك لا تدري ماذا تعمل . أنا لا أقبل أن أتقيّد فأتمدّب
مقابل لا شيء ، إن الأخلاق لا تلبّي حاجاتي . وسأرفض الجنة
عندما أموت ، وتصعد روحي الى السماء ، فلست أعتقد أن
جهنّم أشدّ عذاباً من الحياة .

تأملتها ، هذه التي تستلقي على يدي ، وهي تعلم أنني رجل
وأنها امرأة ، وتذكّرت زهرات الفلّ الأبيض حول غرفتي
باللاذقية وعيبرها الذي كان يملأ تلك الغرفة ممزجاً بالبرد
والرطوبة والدم .

راحت أصابعي بلا وعي تفرق وتتلوّى في شعرها القرنفلي
الغزير ، وأخذ ضوء نظراتي ينفذ الى قلبها فيرى كيف تنبض
فيه الحياة . وشرعت تتأملني ملياً ، فشعرت أنها تريد أن
تأكلني . انتفضت عن الكرسي هارباً من ثقل كثيف
في صدري .

— ما الفائدة ثريا ؟ سوف تشتميني غداً . اذا كان إيمانك
قد تزعزع ، فضميرك قويّ لا يزال ، وسيعذبك .
هزّت وأسها ساخرة : كلا .

— ما أشنع ما تتحدث عن الضمير ! أنت فلاح لا تزال .
إن زوجي مدين لي بالف ضمير . لماذا لا يتكيف الضمير معنا ؟
دعني أسألك من الذي وضع لنا ضميراً ؟ أنا لا أفهم في الفلسفة
ولكنني أغتصب منذ ثلاثة شهور . ولم أشعر حتى الآن أنني
امرأة . اذا تطلّقت نهش عرضي الناس . فلن يصدّق أحد أنني
تطلّقت بهذه السرعة بحجة بالله والضمير .

تنبّهت حواسي بأجمعها لما تتكلم ، لكنني بقيت جامداً . وبعد
فترة صمت قلت لها :

— أجل عندنا في الجامعة مطلّقة ينهش الطلاب اسمها .
وأعتقد أنها تعيش في جحيم ، انتظاري يا س ، ورغبة في تحدّي
الناس . أنت تعانين المشكلة نفسها ، ولكن من وجهها الثاني .

رفعت رأسها للأعلى :

— سلّم عليها ، وقل لها .. قل لها .. كل شيء .. أشياء
كثيرة .

ثم رمقتني بنظرة قصيرة ونهضت :

— أعطني لكسائك وقصائك لأغسلها .

فقلت لها ضاحكاً :

— افرضي أنك أعطيتّه جراي خطأ ؟ .

وكانت ابتسامتها تحمل كلّ النفي :

— هل تعتقد أنني سأخلطها بكلساته ؟

فضحكت بقوة :

— هذه مقارنة شقيقة .. والآن اذهبي وإلا تأخرت .

فابتسمت بعذوبة :

— لن أذهب إلا بشيائك .. أقسم لك بكل شيء أني لن
أذهب بدونها . ألا تثق بي ؟ . ألا تريد أن تبهجني ؟ . ثق أنني
لن أخطيء بها .

ولم يطل بها الوقت حتى بددت تعني . وفي الحقيقة كان
شعور بلذة الطلب وطرافته يتقوى كلما ازدادت إلحاحاً .
وهكذا أسرع تجميعها وأنا أراقبها بغبطة فائقة ، حتى إذا
انتهت وضعت الكسرات في محفظتها .

— لا أعتقد أن عندي الآن قصصاً وسخة . ثريا .. أنت
هنا بأيّ عذر ؟ .

— أنا عند جارتي . آه .. لم أقول لك : تخانقنا لأول مرة ،
فجئت الى بيت أهلي . عرفت دواءه . فجاء يصالحني ، وأخذ يبربر
مع أبي فتركهم وقلت إني ذاهبة عند رفيقتي . أعتقد أننا
سننتقل فنسكن الشقة المجاورة لبيت أبي . بسبب هذه
الحنافة .

فتحت لها الباب فوقفت على العتبة تتأملني بغبطة ثم مدت
يدها وودّعتني . وعند نهاية الدرج التفتت تبسم حتى بانّت أسنانها .

٣

درجات المنتدى برغم قلتها ، تشعر الساقين بخفّة عابثة ،
 وهكذا غالباً ما أنزل عليها رملاً . تفقدت سحاب ، فلم أجدها ،
 وعدت . عند آخر درجة رأيت « واحة » تسير إليها ،
 فخبطت رجلي بقوة ، ورفعت لها يدي في تحية عسكرية
 أضحكها ملء صدرها وقالت :

– ألن تشترك في رحلة بيروت ؟ .

فسألتها : « متى ؟ » فأجابت : « في أول السنة الجديدة »
 وهزرت رأسي نفياً وقلت :

– منذ اليوم الثاني من الشهر حتى اليوم الأول من الشهر
 الذي يليه أكون مفلساً .. هيا بنا الى البوقيه .

كانت تضحك باستغراق :

— ستكون مقلماً ! صحيح بشر ، اشترك .. يجب أن
تشارك ، بيروت جميلة وأنت تحبها .

— أنا أحتاج لرؤية بيروت ، وفي الجامعة جميلات مثلك
أراهن ؟ .

فسعلت وقالت : — اى .. بس .. اسكت .. ألن تذهب ؟
قل لي .. يجب أن تذهب فالجميع ذاهبون .
شعرت بغبطة عارمة فسألتها :

— قولي لي .. متى جئت من اللاذقية ؟ تعالي نسير قليلا .
خرجنا من النادي الى الحديقة ، وأخذنا نسير بهدوء حول
رصيفها . قالت واحة :

— إذن لن تذهب الى بيروت ؟ خذ الشبابة معك ! .
أجبت مازحاً :

— ما الفائدة؟ سندهبين الى كنيسة مار جرجس لتصلي هناك .
فضحكت :

— لا ، سأذهب معكم ، وأصلي في الجامع مع ذقون مشايخكم .
— الذقون نفسها عند الخوارنة والمشايع .. كلها ملوثة بمرقة
الحياة الدنيا .

ضحكت واحة بعمق ، ثم امتزج ضحكها بسعال شديد .
وهمت بأن أعلق على هيئتها في تلك اللحظة . وقبل أن أفعل بدا لي
سعالها أطول من المألوف ، فقطبت ونظرت اليها بإشفاق واهتمام .

بعد أن انتهت النوبة ابتسمت ، وإذ رأت ملامح القلق على وجهي ، ازداد ابتسامها وقالت : إنها نوبة سعال عابرة خلّفتها حمى ألّت بها منذ أسبوع . وأعلنت :
— أنا ذاهبة الى دار الطالبات .. باي باي .

ودّعتها ، رغم ابتسامتي ، بوجود . إنها السعلة نفسها التي بصقت بعدها دماً : جافة ، عنيفة البداية ، مبتورة النهاية ، يشعر الإنسان منها بأنها تحفر حلقه .
فكرت قليلاً ثم ابتسمت : ما أسخف حساسيتي ، إنها بقية حمى .

تذكرت أنني كنت أبحث عن سحاب ، فضيت قدماً الى المكتبة . وعند باب قاعة المطالعة رأيتها جالسة الى طاولتها التقليدية . تقدّمت فجلست أمامها ، ووضعت دفترتي فوق كتابها . رفعت إليّ عينيها النفاذتين ، وانقرجت شفتاها عن ابتسامة ملأى بالافتتان . لقد كانت ابتسامتها وما تزال تحمل بدور تترّد وإسعاد ، ويتوالد عليها السحر بديومة رنقة فاتنة .

وطاشت في قلبي رعونة لعب ، وهزّني من عينيها وميض أبديّ الانسكاب ، فأمسكت بدفترتي وكتابها ، وطويتها وأملت رأسي باتجاه الباب . فتحت عينيها ونظرت حولها ، ثم إليّ وابتسمت . كان بعض الجالسين حول الطاولة قد صوّب إلينا أعيناً فضولية ، فجلست على الكرسي محنقاً .

مكثنا حتى الظهر . كنت أعبت بساقها فتسحبها الى

الوراء ، وتبتسم . وإذا تنظر إليّ بعض الاحيان بعتاب ، كنت أكور في وأمس لها أن تخرج ، فتبتسم وتطرق فوق الكتاب ، وأحاول أن أسحبه فأخشى وجود الحاضرين .

أدركت أنني لن أنجح في زحزحتها ، فنهضت متغاضباً .
وشعرت بشيء من الضيق حين لم تلحق بي .

ذهبت توأ الى غرفتي ، وكان عليّ أن أتغدى بربع ليرة !
تخيّرت : ماذا يمكن أن أشتري بربع ليرة ؟ وأخيراً قرّرت ألا
أتغدى . واستندت الى النافذة قليلاً ثم عدت الى الجامعة .

بعد الساعة الثانية اتّخذت طريقي الى المكتبة . ودهشت
إذ وجدت ما تزال تجلس الى الطاولة نفسها . لم يكن أكثر من
عشرة طلاب في القاعة كلها . أما طاولتها فلم يكن يجلس
عليها أحد .

تقدّمت منها وقلت :

— ألم تؤمك عيناك ؟ .

فابتسمت وهي تقلب صفحة من كتابها :

— لا يهمني .

اعترضت : — أنا يهمني ، انهضي .. حرام عليك .

فابتسمت ثانية وأطرقت دون أن تتكلم شيئاً . تركتها وقد
استفزّني هدوؤها ، فذهبت الى قاعة كرة الطاولة . وهناك
انسجمت مع اللاعبين ما يقرب من نصف ساعة ، ثم تلفتت بغير
إرادة نحو غرفة الهاتف ، فوجدتها تمسك السماعة .

وأدركت أنها تشرح لوالدها سبب تأخرها عن البيت حتى تلك الساعة .

شعرت يجمود يثبت قدمي على الأرض ويفصل عنها مشاعري . ولما تلتفت ثانية بعد إطراقة طويلة لم أجدها . خرجت من القاعة فرأيتها تلتفت شمالاً وتخرج من مدخل الجامعة . سرت وراءها ، وأخذت أسرع حتى أدركتها عند جسر الحرية على (بردى) . كانت الحرارة خفيفة ، والنهر على غير العادة صافياً ، ونقر من الباعة حولنا يهتف ويصيح :

— ألم تتعب عيناك من الدرس ؟

تبسمت وقالت :

— أتعرف أنك ضايقتني ؟ .

فسألتها لماذا ؟ فأجابت أن أهلها لا يريدونها أن تسير مع أحد في الشارع .

قلت :

— الحقّ عليك .

فنظرت إليّ بهدوء أخذت شجاعتي ، وسألت عيناها : لماذا ؟ .

السيارات على شارع بيروت كانت جدّ كثيرة . وأجبتها :

— دعيني أراك في الجامعة .

وحين بلغنا نهاية الجسر رفضت أن تسير ، فوقفت بجانبها

وحولنا بائع عصير وبضعة أطفال متسولين .

نقرت برجلها على الأرض فاهتزّ جسمها اهتزازة خفيفة :

— لماذا ؟ ماذا تريد مني ؟.

— أنا أحبك .

قلتها بهدوء وبشاشة ، لكن ريقى كان جافاً ، فأدارت
رأسها بحزن مفاجيء ثم تأملتني في تحد :

— أنا !؟ ماذا تعرف عني ؟

فوجئت بسؤالها فتلكأت .

— أعرف عنك ؟! .. أعرف أني أحبك ، ألا يكفي هذا ؟

قالت مضطربة :

— أرجوك يا سيد بشر .. لا يمكننا التحدث ها هنا ..

لا يسمح لي .

فقاطعتها :

— ولكن دعيني أراك في الجامعة .. أنت دائماً بصحبة
زميلاتك ، فهل أتحدث اليك وأنت معهن ؟ .. أنا لا يهمني .
رفعت عينيها عن الأرض :

— اكتب إذن .. رسالة .. أشرح لك فيها وجهة نظرك .

— لا .. لا أريد أن أفهم معك بالرسائل .. لا أريد أن
أخذ منك أية رسالة .. أريدك أن تتحدثني لي بنفسك عن كل
متاعبك ومومك ، وثقي أني أحبك .. دعينا نتمش إلى
الرصيف الثاني ، فنتفياً ظل الشجرة .

— لا .. لن أسير معك خطوة واحدة .

— إذاً أراك غداً في الجامعة ، في درس اللغة .. فأنت لا

تحضرينه عادة . ألا يؤذك الحرّ ؟ كما تحبّين ! لنبقى على الرصيف ،
ولكن يجب أن أراك غداً حتماً .. وإلاّ لاحقتك في الشوارع ..
لا تعتذري بأية حجة .

وودّعتها فذهبت الى البيت ، وعدت الى الجامعة . سرت
تحت الشجرات الضخمة المعمرة بحديقة المتحف ، وأنا أحسن أني
لا أسير مطلقاً . شعرت أني أنساب في الفضاء نصف مغمض
العين ، ساجداً ، ملئ القلب متبعثراً .

ومضى النهار ، ونهار اليوم التالي دون أن تتكلّم معي ، أو
تقترب من مكان أكون فيه . ورأيت نفسي مرغماً على أن أكتب
لها رسالة : فذهبت الى غرفتي عند المغيب وجلست . لم أدر ماذا
أكتب لها ، ومع ذلك لم أمزق أوراقاً ، بل ولم أكتب مسودة
على الإطلاق ، وبعد ساعة كنت قد أنهيت هذه الكلمات :
« غاليّتي .

مع سكون الليل الرطب ، وحيداً مع المساء ، وكلّ ما
حولي يوحي بأكثر من خاطرة ووهم ، أكتب اليك .

بماذا يا حلوتي أبدأ ، وعندي من الهمس الكثير ؟ أقول إني
أحبّك ، إن هذا الجدّ قليل . هذا الاتّقاد العابث ، وتلك
العاطفة المتمرّدة ، القلب في كل نبضة منه تخرج لك صلاة ،
الخيال يعبّ من طيفك الأسر سحراً به يقتات ، وبديومته
يعيش .. كل هذا أكثر من أن تسمّيه حباً .. إنه عبادة .

أصبح أننا لم نبسم لبعضنا صباح أمس ؟ ما أبخلك ! لقد

عشت على أمل لقائك أحلى الساعات .. قضيتها منتقلاً في
شوارع دمشق فرحاً وغبطة ، أودّ لو أعانق كل ما يمرّ بي في
الطريق . لقد تصوّرت أشياء كثيرة عن حياتنا المقبلة ، وتهيّأت
لحديث طويل طويل . مستقبل عجنته بابتسام وأعصاب
وأمان رغبة رائعة .. ولكن أسفاً . أنت تحضرين ساعة اللغة
لأول مرة ، فهل كان هذا بسببي ؟.

لست أدري كيف يمكنني أن أتفاهم معك بعيداً عنك . أنا
لا أستطيع أن أكتفي .. بالورق والقلم .. هذه الخطوط التي
أكتبها ، تثير أعصابي . أريدك يحاني وجوداً يبرعم في صدري
الحبّ فيعطيه الحياة .. فلا تهربي مني .

لعلّك تسألين ماذا أودّ قوله . ليس هناك ما أقوله سوى
أني أحبك . لقد وجدنا الأساس المتين ، وما علينا إلا أن نشيد
البناء . إذا اتّفقنا وامتزجت أهواؤنا فتلك هي الجنة التي نخضب
بالحبّ حياتنا .

لقد قرأت ما كتبته لك الآن فإذا به لا يعبر عن شيء مما
أريده . أريد أن أتحدّث معك ، أن أسألك فتجيبني ، وأريدك
بالذات أن تتكلّمي عن كل ما يعمل بنفسك من مخاوف وشكوك .
لقد لمحت في عينيك على الجسر قلقاً خفياً . إني أريد هاتين
العينين صافيتين كالبراءة ، متألّقتين أبداً بذاك البريق الذي
يضيء الدامس ، ويخلق باستمرار عوالم مسحورة الجمال .

يا حلوتي ، أمامك مستقبل جديد بأكمله .. فلا تدّعي قيود

بجمعنا تفسده عليك . نحن جيل جديد وعلينا أن نبني أخلاقنا
بنفسنا . لتفاهم وتؤكد من حياة قادمة لا تشوّهها متاعب هذه
النماذج البليدة من الأزواج التي أراها غالباً . كوني لي بكل
وجودك وعواطفك ، زوجة وصديقة وملمة ، وبعد ذلك
ستسقط كل الاحتمالات وكل العقبات .

ثقي بي يا سوسني الناعمة .. ثقي أني لك أيضاً بكل
جوارحي ومستقبلي . »

قرأت الرسالة فثقب نظري هول المبالغات التي ملئت بها .
رميتها على الطاولة وتراخيت في جلستي . لماذا أكتب لها
كلّ هذا ؟ . الأقمعها أم لأقمع نفسي ؟ . لم أستطع الجواب .
سألت نفسي : ما هي النهاية ؟ إن حساب تمارس على حواسي
عندما أراها نوعاً من السحر . تلك حقيقة يجب الاعتراف بها ،
ولكن أهو حبّ أم ماذا ؟ . يجب أن أحقق لنفسي عاطفة ما ،
وموقفاً معيناً .

هل تعني حساب بالنسبة لي أكثر مما تعني ثريا ؟ . لا أظنّ .
إني مستعدّ من أجل ثريا أن أسجن مئة عام ، لكنني لست ،
من أجل حساب .

إنني لم أمش في شوارع دمشق ، وإن كنت أعيش بغبطة ،
ولم أعانق أيّ شيء ، فقد كنت ألعب بالنرد . كما أنني لا أعتقد
أن قلبي يخرج الصلوات ، ولا أنه يقتات من رؤياها ، فلماذا
الكذب ؟ .

أهو حقاً كذب؟! لا ليس كذباً ، لكنه ليس صدقاً ..
إنني لا أدري ما هو .

هزرت رأسي بوقت ، يجب ألا أعطيها الرسالة ، وألا أتحدث
اليها بالمرّة . إنه ليس الزواج ما يجعلني أتردد ، فأنا لم أتحرش بها
لأتسلّى معها ، وهي بمثل هذه الظروف ، ولكنني يجب أن
أعرف لماذا تحرّشت بها !

إنه ليس من الممكن أن أراجع ، ذلك أكيد ، فعلاقتي معها
لم تبدأ لتنتهي بأن أثبت أني وغد وكذاب .

دقّ الباب فجأة فتطلّعت اليه يجمود . وانتبهت بعد برهة
الى أني يجب أن أفتحه ، فأخفيت الرسالة في جيبتي ونهضت .

كان دريد وصالح على الباب ، فصرخنا بالتحيّات ودخلا
الى الغرفة . سأل صالح :

- وحيد أبا البشر؟ . كأنك كنت تنظم شعراً .. ألم ترق
بعد .. يا غرائقي ، يا فاشل ..

ضحكت : هل يعلم صالح أني غداً سأعطي سحاب رسالة؟ .

- هل حدث شيء جديد مع غيداء؟ .

- أشياء جديدة .. تحدّثنا عن التحرّر ، والتخلّص من
رواسب المجتمع ، ووجدنا أننا متفقون في آرائنا . جلسنا
في المقصف ، ثم ذهبنا الى المطعم فتغدينا .. وعدنا الى المقصف
وشربنا قهوة . تحدّثنا وكلّ شيء .. انسجام .
خففت عيني وقلت :

— وصالح ، ماذا جرى ؟ .

كان صالح يعبت بالكتب ، فانتبه إليّ وقال :

— لا شيء .. تقصد مع سحاب ؟ لا شيء . أنا لا أحبها .

لكني أريد ان أجتمع معها يوماً مع كأس غرانقي .. هكذا ..
وفراش وثير .

شعرت بوخزة بين أضلاعي : صالح ، اقرب الناس لي ،

لا يحترمها . سألته :

— صالح .. ما رأيك في أني سأتزوّجها ؟ .

التفت إليّ الاثنان بدهشة بالغة ، وصاح دريد :

— غرانق .

بينما تأكد صالح من كلامي عدّة مرات .

ورويت لها كل شيء حدث بيني وبينها ، وأخيراً قلت :

— وبعد زمن قصير ، لعلّه آخر هذه السنة الدراسية ،

سأتزوّجها . سأعطيها الرسالة غداً .. لقد تردّدت في ذلك ، لكن
تردّدي كان سخيلاً .

سأل صالح : — كيف ؟ .. ألا تفكر .. أعني .. هذا

زواج يحتاج ليرات كثيرة .

هزرت رأسي بلامبالاة وقلت :

— سأشتغل . وأكتب .. بوسعي أن أجمع خمسمئة ليرة

شهرياً ، وراتبي من الجامعة .

فضحك :

— غرائق .. مصمّم ؟ . أعتذر إذن عن كلماتي .. أرجوك
أن تنساها أبا البشر .. لقد كانت غابرة .

طلب دريد : — هات اعمل لنا عشاء أيها المقبل على الزواج ،
لقد سبقتي .. لكنني سألحق بك سريعاً . يجب أن نتحرّر من
قيودنا . لن أصمت مع غيداء بعد الآن ، فأنا أعرف أنها تنتظر
مني أن أحدثها بصراحة .. يحرق شيطانك .. كيف لحقت بها
حتى النهر ؟!

تذكرت الحزن المفاجيء الذي ملأ عيني سحاب عندما قلت
لها أحبك . وشعرت بإصرار قويّ يخز ترددي .

غليت لصالح ودريد شايّاً : لا أملك فرنكاً واحداً .
أغفيايني من العشاء .

بعد ما يقرب من ساعة ودّعاني وذهبا . أخرجت الرسالة
من جيبي وقرأتها . أجل إن فيها مبالغات ، ولكنها ضرورية .
فسحاب لن تصدّق بسهولة اني أحبها ، ولا بدّ لذلك من
شدة التأكيد .

نمت تلك الليلة نوماً عميقاً ، وفي عصر آخر يوم من أيام
السنة جئت الى الجامعة ويحيي رسالة لمن ستكون زوجتي .
— هذه ترجمة عن حياة سومرست موم التي طلبتها ..
بعضها بالعربية .

تأمّلتني عيناها الفسيحتان قليلاً ، ثم أغضت واحمرّ وجهها .
وتناولت الرسالة فوضعتها في كتابها ، وتوجّهت فوراً الى البيت ،

فيا ركنت الى باب القاعة ، أتأملها وهي تسير بخفة واضطراب
في الرواق البخيل الضياء . وأيقنت تلك اللحظة أنني قد بدأت
في حياتي شيئاً جديداً ، وأنه سينتهي بي الى أن أعيشها سعيدة
موتقة . وشعرت حتى الثمالة أنني أحب سحاب حبا عظيماً
هائلاً .

بعد أكثر من أسبوع استطعت أن أتحدث معها على
انفراد .



٤

بعد أن حلقت ، وسرحت شعري ، وارتديت ثيابي ،
تنبّهت الى أن جراي متّسخ . فتحت درج الخزانة فلم أجد شيئاً ،
وبحثت تحت الوسادة فوصلت الى النتيجة نفسها . نظرت فوق
رفّ الخزانة فالتقيت بزجاجة نبيذ .

جلست على السرير في غضب مبتسم . ومّرّ زمن حسبته
دهراً . صبت ما في الزجاجة من نبيذ في كأس واستلقيت .
لقد صرت أستلذّ التفكير ، فكلّ ما يرد فيه يوحى بأن سعادتي
شيء خاص منفصل عن سعادة الآخرين ، لا أدري كم من الوقت
انقضى ، إنما تنبّهت الى تفرّ خفيف على الباب ، فوجب قلبي .
نهضت وفتحته ، فإذا بي أمام ثريا ! هتفت بها بسرعة وترحاب

ثم انفلتت داخل الغرفة . اذاً فقد حلت المشكلة وسأل بس جراباً .

— الوقت نهار ، فكيف جئت ؟!

— أشياء كثيرة .. لأقصها لك .. خذ أولاً الجرابات .

كانت تفور بالنشوة والروعة وهي تجلس على السرير .

— يا سيدي : اتفق بابا معه أن نسكن قريباً من بيت أهلي وأن يسمح لي بالذهاب في حفلة نسوان للسينا كل أسبوع . وألاً أتحدث الا مع بنت الجيران ، وهي تسكن أمام غرفتك في الطابق الثالث . وهي الآن في السينا . عندما تعود ستدق على الباب ، فأخرج ، وتوصلني الى بيت أهلي في الطابق الثاني . والآن اذهب فاشتر — اليوم ثالث يوم في الشهر ولست مفلساً — اذهب فاشتر شيئاً من الباذنجان الصغير .. كيلو وأوقية لحمه هبرة ، وبعض البصل ، وعصصاً ، وتعال فساطبخ لك « شيخ المحشي » . والآن لا تعترض .. إني لن أذهب ولو أشبعني ضرباً . الآن اذهب فاشتر ما قلته لك وتعال . يا الله .. عجل ، معي ثلاث ساعات فقط .

سرت الى الباب ، وقبل أن أغلقه قلت : « سوف تكرهيني خلالها » ، وسمعت على زجاجة ضرباً محتجاً .

اشتريت هذه الحاجيات المفاجئة مع السمن وبعض البندورة ، وجئت لثريا بأوقية كثافة .

عندما فتحت الباب أذهلني أن الغرفة قد مُسحت ،

والسرير قد رُتّب ، وأن ثيابي قد علّقت كلّها .

حدقت بنا حولي شديد السرور ، بينما ابتسمت ثريا مبتهجة بعملها وبالكنافة .

— أين وضعت كأس النبيذ لأثبت لك أنني لست مفلساً ؟

لفتت رأسها يساراً : — نبيذ ؟! أيّ نبيذ ؟ كان في الكأس بعض الشاي البارد ، فأفرغته في المغسلة وغسلته .

— لقد كان به نبيذ يا بنت الحلال .

قلت لها هاشاً . وفوجئت بها تعضّ أصابعها ، ويحتمل وجهها بين الضحك والبكاء .

هتفت بها : — كنت أمزح معك .. فالنبيذ فيها من يومين ، ولم يعد يشرب . كنت سأفرغه بنفسي .

— إذا فأنت لم تغضب ؟ . أنت تحبّ النبيذ ؟ .

كانت تبسم . ونهرتها برفق :

— إه أعوذ بالله .. وافرضي أنه كان نبيذاً فعلاً ، فهل أغضب

لأجله ؟ . انزعجي حساسيتك عندما تكونين عندي ، فأنا لا أعاقب ولا أعاتب . بالعكس إذا تشيطنت أحبيبتك أكثر .
والآن هلّمي فاطبخي .. إني جائع ..

مددت الحصيرة في زاوية الغرفة ووضعت عليها الباذنجان وسكيناً وبعض الصحون . بعد قليل تمتعت ثريا :

— بشر ؟ .

- هم هم .

- لقد سمعت شبابتك كثيراً من وراء النافذة . وأنا الآن عندك بلا نافذة . أنا أعرف أنك لا تفتح بها إلا إذا كنت حزينا .. ولكن أي أغنية ، لفيروز مثلا .. أي أغنية .

نظرت اليها مشدوها : - كيف عرفت أنني لا أنفخ بها الا عندما أكون حزينا ؟.

فضحكت وأجابت متعابثة : - ملك ، كنا نتحدث من المطبخ .

تذكرت النافذة وسألتها : - ماذا كان شعورك عندما تحرّشت بك ؟

ابتسمت : - تضايقت عندما غزرتني ، فقد حكّت لي ملك عنك أشياء كثيرة جعلتني أهتمّ بك بشدة ، لا أدري ماذا كنت تحسبني ، ولذلك تضايقت إذ غزرتني ، لأنني أحببت أن تهتمّ بي كما اهتممت بك . ولو لم ألمح بعينيك جنّة غريبة لما تحدّثت معك لكنني لم أقاوم كثيراً مقاطعتك .. إنني رخوة بطبيعتي وسريعة الاستسلام .

- بل أنت عاطفيّة تهتزّك البسمة وتأسرك الكلمة الطيبة . صمتنا لحظات ، وراحت تشقّ بطن الباذنجان ، فتفرغ بعض أحشائها وتحرك اللحم فوق النار . سألتها بلهجة سكونية : - ثريا .. ألا تخافين أن ينكشف امرنا ؟ .

فأسرعت تسكتني - هس .. دعنا نعيش سعيدين دونما
تخويف .. إني أموت رعباً .

أخذت أتأملها بشغف ، وقد ولج الى صدري شعور بسعادة
غامرة . حدثت بشعرها الخرنوبي تدفعه برأسها بين الفينة والفينة
لثلا يغطي وجهها التفاحي الفاتن .

أمسكت بالشبابة وأسمعتها « يا حنينة » و « اذكريني »
و « بنت الشلبية » و « الى راعية » ، وعندما بدأت « بست
الحبايب » أخذت تنشدها معي . كان صوتها ينبعث كجرس
كنيسة مفرط العذوبة ويختلط بصوت الشبابة وشخير السماور ،
متناهما الى أذني أطرى وأرق من كونشرتو .

أخذت أكرّر بعض المقاطع ، وأخرج في الأخرى ذبذبات
دقيقة حتى شعرت بنشوة فائقة . والتفت الى ثريا فرأيتها تبكي .
سألها ضاحكاً :

- من تأثير البصل أم من الشبابة ؟ .

فابتسمت حتى بانّت أسنانها الصغيرة ، ثم استندت الى الجدار
ورنت إليّ والدموع تنحدر من عينيها ، وقد تلفةفت بصمت
حزين ، فرح ، أهوج ، وعاقل ، ازدحمت فيه المعاني حتى
لتحسبه وحياً .

- إليك هذه الأغنية وكفى بكاء .

- إني سعيدة جداً .. سعيدة لدرجة يصعب على قلبي
احتالها .

نفخت « عالصفورية » فأغرقت في الضحك ، ثم أخذت تغنيها : لم أحفظ كلمات الأغنية بعد فهي جديدة . أعطني السمنة .

أعطيتها اللعبة ورحت أنفخ لحناً وعوياً حزيناً فيه ترددات كثيرة أشبه « بالليالي » لكنها غير متناوبة ، تنخفض نغمها بالتدريج ، وتعلو فجأة بطريقة جد بسيطة .

— يا الله .. ما أروع هذا اللحن .. لم أسمع به من قبل .

— هذه تسمى « دقة الجزائر » يعزفها الزمار قبل بدء الرقص في أعراس الريفين ، او الراعي عندما يسوق غنمه .
— كاد يحترق الباذنجان .

شفت هي ، فصمت مبتسماً ، واستلقيت على السرير .

واخيراً انتهى الأكل ، فصبته في صحنين وضعتها على الطاولة ، ثم أجلسني على الكرسي ، ففرشت فوق ركبتى منديلاً ، وأمرتني بالأكل . نظرت إليها متحيراً ، فاطرقت خجلي ، وانسجبت الى المفصلة .

نهضت إليها باصرار طفولي ، وأشرت برأسي أن تأتي . فأقبلت ببطء وعلى وجهها تحوم ابتسامة مرتبكة ، وأمسكت بالكرسي ثم وقفت وتطلعت إليّ باضطراب ، وابتسمت راعشة الجفون . أشرت باصبعي « اجلسي » فجلست مطرقة :

— ارفعي رأسك وكلي كما يأكل الناس .. لقد كنت تضحكين منذ برهة ، فماذا جرى ؟! . استحييت .ني فجأة ؟!

ابتسمت وازداد إطراقها ، فانسدل شعرها الغضارى حول
وجنتيها وأخذت ترتعش .

أخذت لقمة ووضعتها بين شفتيها :

— لا تشعريني بأنك بعيدة عني .. أنت قريبة جداً .. يا الله ..
فرفعت رأسها بتؤدة واضطراب ، ثم ضحكت بصوت
مسموع . سررت لضحكها وأقبلت أنا الآخر على الأكل . وفيما كانت
تأكل سقطت منها الباذنجانة على الطاولة ، فانتفضت مذعورة ،
ثم أطرقت بانكسار أثاري .

صحت : — ثريا ماذا جرى ؟ لقد انقلبت كثيراً .. لماذا
تعطين هذه الأهمية كلها لحوادث تافهة ؟ كلنا يوقع لقمته . أف ..
ساعيني . اجلسي ولا تهتمي بأية حادثة .

جلست باسمة : — أنا أعرف أنك عصي .. سأعمل كما تريد .
قلت لها مصراً : — اعملي كما تريد أنت . ولكن لا ترتبكي
ولا تبكي ، لقد بكيت بما فيه الكفاية اليوم .

فأعلنت : — لا أريد أن أشعر بمثل هذه السعادة ، إنها تكتم
أنفاسي . والآن أرجوك لا تصح ، لقد شبعنا والله العظيم ،
وصلاة النبي شبعنا . لست جائعة ، لا تقارني بك ، أنت تأكل
أكثر مني .

وتحولت للنفسلة ، فانتفضت عن الكرسي وحُقت بها .
سحبنا من أصابعها عنوة وأجلستها على الكنبه ، وعدت
فتابعت الأكل .

شعرت بتعاطف غريب يسري في كياني كالرعدة . نظرت
الى ثريا فرأيتها تحملني بي ، وهي تضع يديها في حجرها . ابتسمنا
معاً ، ونهضت تجول في الغرفة ، وسألتها لماذا لا تجلس ، فأجابت :
« الجلوس يضايقني » . وذهبت الى النافذة فوضعت وجهها
قريباً منها .

انشغلت بالطعام بعضاً من الوقت ، ثم تسلل الى أذني صوتها
خفيضاً مليئاً بالحنان يدندن بأغنية شعبية .

وتركت الطاولة بسكون واستدرت أصغي اليها . ثم أمسكت
بالشبابه ورافقت بها صوتها ، فالتفتت إليّ بصورة فائقة النشوة ،
وراحت تنقل في الغرفة وتغني . كان قلبها يغني ، ورثاها
تذوبان صوتاً ، وحجرتها تفرغر بالدمع . أخذت تدور ، تغني ،
وتهزّ رأسها ، تقف ثم تنقل من جديد .

اقتربت مني ويداها على صدرها ، رافعة الرأس مغمضة
العينين ، وتعالى صوتها يرنّ بجرس ملائكي . وفتحت عينيها
فتألفت فيهما مع الدمع سعادة غجرية الرؤي ، ثم انطرحت على
السريـر . ورحت أتأملها وأنا أحسّ رغبة بالتلاشي ، ودوّمت
المرسمات حولها في عيني ، فلم أعد أرى إلّا انطراحتها على
السريـر ، وإغماضة عينيها العاتبة .

وأفقتنا من هذه النشوة الشاعرة على صوت نقر يأتي من
الباب ، فأحسست بما يشبه الارتكاس .
فتحت ثريا الباب ودخلت جارتها .

– لا تخافي .. مثل أخيك .. هيا بنا نغسل الصحون
ثم نودّعه .

وبعد وقت قصير ودّعتاني . وعند الباب مالت إليّ ثريا
وقالت بصوت أنثوي ضعيف : غضبت مني ؟ .

– غضبت منك !؟ لماذا ؟ .

– لأنني لم آكل ؟ .

فضحكت : – يجب أن تأكلي ... لكنني لم أغضب منك .

– أبداً ؟ .

ونقرتها على أنفها بإصبعي وتأملنا بعضنا قليلاً ثم ابتسمت
وسارت .



- هل أحضرت لي ترجمة ارنست همنجواي ؟.
- أجل .. تفضل .
- ومدّت يدها فتناولت من حافظتها الصغيرة وريقة أعطتني
- إياها ثم همت بالانصراف .
- هل أعجبك القسم العربي من ترجمة موم ؟.
- نظرت حولها بوجل :
- ليس الآن وقته .. انظر ، إن نوال تتطلع إلينا .
- حسبتها تعرف كل شيء .
- أجل ولكنني خائفة .
- تركتهما حتى انسحب الطلاب من القاعة ، ثم سرنا معاً .

أعطيتها الورقة ، وطلبت منها أن تقرأها لي متعللاً بأنني لم أستطع أن أقرأ خطها . أمسكت بها ففتحتها وأطبقت فوقها ، ثم تصنعت الإصغاء حتى مرّ الطلاب .

— لا أدري ماذا أقول لك .. ماذا تعرف عني أنت ؟.

ظهر بعض رفاقنا فأسرعت تدسّ عينها بين السطور ، حتى عبروا الرواق . كنت أشعر حينذاك أنني أعبدها .

— لماذا تسأليني هذا السؤال ؟! . أأنت معادلة رياضية أريد فك مجاهيلها ؟.

وارتبكت فأسرعت تقول :

— لكنك لا تعرفني ؟.

وشمرت بالغضب لكنني أخفيت ، وسألتها ماذا تريدني أن أعرف عنها ، فسألت بأصرار :

— ماذا تعرف عني ؟.

ابتسمت بعصبية وأجبتها هادئاً :

— أهنأك شيء يجب أن أعرفه ؟ .. أعندك شيء تقصّينه لي ؟.

وغفمت بكلام متقطع : « لا .. لا أدري » .

ووقفنا عند أول شباك ينفذ منه الى الرواق الضياء ، فأدارت له ظهرها ، ووقفت يجاني وقد تغمّست عيناها بذاك البريق الغريب ، وتخضّب وجهها بجرأة متحدية .

— أتعرف شيئاً عن حياتي ؟.

— هم هم .

- أتعرف أنني تزوجت ؟

أومأت أن أجل .

- ولي بنت ؟

فأطلقت الإشارة نفسها ، وسكبت شوق عيني على وجهها بصمت بعيد . ورأيتها تضطرم وقد تدلّت شفتها السفلى حيرة وتفاجؤا ، فبدت بذلك الشكل الفاتن الذي يطير لباب الوعي وقشوره .

- لكنني لست مستعدة للزواج ؟

فقرّرت بأشأ :

- سوف تستعدّين قريباً .. اعتبري نفسك منذ الآن خطيبتي . وإذا رأيت أنه يصعب التفاهم معك فعرفيني بالذاك .. وأنا أتفاهم معه . سوف أشتغل فوراً ، وأعتقد أنني سأحصل في الشهر خمسة ليرة .

فردت متلكئة : - لا .. نحن نتفاهم معاً . يبدو أنني الآن لا أستطيع تقرير شيء من هذا النوع .. يجب .. أو يلزمني بعض الوقت لأنسى الصدمة .. وهذه تجربة جديدة تخيفني .. أعتقد أنك صادق ، فلنبق أصدقاء الآن .. إني مرتبكة . لقد تشاجرنا منذ الأيام الأولى ، وعظم الشجار بسرعة هائلة ؛ بعض الناس برغم تحنّثهم ، وضآلة وجودهم ، وحوش لا يعرفون غير أنفسهم .

تسرّبت كلماتها الى صدري مؤلمة وحزينة ، فلاحت لي

وراءها قصة مفرطة العذاب .

— أنا أقدر مشاعرك وأحترمها ، وسأتصرف كما تريدن ،
لكننا سنزوج سريعا ما أمكن .

فابتسمت وسألت :

— ألسنت صغيراً للزواج ؟ .

ورددت بنشاط :

— أنا ؟ .. أنا أعمر منك .. كم تقدّرين عمري ؟ ..

فمطّلت شفيتها ببسمة لم تفصح .

— مهما يكن . مهما امتدّ بنا الزمن فتأكّدي دائما أني أحبك .

ليكن كل شيء بيننا طبيعياً .. منذ أيام لم تبتسمي لي .. وهذا ضايقني .

خلّنا نقل مرحبا ، صباح الخير وابتسمي ، وامنحيني منك
انظرة .. فهذه النعم هي الأشياء الوحيدة التي أعيش عليها .
لنذهب فنفطر .

سارت يحاني واعتذرت أنها أفطرت ، ثم أعلنت أنها
ستذهب الى المكتبة . كان الجو شاحبا فقالت :

— ما أجمل الطقس اليوم .

وبالرغم من أن الطقس لم يكن يعجبني قط ، فقد انطلقنا

يلقنا ربيع أخضر حلوا النسمات ، كان أجمل ما فيه اضطرابها .

بعد أن ودعتها عند مدخل كلية الحقوق ، التقيت بصالح ،
فسلمت عليه :

— لقد تم كل شيء بسرعة غريبة .. سأزوجها .

— أبا البشر .. كنت تتحدث معها الآن ؟!

هزرت رأسي إيجاباً فتفحصني ملياً وقال :

— بشر .. أتحب الصراحة ؟ . كنت أود أن أعمل مثلك فلم أستطع ، أنا أعرف أن الحكاية من أولها ميدان سباق ، الفائز فيها يفوز بجدارة ، لكنني انهزمت فيها سلفاً ، فلم يكن بوسع « اللديدة » أن تنتصر ، أما أنت فيجب أن تتابع . يجب أن تستمر فيها حتى النهاية . إني أحب التحدي ولكن ليس في هذا الميدان .. إني أبارك هذه العلاقة من كل قلبي .

وصمت قليلاً . ثم رفع يده بانفعال وأتم :

— إذا كان قدراً أن نستمر دائماً بتعاطي غدّرات مجتمعتنا فلا أقل من أن نحاول الثورة عليه . وأقول لك إني لم أحسن الظنّ بسحاب ، ولا أحسن ، ولكنني أحترمها الآن لأجلك . لقد لقنت أن أعتقد أن مثلها غير سوية ، وأنها بعد البكارة لا تساوي نخاسة . غير أنني كنت أدرك من هنا .. من قلبي ، أن هذا نفاق ومحاولة لغشّ النفس . ومع يقيني التام بأنه كذلك ، فقد كنت كلما حاولت تحدّيه أشعر به يوقفني إيقافاً اعشى . لقد شبّ في داخلي شبه بطبيعة بشرية . إني أحسّدك قليلاً ، لكنني سأبقى معك دائماً . ويجب أن ينتصر واحد منكأ أنت ودريد ، لقد انسجبت أنا ، إذ لا مجال للحبّ في حياتي . انظر ها هي « واحة » .. لا تنسحب منها حدث .. اعتقد أن سحاب وواحة في مستوى من الجمال واحد .

وصلت واحة الينا فحيّتنا .. رددنا تحيتها وسألناها :

— كيف كانت رحلة بيروت ؟ .

فهزّت رأسها ، ورمتني بنظرة تقرير :

— لقد حكمت عليها بالنحس والإفلاس ففشلت .. لم نذهب .

أنت مفلس بكل شيء .

قلت لها ضاحكاً :

— لقد ظلمتني يا آنسة ، فأنا غنيّ بالحب والإفلاس .

وضحكت بقوة ثم انتهى ضحكها الى سعال .

وهتفت بها بصوت متهلج : — واحة ، ابصقي .

لكنها لم تفعل : — كيف أبصق ؟ أمامكم ؟ .

قالت معاتبة . فوضعت يدي على جبهتي وتمتمت :

— يا إله السماء .. عندما تسعلين ، مرة ثانية ، ابصقي

وانظري ما لون البصاق .

— أي بس . لا تخفني .. ولا تكثر الكلام .. بخاطركم .

هممت أن أتكلّم فانسَلت مبتعدة ، وحملت بها مرعوباً : كنت

حتى ذلك اليوم أحمل بقايا تسفّن في الرئة .



إذا كان ثمة ما يُذكر بعد أن خطبت سحاب ، فهو أن طلاب الصف ومعظم من يعرفونهم علموا بأمر هذه الخطبة . وكانت النتيجة أنني صرت منبعاً ومصباً لكثير من التعابير . الذين لم يكثرثوا ، قالوا إنني مغفل ، والذين اكثرثوا ، كانت شعورهم الإشفاق . أما أن يكون أحد منهم قد شجّعني فهذا لم يحدث قط . وكان هناك فريق ثالث اغتنم هذه الفرصة ليشعروني بطريقة أو بأخرى ، أنه ما كان ليفعلها أبداً ، ليس لأنه متردّد ، بل لأنه أرفع مستوى . أرفع مستوى بحيث يخلق بي بتسامح ويتابعني حتى أخفني . كنت أعلم أنهم يشتهون سحاب ، وأنها تحتقرهم . ولم يكن من الصعب أن أفهم إشاحتهم عنها . كانت نوعاً من رد الفعل

خلقته استحالة صلتهم بها ، ومستوى هذه الصلة .

ومن جانب ثانٍ : فقد عيّنت محرراً في جريدة دمشقية ، براتب مئتي ليرة ، وهكذا فقد تضاعف الوقت الذي أقضيه في الجامعة ، وكثرت مشاغلي بعد أن تسلمت الإشراف على صفحة أدبية اسبوعية ، ومارست كتابة بعض القصص القصيرة لأعود منها بدخل احتياطي .

لكنني كنت سعيداً . وكان يلاّني الشعور بزهو الكفاح من أجل سحاب ، والعمل لبيت أبنيه سريعاً وأنا ما زلت في العشرين من عمري . كنت أسمرّ عندما أمسح عن جبين العرق وأنا في كانون الثاني ، وأجلس في الليل ليعرق ذهني بدوره من أجل قصة قصيرة .

وعندما آتيت الى الجامعة كانت تسعى اليّ وتحييني وتقضي معاً بعض الوقت . كانت دائماً خائفة ، وبرغم عتابي لها ، لم تستسلم يوماً الى اليقين بأنني سأتزوّجها . ولقد جعلني خوفها على كل شيء من التحاشي المقصود ، لذلك لم نكن نظهر معاً إلا برفقة نوال أو بعض الزميلات .

وإذ ظهرت أول قصة قصيرة لي ملأت الدنيا فرحاً . كان يعتريني الشعور بأنني قدمت شيئاً أشبه بانتاج الأولاد . ولقد طلب مني رئيس تحرير الجريدة بسببها أن أكتب في الصفحة الأدبية ، قصة لها مكافأتها الخاصة . فلم أتردد . ولم يبق لي من الوقت ما يكفي لأن أسأل عن سرّ هذه الطفرة اللامعقولة

وأحلبها .

وبعد ظهور القصة الثانية في الجريدة ، جئت الى الجامعة وكان مساء . كانت سحب ونوال وزميل لنا في الصف ، طويل أجدع الانف يدعى « فائز » . دخلنا المقصف معاً فتناولنا « شاتوه » . ثم رقينا الدرج الى قاعة الموسيقى لنحضر ندوة اجتماعية تشرف عليها لجنة من مجلس اتحاد الطلاب .

ورأيت بدهشة بالغة التأثير سحب تتجه الى البيانو ، وتجلس اليه فتضع قدمها على نابه الأيمن ، ثم تبدأ أصابعها الطويلة ببعض الموسيقى الكلاسيكية . اقتربت منها مأخوذاً بالمفاجأة والموسيقى حتى قاربت طرف البيانو المتقعر . فوضعت كتي ، وأصغيت بانتباه عميق . سحب تلعب بيانو !! إنه أروع من أن يُصدق ! إن عندها فيما يبدو أشياء كثيرة وكلها رائعة .

طفقت تنقل أصابعها وتتفقد المفاتيح ، ورحت أتفقّد هذه الأصابع الغالية بنظرة وابتسامة وانفعال ، وشرعت أتمثلها في كل خطوة وكل حديث ، وهي تتجول في بيتي فتملأ الدنيا رقصاً من عينها ، وسحراً من ابتسامها ، وحيوية من حركاتها . وأنها العزف فصفقنا لها بشدة ، وتأملتها بإمعان .

تحوّلنا نناقش موضوع الحجل في علاقات الجامعيين فعرفه فائز نفسياً ، ثم قالت سحب إنه ليس غريزة .
وفتح قولها الباب للجميع فتسلّلنا الى النقاش . سأل بعض الحاضرين :

— ليس غريزة .. كيف ؟

فأجابت : — لا ليس غريزة .. لولا الرقابة الاجتماعية والحظر الديني ، وقد دأباً منذ بدء الخليقة على تعقيد طبائعنا ، لما كان هناك خجل ، وإذا كان قد أصبح غريزة بفعل الزمن ، فهو ليس بالفطرة .

وفسرت نوال : — لا أعتقد أنني أخجل لأن شيئاً في غريزتي يخجل ، بل ببساطة لأن الموضوع المحجل شيء يخجل منه المجتمع لا أنا .

سأل أحد الحاضرين بحفيظة ملحوظة :

— وهل المجتمع والدين يا آنسة شيء وأنت شيء آخر ! ؟

قلت : — إن المجتمع والدين لا شيء . الشيء الوحيد هو أنا : عني تنبع المثل العليا ، وبالنسبة لي تقدّر قيم الأشياء .
سأل آخر هادئاً :

— عفواً .. هل تستطيع أن تتفصل عن المجتمع بهذا الشكل ؟ .

فأجبت :

— الانفصال عن المجتمع ليس معجزة ، ولا شيئاً خارقاً . إنه لا بد لكل من يملك مخاً ومخيخاً وبصلة سياسية أن ينفصل عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه عقلياً ، وروحياً ، وينقلب ضد كل شيء . ولست أعني بالانفصال الانقطاع السلبي ، بل الوجه الثاني لمحاولة التغيير .

سأل ذو الحفيظة وهو ما يزال على حفيظته :
- وماذا يفعل الدين ، أعني ما الفائدة منه في مثل هذه
الأحوال ؟ .

فقرّرت سحب :

- الدين موضة قديمة . ألا تعترف بأن مجتمعنا في منتهى
الحاجة للتغيير ، وأن الدين لا يهيئ له ؟ . الشيء نفسه بالنسبة
للخجل ، المرء لا يخجل الا بمقدار ما يستسلم لظروفه ويركن
لمرتسات مجتمعه .

أعلن المتكلم الثاني فجأة :

- أشهد أنكما انقلابان خطيران ، وأعتقد أن مجرد المجاهرة
برأيكما يثير الرأي العام .

فقلت بحمّة : - إن الرأي العام يشور لأن إيمانه جزء من
شخصيته ، ولو فهم أنه فوق مستوى العقائد ، وبالتالي انفصل
بهذه الشخصية من الذوبان في أية فكرة ، فسيقف على أدوائه ،
ومن ثم يعالجها .

ونددت سحب :

- إن الرأي العام عندنا يؤمن إيماناً قطيعياً بقيم ومعايير
وجدت لمجتمع سابق ، ولا يعرف لماذا يؤمن بها . ولذلك عندما
تهاجم إيمانه يشعر بأنك تهاجمه شخصياً .

واعترض المتحدث الأول وهو لا يزال على حفيظته :

- هناك دين يا آنسة وإلّله . ألا تشعرين بأنك خلقة قدرة

ما وأنتك لم توجدي اتفاقاً ! ؟

— كلا .

ندت عن الحاضرين دمدمة سريعة ، وتعالى لغتهم ،
فأسرعت الى القول :

— لا تفترض حلاً ميتافيزائياً . هذه مشكلة لا تعرف حلها .
ليس من الضروري أن تعرف سرّ خلق الإنسان .. الضروري
أن تعرفه هو : أن هناك زوجات تجلط رقابهن ، وأمّهات يشلّهن
الروماتيزم ثلاث سنوات ، وشباباً يبصقون دماً وهم في السابعة
عشرة ، ورجال دين لا يمكنهم الزواج ، إنهم عقيمون ما عادوا
يصلحون للحياة . المهم أن تعرف أن في العالم أحراراً يحاكمون
وشعوباً تذلل ، وفي الجزائر أبطالاً لا زالوا يموتون باسم الحرية .
أليس من حقارة القرن العشرين أن يوجد فيه حتى الآن بعض من
يموتون من أجل الحرية ؟ .

ردّد المتكلم التالي ذاهلاً :

— حقارة !! الموت من أجل الحرية حقارة ؟ .

ففسّرت نوال :

— يعني أن البشر لم يتعودوا حتى الآن على الحرية ، بينما
تعوّدوا على أربع زوجات ، وملاءة سوداء تصبغ الدنيا أمام
المرأة بلون قاتم ، لا تراه أبيض الا عندما ينحصر في جدران
أربعة .

أعلن المتحدث الأول بترفع :

— اذا كنتم ستواظبون على إهانة الدين هكذا فالأمر لا يحتمل . يجب على الأقل أن تراعوا بعض التهذيب في حديثكم عن عقائد سماوية ..

كان كلام المتحدث بعد هذه الفقرات غاضباً وبذيئاً ، فنهضت إليه ، ونهض هو الآخر فتماسكنا استعداداً للضرب . وهرع إلينا الحاضرون ففرقوا بيننا . قلت :

— لا أعتقد أنك تدافع عن الدين بهذه الطريقة . إن الدين الحقيقي ما لبى حاجات الناس ، لا ما منعهم عنها .

انفردت الحلقة مباشرة ، وخرجنا من القاعة : سحاب تمسح صدغها ، والزميل يمشط شعره ، ونوال تصلح من شأن ثورتها ، وأنا أشد بنطالي الى الأعلى ، وكلنا نبسم .

التقينا بواحة فسارت معنا . وبعد قليل انتهيت الى أن انفصلت بسحاب ونوال ، وانفصل فائز بواحة .

كان رأسي يطنّ ، وعندما جلسنا حول طاولة في البوفيه ، تسلم الحديث فائز . لم أتابعه ، خاصة أنه كان مملاً ، بل ولم ألتبه الا الى واحة تكحّ بسعال جارح . صرخت بها : «واحة ابصقي!» وتنبّهت الى مجانبة صراخي وطلبي للأدب ، فاعتذرت ثم أضفت :

— يجب ان تستشيرى طبيباً يا واحة .. استشيريه فلن تخسري شيئاً .

طلبت سحاب دفتر الشعر مني ، لتأخذ عنه بعض الأمالي

ثم تناولته بنفسها من بين كتي .

بعد قليل لم يكن ثمة ما يبرر بقاءنا ، فانطلقنا حتى مدخل
الجامعة . وهناك سارت الفتيات معاً ، وسرت مع فائز .
وعرفت منه أنه يحبّ واحدة ، وأنه أكثر من ذلك ، مدرك
حي لسحاب .

سألته عن رأيه فيها فلم يجب . وأثارني صمته فألححت بالسؤال ،
لكنه لم يتكلم ، وشعرت من إلحاحي بشيء من الحفض ، فامتنعت
بدوري عن الكلام . ترى ماذا يؤدّ أن يقوله لي ويمتنع ؟ .



٧

ودعت فائز وقصدت مبنى الجريدة فبقيت حتى الثانية صباحاً . وبعد إرهاق شديد عدت الى غرفتي ، فوجدتها مرتبة ومنظفة بصورة لا يمكن أن تفعلها سوى ثريا . ابتسمت مغتبطاً ، وانطرحت على السرير .

استيقظت في التاسعة ، فأسرعت انسخ القصة القصيرة وأرسلها في البريد ، ثم اتخذت طريقي الى الجامعة . وهناك رقيت الدرج الى المنتدى ، فرأيت واحدة جالسة بجانب طاولة ، منزوية في الركن الغربي منه . « إن واحدة فتاة دافئة » خطر لي أن أفكر فجأة ، وجلست على كرسي ثان وحيتها ، فابتسمت وسألتني للتو :

– أسمع الأذان ؟. هذا أذان من الجامعة .. لماذا لا يبنون
لنا كنيسة صغيرة هنا أسوة بكم ؟.
قلت مازحاً :

– الدين المسيحي انتهى، فقد نسخه الإسلام، وينبغي أن
تصلّوا بعد اليوم بالركوع والسجود وبعض السور .
فنبرت منفرزة : – يا عيني ، نسخه ! صلاتنا أحسن .. فنحن
نجلس فنستمع للصلاة : باسم الآب والابن والروح القدس ، إله
واحد آمين .

قلت مازحاً ايضاً :

– يا له من إله واحد . في صلاتنا رياضة تفتقرون لها ، لهذا
تجدن أمة الاسلام أقوى عضلياً من الأمة المسيحية .
ضحكت بصفاء : – اسم الله .. طالب جامعي ويقول أمة
إسلامية وأمة مسيحية . شعوب مسيحية يا أستاذ .. شعوب .
فاعترضت : – اذا كانت هناك شعوب مسيحية ، لا بأس
فيهم متفرقون ، لكن عندنا نحن أمة إسلامية .

صاحت : – اي .. لأجل يسوع اصمت ، لا تتكلم حرفاً ثانياً .
ضحكنا معاً ، ونظرنا الى النافذة . كان الأذان قد انتهى
وأخذنا ندرس ما يقرب من نصف ساعة .

شعرت أنني متعب مكدود ، فتراخيت على الكرسي ،
وأخذت أتمطى . تفحّصتني واحة بفضول فابتسمت ، والتقت
أعيننا برهة وحدثت في عينيها ملياً ، فقد كانت تلك أول مرة

أكتشف أنهما جدّ حلوتين .

قلت لها : - أنا اعرفك منذ سبع سنوات .

فاستغربت . وأضفت :

- كنت ألاحقك في الشوارع .

ضحكت وهزت رأسها . ثم سألت :

- لماذا لا تشتغل في الصيف ؟.

فقلت مازحاً :

-- افرضي أنني اشتغلت مع الوالد المحترم في الكنيسة ، وكنت

أنت مسؤولة عن الشؤون المالية ، فكم تعطيني في الشهر ؟

ضحكت : - إن اشتغلت جيداً .. مثتين ، وإلا مئة

وخمسين .

كان شعرها الشفقي يتجمّع ساحراً في تسريحة خلافة .

قلت لها فجأة وبلهجة جادة :

- واحة ، معي بطاقة ثنائية لحفلة تنكرية راقصة ، فهل

تذهبين معي ؟.

فنبرت مغضبة : - يا إلهي كم تحلم !. كأنك تعيش في الحيّ

اللاتيني .. أنت تعرف أن أبي لا يقبل أن أمشي مع مسلم

خطوة واحدة .

قلت لها :

- أتعرفين أنني أحترم أباك كثيراً ، أعتقد أنه يحبك ، وأنا

أحترم كل من يحب ابناءه ، خاصة اذا كانوا صغاراً مثلك .

فضحكت ضحكة مهزومة :

— لا بأس ، سوف أردّها لك في المستقبل . والآن لندرس .
تقيّدنا بالدرس نصف ساعة أخرى ، أقبل بعدهما فائز
فجلس معنا .

— الآنسة واحة ، تعبانة من الدرس .

وضحك لوحده . ثم آثر الصمت ففتح كتابه .

تمطّيت ثانية ، وتحمّحت ، ثم أطرقت متوقّعا أن تعلق واحة
ببعض التقريع على تصرّفي . ولم ينتظر فائز بل سألها :
— سندهين الى اللاذقية في العطلة ؟ .

فردّت أن أجل . وغز بعينيّه وسألها ثانية :

— ماذا ستحضرين لنا معك ، شيئا من منتجات اللاذقية
مثلا ؟ .

فتطلّعت اليه جادة : — كنافة ؟ . ماذا تريد ؟ .

وتضايقت من سؤاله فقلت : — احضري له جينة مسنرة .

فضحكت : — ما أكثر ما تتكلم .. وماذا تريد أنت ؟ .

وبعد أن تقلّصت ابتسامتي رفعت أصابعي بشرود وقلت :

— احضري نفسك سالمة . فلست أريد شيئا . خذي

دراسة « حدّ موسى » لموم وأرجعها لي عندما تنتهين منها .

وفيا تناولت الدفتر قالت لفائز :

— هكذا يتكلمون .. ليس مثلك .

مرّت نصف ساعة أخرى قرأت واحة الدراسة خلالها ،

ثم اقترحت أن أرسلها مترجمة لمجلة عربية .
وشعرت أن فائز تضايق ، فاستأذنت منها وذهبت .
تجولت في النادي قليلاً ، وعندما هممت بالخروج منه رأيت
واحة تسير خارج الجامعة . وأقبل فائز فاصطحبني من جديد .
رفعت عيني الى جبهته وقلت :

— أترى .. إنها تحضك على مغازلتها . قل لها كلاماً لطيفاً
فهي رقيقة الشعور .

أجاب وهو يتحاشى أن ينظر إليّ :

— لا .. فهذا يضعف من شخصيتي عندها .

ثم غيّر الموضوع بأن لكرني بيدي وقال :

— هل ستشارك بالرحلة للإقليم الجنوبي؟ .. لقد اشتركت سحاب .

وشعرت أن فائز يخزني بكلامه ، فقطعت عليه الطريق :

— إنني أعرف ، فقد أخبرتني بذلك .. لتذهب ، فليس

في الأمر حرج ... يجب أن نحرّر عواطفنا من الوهم .

فكرت لحظة وسألته : — لماذا لم تقل لي رأيك بسحاب ؟

لكنه استمر صامتاً ، ولم يرد عليّ بشيء . فصحت به غاضباً :

— فائز ، انزع عن وجهك هذا القناع الصفيق السخيف ..

قل لي ما رأيك ؟

فأجاب بهدوء : — طول بالك .. طبيعتي أنني لا أتدخل

في أحوال غيري . ماذا همك رأيي ؟

قلت له بإصرار : — أنا اعرف أنك مثل غيرك .. ولا تظن

أن رأيك يهمني في كثير أو قليل .

فأطلق ضحكة متودّدة وقال :

— يخرب بيتك ، كم تشور بسرعة ! لماذا تظن أنني أعرف شيئاً؟
افرض أنني أريد نرفزتكَ . هناك أقوال كثيرة ولا يمكن أن
يصنع لها دائماً .

طلبت بإصرار أقوى : — قل لي ما رأيك .. كفاك تحنّناً .
ما رأيك ؟ .

وارتدى وجهه قيصاً جدياً فصمت لحظة وقال :

— ليس هناك شيء ، تأكد .. ولكن سحاب لا تناسبك ..
أنت من الريف وهي من المدينة .. وهي من دمشق ، ليس فقط
من المدينة .. أنتم تختلفان .. هل جرّبت النساء بعد ؟ . تصور
كيف ستجتمع بها .

حدّقت به برهة ثم شرحت له :

— فائز ، اذهب فانتحر فوراً . الجبناء مثلك يسألون
هذا السؤال .

فندّت عنه قهقهة عالية وصاح :

— يخرب بيتك .. حكمت عليّ بالإعدام .. اسمع ، دعنا من
سحاب ، قل لي فأنت من اللادقية ، هل تعرف عن واحة شيئاً ؟
إني أدرس معها ، ولكننا لا نتعرّض لشيء . فأنا لست انتهازياً
للقرص مثلك لأغازها . قل لي هل يمكن أن أحدثها بصراحة ؟ .

نهزت به : — يخرب بينك .. انتم المسيحيين آباء التحرر ،
وتأتي فتسألني هذا السؤال؟ أنا أقول ما تريد .. إذا كنت تقبل .
فطوق فائز كتفي بيده وقال :

— لا ليس الآن .. فيما بعد . لتتعرّف أكثر . إني أريدها
جدياً ، ولكنها تبدو شيئاً ما مترقعة . أليس كذلك ؟
فأجبت منتهراً أيضاً : — لا ، لا تبرّر لنفسك ، إنك لا تجرؤ على
أن تكلمها .

وودعته وتوجهت الى الجريدة .



٨

بعد بضعة أيام ذهبت الى المكتبة . كان الوقت صباحاً
والجو مليئاً بغيوم رمادية خفيفة . ومن بين الموجودين العشرين
فيها كانت سحاب ونوال ، فقصدت طاولتها وجلست على
كرسي قريب .

نادتني سحاب فأقبلت نحوها مشوقاً . ولما وصلت فتحت
دفترتي على صفحته الأخيرة وأخذت تسألني بعض الكلمات التي
لم تستطع قراءتها . وقد مهدت لي أسئلتها الطريق لأن أطلب
منها ومن نوال أن ترافقاني الى المقصف ، فوافقتا ، وخرجنا
من المكتبة .

كنت مكدوداً من عملي بالجريدة فلم أشأ أن أتكلم ،

وتركت لهما الحديث . كان جلّ كلامهما عن الطعام وبعض
المأكولات الغربية ، ثم انتقلنا للنوادي والرقص والحفلات .
تذكرت البطاقة التي معي ، فأعلنت لنوال رغبتني في أن
ترافقني للحفلة . كنت أعلم أن في رغبتني هذه تجنياً ، ومع ذلك
فقد أبديتها . واعتذرت نوال بأنها ستذهب مع أخيها ،
وأشارت لسحاب أن ترافقني . وردّت سحاب بهدوء :
« سأذهب مع بابا » .

كنت أعلم أيضاً أنها لن تذهب معي ، وفي هذه المرة لم أطلب
منها بل اكتفيت بالابتسام . وكأنما أدركت حرج رفضها ، فأشارت
أن أدعو حسناء . وكان لا بدّ لي من أن أتذكر أن لحسناء هي
الأخرى ، أخوين وأباً وأماً وأخوات .

سحبت البطاقة من جيبي فزقتها ، وسرت صامتاً .
عابتني نوال :

— كان بوسعك أن تذهب مع كثيرات .

وسألت سحاب : — لماذا مزقتها ؟

فأجبتها أن لم يحن بعد الوقت الذي أحضر فيه هذه
الحفلات :

— سأحضرها كصحفي ، إذا استطعت ، بلا نساء .

جلسنا حول طاولتنا المعتادة فأحضرت « شاتوه » وأخذنا
نتحدّث بوجوم . شعرت أنني تصرفت أبعد مما ينبغي وأني
خلقت بتصرفي جوّاً مقبضاً ، فتحيت فرصة أبدد فيها هذا

التكاثف الثقيل . وحين شكرتني نوال للشاتوه ، قلت :

— أنا من ينبغي أن اشكركما .

فابتسمت بعدوبة وسألت : « لماذا ؟ » فأجبته موزعاً نظرتي

بينها وبين سحاب :

— ألا ترين أنني سعيد بالجلوس مع أجمل فتاتين ؟ .

فابتسمت سحاب ، بينما تابعت نوال :

— هذه بجمالة .

فقلت وقد دبّ بي بعض النشاط :

— اذا اعتبرت ديواناً من الشعر يثيره وجودكما بجمالة ،

فأنت تظلمين العاطفة .

فسألت وهي ما زالت تبتسم :

— ماذا اسميه اذاً ؟ .

— تجلياً .

كانت سحاب تبتسم مطرقة فتعبؤني بتحسّس عاطفي .

ورفعت اليها يميني وقلت :

— سحاب .. أنا أعمل الآن مجدّ .. أعتقد أن دخلي الشهري

سينبلغ عدا راتبي في الجامعة خمسمئة ليرة . أي أننا نستطيع أن

نخطب في الصيف وننزّوج في الخريف ، فما رأيك ؟ . إني

لا أعرف بيتك حتى الآن ، ولا أحداً من اهلك ، وأنت كذلك .

لكن هذا لا يهمّ . أنت تعرفين أنني أريدك بإخلاص ، وهذا يكفي .

إن حيي لك من القوة بحيث يمنعني من التفهم العملي لطبيعتك ،

وهذا أيضا لا يهم ، فأنا أريدك ولو كنّا طرفي نقيض . أما بالنسبة لك فأرجوك ان تجدي بي في المستقبل شيئا تحببته . أعلم أنني أبعدو مراحقاً في علاقتي بك ، ولكنني أملك ثقة كبرى بنفسي ، بل وأعترّ أنني أحبّك حبّ مراهقين ، وأنت في الواقع أول حبّ حقيقي لي ، نأ بالاحتكاك ، والتجربة الحياتية ، فهذا الحب سيدوم ، ولا أعتقد أنك تحتاجين لشيء قدر احتياجاك لإنسان يحبك .

كانت تمسك بطرف الطاولة ، وقد سرحت على وجهها ظلال تأثر عفيف ، ففتحت فيها قليلا وتمتمت :

-إني لازلت خائفة.. إن علاقتنا غير طبيعية، ووجه المنطق فيها ليس على ما يرام .. ارجو ألا أخرج شعورك بكلامي ، ولكننا يجب أن نبقي أصدقاء فقط . إن الناس مليئون باستعداد ضخم ليتقيأوا مبادئ التحرر الفكري والاجتماعي بسرعة مذهلة ، وهم ينهشون ببراعة سمعي ، فيتهمونني ويقضون عليّ . إن أكثرهم تحرراً ينتكس أمام أول تجربة تحرر يمرّ بها . وأنا لا أستطيع أن أعيش كما يعيشون . اعرف عني هذه الناحية منذ الآن . أنا لست متحررة فقط بل متحللة ، متحللة بعرفهم طبعاً . اذا تزوجنا ، فلا يمكن مثلاً أن أخلص لك بدافع الواجب ، ولا أقبل بك مصلياً او صائماً ، او ذاكرأ الله في كثير أو قليل .. ما علينا .. الآن يجب أن نظلّ أصدقاء .. لا أكثر . ولا تقل لأحد أيّ شيء تبغيه .

— إني أشرب كل حرف تفوّهت به .. وأعبده . سوف تبقى
كما تريدن ولن أطالبك حتى بمشوار ..

كلماتها الهادئة الرصينة تسلّت بعمق وروعة من فمها الى
صدري ، جعلتني أؤمن بأن شيئاً ما في هذا العالم لن
يمنعني عنها .

ونفضنا من مجلسنا ندور حول الحديقة . كان القطار ينساب
فوق القضبان ، ولكن بلا صفير .

وبعد قليل ودّعتهما وأنطلقت الى مبنى الجريدة .



في الثانية صباحاً ، تركت العمل وعدت الى غرفتي ،
 فاستلقيت مجدداً . وعند العاشرة استيقظت ، ولما حاولت
 النهوض ، شعرت بجبهتي تنحز ، كأنما تمزقها مديّة رهيقة .
 انقلبت على الفراش برهة ، ثم حاولت النهوض ثانية ، فدوّمت
 الغرفة في ناظري . وشعرت بأن شيئاً ما أشبه بمسحّ البيض ،
 انفصل داخل رأسي عن عظامه ويتقلقل بثقل عظيم .
 أدركت أنني مصاب بالحمى ، وأنه إن كان لا بدّ لي من النهوض
 فقليلاً قليلاً . شربت كوباً من الماء وعدت أتقلب فوق السرير .
 وأحسست أن ريقِي جاف ، وأن قوتي توشك أن تخور .
 بعد ساعة اخذت أنأ ، وكلما انقضى بعض من الوقت كنت

أحسن باندفاع حاد يرق كمزراق من رأسي حتى نحري .
كانت عيناى متراحتين عندما نقر الباب نقرأ خفياً فنهضت
متثاقلاً وفتحته . ولما رأيت ثرى أمامى استحيت من أنى لا أزال
بالنامة ، اما هى فدخلت تتفحصنى باستغراب :

— مريض ؟ . يا إلهى .. كم مضى عليك وأنت مريض ؟ . هل
أخذت اسبرين ؟ . هل شربت شاياً ؟ .. ارجع الى السرير واسترح ..
سأصنع لك الشاي .. يا الله ، يا الله .. استلق على التخت .
يا إلهى كيف يجلس وحده .

أسرعت ثرى تهتّب الشاي ، ثم تغسل الأكواب ، فتنتقل فى
الغرفة مرات لا تحصى . وبعد قليل سحبت كرسيّاً حتى السرير
وجلست عليه ، ومدّت يدها فوضعتها على جبهتى . أغمضت
عيني أغالب مزيج الإحساس بالمرض ونشوة الدفء فى يدها ،
كانت حرارتها الحفّية منفصلة التأثير عن ارتفاع حرارة
رأسى . تناولت يدي ما يقرب النصف دقيقة ، ثم أمسكت
أصابع قدمى ، وعلنت :

— لا بأس .. لا بأس .. الآن ستشرب الشاي ويزول
المرض .

قلت لثرى إنها يجب أن تبتعد ، فقد خشيت أن أكون مصاباً
بالأنفلونزا ، وأفهمتها أنها ستصاب بها مثلى . لكنها لم تصغ لى ،
ولم تتكلم ، بل استمرّت تتلمّس أطرافى ورأسى . ثم نهضت
فتفقدت الشاي ، وأطفأت النار . وبعد قليل أحضرت لى

كوباً ينفض أبخرة حلوة الثني ، وهرعت الى حافظتها فتناولت
بضع حبات من الاسبرين وضعتها على ناصية السرير .

- لا تتكلم حرفاً واحداً . اشرب وارتح ، ونم اذا
استطعت .. تغطّ باللحاف جيداً ، لتتفرّق وتزول السخونة .
ابتسمت متعباً وتتمت :

- ثريا .. سأذهب بعد أيام الى اللاذقية ، فماذا تريد ان
أجلب لك معي ؟ .

أجابت ببشاشة طليقة : - لا شيء ، سلّم على أمك كثيراً ،
وأهلك . اسرح ولا تتكلم .

فألحفت أنه يجب أن أحضر لها شيئاً ، لكنها رددت بسرعة :
لا ، لا ، لا أريد شيئاً .. فقط سلّم على أمك .

وخيل لي أن في صوتها غصّة فالتفتت نحوها بتساؤل ، ولكني
لم اكتشف شيئاً فقد تحولت تتشاغل بترتيب الطاولة .

وأغمضت عيني متعباً ، فأسرعت تلفني باللحاف . وبعد
قليل تميّعت الرؤى والتصورات في ذهني فانكرت جيداً ونمت .

عندما استيقظت فتحت عيني على ثريا جالسة بجانبني ، وبين
يدها مجلة أسبوعية . أسرعت تغطيني بإحكام ، وتتمت بعض
الجل . لم أفهم منها شيئاً ولكني حدثت أنها تأمرني بالاستمرار
لأزداد تعرقاً .

لم أستطع أن أبقى تحت اللحاف كثيراً ، فرميته عني ،
ثم عدت فتغطيت به حتى رقبتني خوفاً من احتجاجها . تلتفتت

نحوي مبتسمة ، وتأملتُها بدوري : إنها دائماً رائعة . قلت لها :
— ثريا ، عندما يأتيك ولد هل ستعتنين به أكثر مني ؟ .

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وبهجة . قالت :

— لا أريد أن أرزق بأولاد منه .. لا بأس ، إذا جاءني صبي ،
سأسميه بشر .

أغضت عيني بعبور صميم وسألت ، إن كانت ستجبه فيما
لو جاءها قبيحاً مثلي . فضحكت ، وصبت لي كوباً آخر من
الشاي ، وناولتني معه حبة اسبرين .

بقيت ثريا حتى الظهر ، ولم تكن تتحرك عن الكرسي ،
إلا لكي تحضر لي مجلة أو كوب ماء ، أو تتلمس أطرافي . وفي
الثانية عشرة والنصف أمرتها بالذهاب ، فنهضت بدون اعتراض
ومدّت لي يدها .

أمسكتها بيدي ، ورحت أقبلها ببطء قبلاً طويلة ، ثم غمرت
بها وجهي ، وأغضت عيني متعباً . هذه الأصابع التي تغسل
التياب وتجلو الصحون لا تزال ناعمة طرية لدنة ، لا تزال تثير
الشفقة والشعور ، وتوحي بأن صاحبها امرأة ، وأخيراً سحبت
ثريا يدها خجلى دامعة ، ثم تحولت بحفاظتها فحملتها وخرجت .
مكثت في الفراش حتى العصر . كانت الحمى قد زالت ،
لكن رأسي بقي مثقلاً . ولبست ثيابي ومضيت الى الجامعة .

كان الجو غائماً والضوء المنتشر في الفضاء ظليلاً ، يوحي
بكآبة عميقة . مثل هذا الجو تحبه سحب حباً قوياً .

تسرّب إليّ شعور بالشوة وعدم الاكتراث ، وتقدّمت الى الحديقة ، فجلست على أحد مقاعدها .

بعد قليل أقبل دريد وصالح فجلسا يجاني دون كلام . وتضايقت لذلك فقلت لهما :

— ماذا ؟.. هل أصبنا بالحمى ايضاً ؟.. ماذا جرى لعيداء ، دريد .. هل تحدّثت اليها من جديد ؟

أنزل دريد حنكه ، ورفع شفته السفلى ، ثم نقر برجله على الأرض . حدقت به كالعادة لأستحثّه على الكلام ، فنشم وقال :

— لم أجلس معها مرة وتصرفت كما فعلت هذا الصباح معه . جلسا على المقعد ساعة كاملة ، وأنا أراقبهما ، ولم تنقطع عن الابتسام . وكانت دائماً تنظر اليه ، وتبتسم ، وتضحك وتستفسر . ماذا كان يحدثها ؟ لست أدري . إني أحدثها كثيراً ، وأعتقد أن أحاديثي طريّة ، الأدب ، وأسطورة الجنوب عند وليم فولكنر ، ومدارس النقد الحديثة ، برادلي وغيره . موضوعات تستطيع بواسطتها أن تتفهّم طبيعة محدّثك ، ودوافعه . كانت تسمع لكنها لم تكن تبتسم ، ولا تتكلم ، وتوافق على كل ما أقوله . فكّنا ، تلك هي طبيعتهن : لن يفهمنا أبداً ، لو سكنت في فيلا فسيبقى ذهنها في الحرم لك .

ازداد صداع رأسي فطلبت منه أن يصمت .

— تلك هي أحسن طريقة .. الصمت .

هز صالح رأسه وهو يتأمل شجرة عارية . كنت أعلم أنه

يشعر ، بضالة عميقة . لقد قضى صالح في سجون الجنوب شهوراً
متعدّدة ، كنا ننظف المراحيض ، ونحرم من طعام تقبله
النفوس .. استلقيت على المقعد وأغضت عيني . ونفخ صالح
بقوة :

— الكآبة تقتل أعصابي .. سأشرب بيرة .. او نبيذاً ،
لعله يطفئ التهاب صدغي . لا يأت أحد منكم .
وذهب دون وداع .

— أنا متأكد أنه لن يشرب بيرة ، ولا نبيذاً ، بل سيتجول
في الشوارع حتى ينهك ويعود الى غرفته .
فتح دريد رجله وتفتّ بضع مرات : الحياة لا تطاق في كل
مكان . عندما يبحث المرء بكل تشوّقه ونجته عن فتاة ، فإنه
في الواقع يبحث عن انعكاس نفسه في صورة أنثى . عندما تقول
لفتاة بيتاً من الشعر يملأ دماغك ، فيعجبها ، تجد أنك إنسان
حقاً . المشكلة أنه ليس هناك أبيات من الشعر ، وليس هناك
من يسمعها .

كذت أفكر في سحاب .

استرخى دريد على المقعد ، وغطّى عينيه بأصابعه ، ثم طفق
ينشم ويتف ، وأخيراً سكن . قلت له :

— أعتقد أنني سعيد هذه الأيام ، دريد .. إنني أتعب كثيراً ،
ويرهقني العمل .. وأنا سعيد لذلك : سوف ترى في المستقبل
أية زوجة سأزوج ، أية روعة ، وأية ألوهية ، فتاة يتمجد في فهمها

البعث ، وتمحي من وجودها العقد وعفونات التاريخ .
كانت أصابعه لا تزال فوق عينيه . وبينما جعلت أنظر الى
السما وأبتسم ، أخذ يعصر جبهته ويقول :

— أعتقد أن علاقتك بها طفرة . وما ينقصني حتى أخلق
هذه الطفرة ، إنني أو من بالاحتمالات ، وأحسب حسابها . إني
كثير التفكير ، كثير التحليل . تبسم فتاة لشاب ساعة كاملة :
معنى هذا أنها تحبه ، ومعنى هذا أنها لا تحبني .

مطّ دريد شفتيه للأمام ، وأصابعه لا تزال تعصر جبهته :
« معنى هذا أنها تحبه .. »

واستغرقته تأملة سكونية كسلى ، وطفحت على وجهه سحبات
شعورية كثيفة ، ثم تقدم نحو النافذة فالتصق بجفافها ، وبعد قليل
عاد فأمسك ديوان « أبي القاسم الشابي » ، وراح يقرأ لنفسه .
— قم بنا دريد ، يجب ان أذهب الى الجريدة .



الفصل الرابع

من جديد أعود إلى اللاذقية ، مدينة ما عرفت فيها غير الألم ،
وفقدان الحب ، ولا يزال فيهما مع ذلك ، شيء من عاطفتي
وكثير من الذكريات . لقد عشت فيها وحيد النفس والحياة .
وتعلمت بين شوارعها على مشاريع المستقبل وأفانين الطموح .
الحديقة العامة ها هنا ، ونسيم البحر الرطب لا يزال يخضل
بالرذاذ السابح كالأحلام . هنا كنت أجلس ، كما أجلس الآن ،
أنبش من بين غيوب المستقبل ما أحبه ، وأودّه من الحياة .
وها أنذا أجلس على هذه الصخرة وحيداً ، لا أزال أنبش ،
ولكن ذكرياتي طرية الملمس والوقع ، وابتسامات كنت
أورّعها على الموج الصاحب شغفاً ، وانتظاراً لمستقبل ، كأن

أيام الحرمان عزائي الوحيد. هذه الأزهار الجرداء، والشجيرات الغضة، والصخور الخرسنة تعرف كل شيء مما حدث بيننا .

تركت الحديقة الى حانوت أخي إبراهيم . كان المارة على عاداتهم، يسرون بجمول وبطء، كأنهم يتوقعون شيئاً، يعرفون أنه لن يكون . وهم مع ذلك، يسرون وكأن هم الدنيا كله على قلوبهم، وكأن مسؤولية لا تطاق قد أنيطت بهم، لا يريدون التخلص منها .

لم يكن الشارع يحوي أياً من المفارقات، ولقد رحت أتأمل أصحاب الحوانيت والمحازن بإمعان، لعلني أكتشف بعد غياب سنة ونصف عنهم تغييراً ما، أو شيئاً جديداً . لكنه لم يكن غريباً عندما دخلت حانوت أخي أن كان الانقباض يغضن جبتي، ذلك لأنني لم أجد علامة تستحق الذكر، او منظراً مشيراً للانتباه .

دخل إبراهيم فلم يحيتني، واتجه الى الطاولة يفصل رزم الأقمشة المتكومة عليها . لقد استقبلني أمس بفتور شديد . كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه باردة بطيئة مكرهة، مصحوبة بنظرة شاردة، لم تستقر على وجهي ابداً . وفيما عدا ذلك فقد استمر يقرأ الآيات التي حفظها من القرآن منذ ثلاثين عاما .

ولا بدّ من الاعتراف بأن غيظاً عميقاً طفا في صدري . لقد كنت أختلف وإبراهيم كثيراً فيما مضى، لكنه لم يستقبلني قط

بمثل هذا الجفاء . وزاد في حنقي أنه ، حتى تلك اللحظة ،
لا مبرّر له .

نهضت عن الكرسي وخرجت من الحانوت دون أن أتكلّم .
ولكنني وقفت ، فقد تكلم إبراهيم :
— لا تعد ثانية الى الحانوت .

شعرت بما يشبه الصدمة من كلماته ، فأخذت أنأمله
باستغراب ثم تابعت مسيري صامتاً . الطريق ينفّس أمامي عن
رؤى رمادية كثيبة ، والعمارات تنتصب أمامي صلعاء في صمت
الأبد وتهوية البقاء .

على بعد بضع خطوات وقفت على إفريز الشارع صبية حلوة السيّء ،
وتثاءب الى جانبها بيت « منيرة » ، في ملل . نظرت الصبية
الي ، وأدارت ظهرها ، وسارت بضع خطوات ، ثم التفتت .
كانت عيناوي متعبتين ، فعزّ عليّ تمييزها . لكنها تقدّمت نحوي
وقد انفرجت شفّتها الثرثان عن سحر وفتنة وشوق يقال لها
ابتسامة . إنها منيرة .

سرت اليها ذاهل اللبّ والخطي ، يتراقص في عيني سؤال لا
جواب له ، وتبدّد على شفّتي تكشيرة مرة .
كانت ابتساماتها تتسع ، وتتسع ، فتنتفح عن محار فضي ،
وعيناها تسبحان في تألّقة نديّة الشعاع .

صافحتها ، فابتسمت . وبينما أخذت تسألني أسئلة لا عدّها ،
رحت أراقبها ببسمة هازئة بالحياة .

— ألا تأتي فتزورنا ؟.

رفضت ببضع هزات من رأسي ، وبصري لا يزال عالقا
بصباح عينيها ، إنها لا تزالان ترشحان رقصاً وندادة .
— لا تزال عنيداً .

وابتسمت . كانت يدها لا تزال في يدي ، فرحت أتحسها
ببطء وذهول ، وأضبط أصابعها .

— أنت صامت على غير العادة ؟. أين كلامك العذب ؟.
تأملت صدرها المنبتق ، وذكرت الأمسيات التي كنت أضعه
فيها . يدها في يدي ذكرتني بوردة بين جناحي فراشة . لم
أستطع أن أصدق أنها تزوجت ، وبالرغم من أنني كنت أعلم أننا
سنفترق ، فلم أحسب لمرارة اللقاء الثاني حساباً ، وما فكرت
بأنني إن رأيته ثانية سيخفق قلبي بشيء غير الوجيب .

— أتذكرين كلامي ؟

فأغمضت عينيها في نشوة :

— أوه .. شد ما أذكره .. لقد كان يفنل رأسي ..

ابتسمت ، أنا الآخر ، وقد لعبت بي الذكرى :

— أتذكرين كيف كنا نتأمل بعضنا ، ونبسم في مرآة
الحزاة بيت أختي ، اذ يعج بالزائرين فيستحيل علينا أن نتبادل
النظر في وجودهم ؟.

ضحكت منيرة بصفاء وبرقت عيناها العسلتان :

— أجل إن الذكرى تفعم قلبي .

- وعندما كنت ترقصين وتدورين في غرفتي حتى تهكي ،
فترغمي على السرير ، وآتي اليك فأرفمك عليه جيداً ثم أقبلك ؟ .

هزّت رأسها بنشوة فائقة :

- ثم ثرت علي لأني ذهبت أدرس على حساب الدولة في
الجامعة ، ولم أذهب للكلية العسكرية فأتزوجك ضابطاً ،
وكانت النتيجة أنك تزوّجت تحدياً ..

أطرقت منيرة كسيرة الحاطر محزونة :

- لاتكن قاسياً .

تذكرت سلوك ابراهيم ، وشعرت يجهامة تتزحلق على

صدري .

- كلا .. أنا لا أحاول لومك ، لكنني أحاول أن أفهم .
كنت أعلم أننا لن نتزوج ، ولقد سلكت أنت طريقاً منطقياً
معقولاً ، غير أنني لا زلت أرى كل شيء غير مقبول . لقد أحببنا
بعضنا ، ولم يكن ثمة مبرر لأن نتزوجي غيري .. من يدري ؟ ..
هذه القضية برغم بعدها عن المنطق انتصرت . وأما الآن فكل
منا مرتبط بإنسان آخر .

كانت يدها لاتزال في يدي ، وقد أسلمت أصابعها في حنان ،
فشددت عليها بقوة وبطء . وأنا أعلم أنني أولها .

- بخاطرك .

وودّعتهما .

الجدران لا تزال تنتصب في صمت الأبد ، وتهوية البقاء ،

وعلى بعد قليل مني فتاة تحبني ، وكنت يوماً أحبها . وعجبت
كم تعبت بالقلوب الحياء ! . كان الهواء يتدافع فوق الأرصفة ،
كل شيء ، كما عهدته ، إلا منيرة فقد تزوجت !! . لقد كانت
تأمل أن تتزوجني ضابطاً ، وما أكثر ما شرحت لها أنني لأستطيع
التطبع بحياة الجيش ، وأن نظامه فوق مستوى فوضى الروح
التي تعيش بي .

لم أسر كثيراً حتى وصلت الى بيت خزامي . وطفقت تبكي
اذ رأتي ، وتنعت ابراهيم بصفات غاضبة :
- اذا كنت ستتركها لأجله ، فلا تتكلم معي .

عاد إليّ سلوك ابراهيم الغريب ، فعجبت . قلت لخزامي ،
إني أرى امامي مجرد ألغاز فرددت :
- سحاب . إنه يريدك أن تتركها لأنها مطلقة ، ويقول ،
لان سمعتها .. ليست طيبة .

مططت شفتي ونكست رأسي « هكذا اذا !! » وشعرت
بمحنق بدائي كبير . رويت لخزامي كيف تصرّف معي ابراهيم
باختصار . وضحكت ضحكة . شعرت أن برأسي فجوة .
ارتقيت الدرجات القليلة الى غرفة طفلها ، فرأيتَه يستند
على يديه ، ويتناهض من فراشه . فتح عينيه جيداً وتأملني .
- هالو ؟ ! .

- أجل خالو ، تعال عندي .

بعد قليل جاءت خزامي بالشاي وجلسنا نشرب . وراح

طفلها يشرب من فنجانينا ، ويتدحرج بحوية فائقة على الأرض .
ولما لم نجد شيئاً للحديث نهضت لأذهب الى بيت سليم .

لم يكن استقبالي ببيت سليم ، أبهج منه عند ابراهيم ، فقد
جری مسرف الحزن . استقبلتني بناته على السلم ، وتعلقن بي ،
فحملتهن على كتفي وظهري ، وبين يدي . وما ان وصلت حتى
بدأت شقيقة شكواها وبكاءها من تصرفات سليم وإفلاسه . وقد
أعلنت أخيراً أنها متأثران مني لأني خطبت فلم أخبر أحداً .
إن الحياة مع إخوتي لا تطاق .

قلت لها إني لم أخطب بعد ، وسأفعل ذلك في الصيف . فلم
يخف عني وأنا أحدثها ، أنها وسلم لا يحبذان هذه الخطبة .
وهكذا أخذت أداعب الصغيرات وأقبلهن ، وهن يتصايحن
حولي فرحات نشطات . وبعد أن انقطعت عن الحديث مع
شقيقة ، وقفت فتحية وسألت برزانة بالغة :

— ان انقطعت عن الحديث مع شقيقة ، وقفت فتحية
وسألت برزانة بالغة :

— عمو .. ستزوج واحدة مطلقة ، وعندها بنت ؟.

وأقبلت فايذة تسأل هي الأخرى :

— عمو .. حلوة عروستك .. حلوة ؟.

فانتهرتهما شقيقة ورحت أقبلهما .

— متى تذهب لرؤية أمك ؟

-- غداً .

استقبلتني ليلي عند المحطة بكثير من القبل والدموع ،
وأصرت أن تحمل عني حقيبتى . عندما سرنا معا ابتدأت تتعثر
في مشيتها .

أمعنت النظر اليها ، بثوبها الريفى البسيط وكندرتها
المطبعة ، والمنديل الأصفر الباهت على رأسها . وممت أن
أسألها عن حالها ، فامتنعت . إني أعرفه جيداً ؛ أما قدماها فقد
حفرها البرد بأخاديد كثيرة .

وصلنا الى البيت ، وتقدّمت من أمي مطروحة على السرير ،
تمدّ لي يدين مرتعشتين ، وهيكلاً عجز عن النهوض ، ووجهها
يترعّش فرحاً وابتساماً ، فعانقتها بحرارة . ضممتها الى صدري ،

فأغمضت في استسلام إغمائي ، وتراخت بين يدي قليلاً ،
ثم أسرع تشدّي إليها . وأخذت عظام يدها تتحسّس وجهي .
— اغسل يديك ، وتعال اجلس بجانبني .

انتقلت الى صحن الدار ، فأقبلت ليلى تصبّ لي الماء: عندما
تسلّم عليها لا تشد يديك .

تقرست بها ، فأدركت ما تعنيه ، وأطرقت أغالب شعوراً
بالإيلام .

— عندما أخذها للمرحاض ، لا أجرؤ على لمسها ، انما تستند
عليّ ، ومع ذلك تؤلمها عظامها .. يا إلهي ما هذا الروماتزم .
شرقت ليلى بالدمع ، فأخفت وجهها . ودخلت الى البيت ،
فجلست على طرف السرير . وأخذت أُمّي تتأملني بحنان
وبشاشة ، وتمتد يدها فتلمس يدي دون أن تتكلم . وكنت
أتوقع منها في كل لحظة أن تسألني عن سحاب .

وفجأة امتدت يدها الى ظهرها وقد تقعر بعنف سريع وتقبضت
عضلات وجهها ، فأغمضت عينيها ، ومطّت فيها ، ثم شرعت
تصرخ ، والحروف تتمزق بين أسنانها وتنسحق .

همت أن أمسكها فننعتني ليلى : « ستزيدها ألماً » ،
واستدارت تتشاغل بإيقاد المدفئة . نظرت الى امي فوجدتها
تتلوى كنبات زاحف ، والكلمات تندغم في حلقها ، وشيئاً
فشيئاً أخذت تنهاوى ، وحركتها تتخامد ، ثم ارتمت على
السرير فاقدة الوعي ، خامدة أشبه بالموتى . لبست معطفي

وتركت البيت . كان المطر يسقط مدراراً مع هزيم الريح البشع .
إنه لا يعقل أنني بعد غياب عام ونصف عام عن أمي لا أستطيع
معانقتها !. لقد كنت أرفعها عن الارض كل زيارة ، وأدور بها
ما استطعت .. إنه لا يطاق .

سرت شرقاً حتى بلغت « البيدر العام » المليء بالقبور ، ثم
توجهت الى تلة رطبة باردة ، نهضت عليها ثلاثة نصب حجرية ،
لأبي وأخوي الشائين ، ينحدر الوادي بجانبها حتى يصل الغابة
ثم تنبسط بعده سهول غضارية لا تكاد تتبين . جلست بين
النصبين الجنوبيين ، ورحت أتأمل المطر : كان يغسل الفضاء .
نهضت أخرج رنقي نحو البيت ، وقطرات الماء تنزلق
عن معطفي ، وسرت على الطريق الأبيض الموحش ، المليء
بالحجارة والوحل : نفسه ، الطريق الذي كنت ألعب عليه
صغيراً ، وأعود الى البيت بقدمي الحافيتين إلا من كتلة طين .

دخلت البيت فرأيت أمي مفيقة . واستغربت إذ وجدت
تجلس وحدها على السرير ، فجلست بجانبها ، وراحت
تعانقني وتعزفني بالقبل والدموع وبعض الأنين :

— آه .. أحس أنني عدت شابة .. إنها يا بني فيقة الموت ..
سأمت قريباً . ربما كان من الأفضل أن ترسل لأخوتك كي
أودعهم . أسندني فأني سأذهب للخارج .

لقحتها فوق ذراعي ومشيت بها ، فشعرت كأنني أحمل
كيساً من العظام . أدخلتها المرحاض ، وأمسكت بيديها

حقى انتهت ، ثم حملتها من جديد . كانت حزن صعب المراس
يلتحف بأصلاعي .

بعد زمن قصير ذهبت أزور جيراني ، لبضع ساعات ، ثم
عدت مثقلاً بهذه العاطفة التي يكتونها لي ، والتي لم يستطع أن
يضعفها الزمن .

ودخلت البيت فرأيت أُمي مسجّاة ، وقد تميّعت مرضاً ،
وتحلفت حولها بعض النسوة . انقبض قلبي بسرعة ، وأسرعت
إلى جانبها . كانت شفتاها تتحركان ، وعيناها مغمضتين بعنت
وتعب ، وهيكلاها هامداً ساكن النبض .

اقتربت ليلي مني تكظم حزناً غالباً ، فربّت على كتفها ،
ولكنني جلست عاجزاً عن أي عمل . وبدأ أن أُمي تموت ،
كانت ليلي تبكي فأسندت رأسها على صدري : « لا تبكي ، هذه
نوبة عادية » .

اقتربت النسوة منا واقترح بعضهن أن أرسل لاختوتي
فيأتوا ، لكنني طمأنتهم إلى أنها لن تموت ، وعدت فالتفت
إليها . كانت تعضّ شفتها السفلى بعنف وقد تيبّست يدها تحت
ظهرها ، واستقرّت على وجهها غيمة من عذاب كافر
سحق ملاحظها .

لم أكن أشعر أنها ستموت ، لكنني في تلك اللحظة بدأت
أخشى . ورحت أحملق بها ، والفكرة تتعاضم في صدري ، حتى
أصبحت جرساً ضخماً ، يطن فيعمي بصيرتي . كان رأس ليلي لا يزال

على صدري ، ودموعها تنحدر بحركة .

وانقضى الليل ، وذهبت النسوة ، ونحن لا زلنا جالسين :
أمي يخثرها الألم ، وليلى أغفت على صدري ، وأنا أغالب نعاساً
فقط . عند الفجر ، سرحت فيما يبدو ، أكثر مما ينبغي ، فأغفيت .
واستفقت على أمني ثثنّ وتصرخ ، فوجدت أني ملت عليها . كان
يتمركز في عيني نعاس شديد . أسندت ليلي على إفريز السرير ،
وفتحت فراشاً لقحتها عليه ودثرتها ، ثم طفقت أجول في
الغرفة وأنا أشتبي لأول مرة لفافة أدخنها .

ترى ماذا يحدث عندما تتغلب الطبيعة على إرادة الانسان ،
فتغفو ليلي وتألم أمني أو تحتاجها فلا تستطيع إيقاظها ؟
وكلت ساقاي عن المسير ، فجلست على كرسي من خشب ،
ولم أدر متى أغفيت .

استيقظت عند الضحى ، ورأيت ليلي بفستانها الكتاني
البسيط تنتظرني وفي يدها إبريق ماء . التفت لأمي فوجدتها
تنظر الي بابتسام حنون . أقبلت اليها ضاحكاً ، فتهللت
أساريرها وقالت : « تقبرني .. لم تم البارحة » .
— لا يهمك .. أنا معتاد على السهر .



اغتسلت ولبست ثيابي ، ثم خرجت أزور أصدقائي . الوحل لا يزال يملأ الطريق بصلابة نسبية ، والماء يركد في حفر لم تتغير منذ تسع سنوات . هنا كنت ألعب بالدحل ، وبالكرة أصنعها لفقري من قماش . كان زملائي في المدرسة الابتدائية يخاصمونني ، ذلك لاني لم أكن أملك استعداداً للزاح وتبادل النعوت .

ها هنا ينتصب دار « ام علي بدرة » وهاك دار « أبي فهد ريجان » وهنا وهناك .. البيوت نفسها لم تتغير . منذ ثلاث سنوات لم أرها ، ومع ذلك فهي لم تتغير ! . كيف ينزل الناس عن العالم ضمن هذه القواقع الأبدية ؟ . لم أكن أدري ، ولم أكن راضياً . الأهالي ، والوحل ، وهواء القرية النقي ، ما زالوا

يسبحون الله ، ويحلمون يحزر الواق الواق . « وكامل رشيد »
ما زال يعرج ويتنبأ للناس بمصائرهم . لقد أخبر أمي وهو يجلس
على الدكة الطينية أمام البيت ، أنها ستموت قبيل الربيع . وقد
ابتسمت وأجابت أنها تتمنى أن يكون الكلام صحيحاً .

شارع القرية الرئيسي ، خالٍ كالعادة الا من الدجاج . وسور
البستان الصغير على اليسار ، ما زال متهدماً ، وعلى عهده ،
ينبج صوت المطحنة من وراء جدار مرتفع بتقطع دوري .

وصلت المدرسة الابتدائية ، ورأيت التلاميذ ينتشرون على
ساحتها الواسعة لاهين عابثين . هنا درست خمس سنوات .
سلمت على الأستاذ علي ووقفنا معاً نتحدث عن مدرسته . « تعال
بعد الظهر نلعب شيش بيش » .

على الطرف الأيمن للساحة - او للبازار كما نسميها في القرية -
جثمت غرفتان ملطختان بألوان ناصلة كثيبة : المقهى . دخلت
المقهى فوجدت بعضاً ممن كنت وإياهم في المدرسة الابتدائية ،
يلعبون الورق والنرد بسر اويلهم الكمانية السوداء ويتصايحون .
هبتوا فسلموا عليّ ، وجروني الى طاولتهم ، وسرعان ما اشتركت
معهم بلعب الورق .

بعد حوالي الساعة خرجت من المقهى . كانت الشمس تفرش
الساحة والأشجار العارية الفارعة ، بأشعة باردة . سحب
في القاهرة الآن . إنها في كثير من تحركاتها وسيائها تشبه أمي
قبل أن يهدّها المرض . كانت أمي فتية وثابة ، سريعة الغضب

دافقة العاطفة ، بالغة الحيوية ، لكنها كانت تنتهزني عندما كنت أخطيء أو أتشيطان . وكنا نحب بعضنا حباً متخطياً ، عنيفاً ، حاداً ، ومنذ صغري درجت على النوم معها وازددت بها تعلقاً بعد وفاة أبي . وبعد ستين عاماً قضتها في العمل المضني داهمها المرض . لماذا وجد المرض في حياة الناس ؟. ما الحكمة من أن أبصق دماً ، ويشلّ الروماتزم مفاصل امي ؟ لو كنا بلا مرض لوفرنا الكثير ، ولكان للحياة طابع شديد الاختلاف . إنه من ضرورة المنطق ألا يوجد مرض .

الحياة في القرية لا تطاق .



٤

قاربت العطلة أن تنتهي وأنا لا أزال أجلس قرب المدفأة .
والمدفأة عندنا تفق يحفر في الجدار ، تشتعل النار عند قاعدته .
الشيئان اللذان كنت أفكر فيها أكثر هما سحاب فالجريدة .
ولعل من الغريب أني لم اكن اجرؤ على التفكير بأمي . كنت
مثقل الذهن من رؤياها ، مكدود المشاعر . ولم يكن تألمها يثير
من الألم بي أكثر مما أثار من سخريتي بالحياة . من المؤكد أن انتهاء
الإنسان الى هذا المصير سخيـف ، بعد أكثر من نصف قرن قضاه
يعطي الحياة حيويته ونضارة صباه .

وهكذا كلما فكرت بأمي ، ركدت على هذه النتيجة ،
ترضّ مشاعري ، وأنتقل ذهني الى سحاب ، فأزداد عزماً على

محاورة الحياة بها . كنت أحسن أنه لا بد من الانتصار على شيء ما . إن أمي في حكم الميتة ، إنها لا تأخذ ولا تقدم شيئاً ، وإذا كان من المنطق بسبب ذلك أن تموت ، فإنه لمن الخير ، ومن غير المقبول بالنسبة لي ، بطريقة ما ، أنها لا زالت تعيش . اما المحير أكثر فأن تعيش وهي لا قيمة لها : إن أمي لا قيمة لها . بعد أكثر من نصف قرن أعطت أمي فيه الحياة أضعاف ما أخذته ، يحيلها المرض الى شيء لا قيمة له . حتى وجودها كإنسانة أصبح لا يطاق .

إنه ليس معقولاً أن تموت أمي ، كما انه ليس معقولاً أن تعيش . ومع ذلك فلا المرض يقبل بالرحيل ، ولا أنا أقبل بأن تموت : رفضان لا يمكن الاستفسار عن سببها مطلقاً . إنهما موجودان بصورة قدرية وتلك هي المشكلة .

لم تحدثني أمي عن سحاب ، لأنها ببساطة ، لم تعرف عنها شيئاً بعد . هكذا قالت ليلى ، وطلبت مني أن أخفي خلافي مع إبراهيم عنها . ولم أدر بالطبع كيف أبرر لنفسي أنني لم أقل لأمي : « إني خطبت » . لقد جئت اللاذقية وأنا أشعر ، أن هذه الأم التي قدمتنى للحياة منذ عشرين عاماً ، لا يمكنها أن توافق على خطبتي .

وهكذا مضت أغلب أيام العطلة . والشيء الوحيد الذي فعلته هو أنني ، بسبب ازدياد حدة المرض على أمي ، أرسلت لأخوي وأختي في اللاذقية أن يحضروا الى القرية . وأما بقية

الساعات فلم يكن لها معنى . وهذا الوجه الذي اخضل
بكآبة غضارية ، وجه النهار ، يكاد يخلو مما يشعرني بوجودي .
إنه نفسه الذي حفري صغيراً أن لمس الفتاة جناية ، وأن السؤال
لماذا فعل الله هكذا ، يودي لجهنم مباشرة .

كانت ليلي تدور في البيت بنوع من العبودية الذليلة لفراغ
أيامها ، فراغ لا تعرف له سبباً ولا نهاية . إنها تبحث عن عمل
تؤديه في البيت فلا تجدد ، وليس ثمة ما يعمل . وهكذا فهي
تسحب الكرسي من زاوية لتضعه في أخرى ، وتشرب دون أن
تكون عطشى ، وتحاول إشعاري بأهميتي دونما مبرر ، ثم تنتقل
الى عتبة الباب ، فتقف وتتأمل المطر معقودة الذراعين : إنه
يغسل الفضاء .

دكشت في المدفأة عود حطب ضخماً ، فأقبلت اليه النار ،
وسرعان ما اشتعلت فيه .

استيقظت أُمي من نوبتها الأخيرة ، فأقبلت وليلي إليها ،
وجلسنا على طرف السرير ، ولقد راحت بعد ذلك تتكلم
بخفوت ، كلمات لم تكن نسمعها ، لكننا أخذنا نبسم لها . كان
لا بد من أن نكذب عليها قليلاً ، وكانت العملية تتم بيسر
وسهولة ، وبلا تفكير .

سمعنا أمام الباب جلبة ، ثم دخلت خزامى ونديم زوجها ،
وسليم وإبراهيم ، فشفيقة والصفار . نهضت فسلمت عليهم ، الا
إبراهيم فقد تخطاني قبل أن أمدّ يدي نحوه . وتجمّعنا ثانية حول

سرير أمي ، التي راحت تتأملنا بغبطة فائقة ، ثم تتفقدنا واحداً واحداً .

- بقي هلال .

وشعرت من كلمتي أمي أنها كلمتا وداع .

عند المساء أعلنت أن شيئاً خفياً ينسلّ من قدميها ، وأنها تفقد الشعور بوجودها بالتدريج . وبعد قليل امتلأ البيت بالنسوة ، وأعلن إبراهيم أننا يجب أن نوجهها إلى القبلة ، فشاركنا بالعمل آلياً . لم أكن أدرك ماذا يحدث . ولست أدري إذا كان من المحجل أن أعترف أن الحزن لم يكن شعوري الغالب في تلك اللحظات . كنت لا أفقه شيئاً مما يدور حولي : بعد قليل سيتحول إنسان حي ميتاً ، وهذا الإنسان امي ليس غير .

تقدّمت إليها كتلة من العظام مسجاة على فراش ومغطاة بلحاف . إني أشاهد عملية موت ، وأعتقد أن من الواجب أن أظهر بعض الحزن لكنني لم أستطع ! لماذا وجد الحزن في حياتنا ؟ .

فهمنا من أمي ، ببضع إشارات وغمغات متعبة ، أنها تريدنا أن نقرب منها ، ففعلنا . ومدّت يدها فمددنا أيدينا ووضعناها عليها . سحبت يدها الثانية ووضعتها فوق الأيدي كلها . في تلك اللحظة كان لا بد أن نكذب أنا وإبراهيم أيضاً .

ولم يعد بوسع أمي أن تحرك أطرافها . كما لم يعد بوسع لي وخزامي وشفيفة أن يرفعن رؤوسهن عن اللحاف . اما سليم فكان

يبيكي بانكسار ، و ابراهيم يضع إصبعه المعكوفة بين فكيه ويبيكي
بهدهوء . وفي تلك اللحظات ايضاً ، شعرت بالدمع يطفر من عيني ،
و بإدراك غريزي هائل يحتاجني ، وبأثني أنطلق ضمن دوار عميق
يبتلعني كلية .

لا أذكر ما حدث بعد ذلك ، لقد مرت دقائق يستعصي عليّ
تذكرها . كل ما بقي في ذهني منها ، أنني كنت أبكي ، وأبكي
بصورة لا إرادية ، لا شعورية وليست واعية .

عند الفجر ماتت أمي ، بكل حتمية . ماتت وهي توصينا
ألا نختلف ، وتلفت رعاية إخوتي لي باعتباري أصغرهم .

لقد تجرأ الموت وسأل أمي لماذا تعيش ؟ . ولا بدّ من أن
يكون الإنسان سخيلاً ليسأل الموت عن علاقته بنا . غير أنني
صرت سخيلاً لحظة من زمن . وفي هذه المرة ، عندما
نظرت إليها ، تستلقي في استقرار أبدية ، بلا عيون ، سألت
لماذا تموت أمي ، وأدركت أن السؤال قدرتي ايضاً .

لقد انتهت أمي ، وما أضيع الشقاء الذي تكبدته طيلة
أكثر من نصف قرن !



ودفناها في التلة الشرقية الباردة . ثم مررنا بتلك التشكيلات
المرهقة من طقوس الموت في القرية ، مع تعديل بسيط ، هو أن
إبراهيم لم يحدثني أبداً ، وأن سليماً لم يحدثني الا غراراً . وأخيراً
اجتمعنا وحدنا .

— أظنك ستترك هذه العاهرة بعد الآن ؟

تركت المجلس وذهبت . الحياة مع إخوتي لا نطاق .
لم يكن ما حدث بعد ذاك مما يحاول للإنسان تذكره . لقد
كانت الخلاصة أن أعلن إبراهيم وسليم مقاطعتي . وفي اليوم التالي
أقفلنا البيت في القرية الى الأبد ، وركبت مع خزامى ويلي
سيارة وذهب أخواي في سيارة أخرى . ووصلنا اللاذقية

بوجوم ، فدخلنا بيت خزامى أكثر وجوماً . وأقبل نديم فجلس
يجانبنا ساكناً .

— هالو ؟ .

وحملت ابن اخي ورحلت أقبله بغزارة ، وأخذ يعبث بشاري
حتى أغفى .

بعد قليل اندفعت فتحية وفايدة لاهتين الى الغرفة وارتمتا
على حضني ، وهما تتصايحان :

— عمو .. عمو .. صحيح زعلان منك بابا ؟

أمسكت الصغيرتين وصرت أسليهما ، لكن فتحية أبت الا
أن تعلم : أحقاً « زعلان بابا ؟ » ،

أحسست بسخرية الموقف ، واضطرت ، هذه المرة على
الصغار ، أن أكذب فأخفي عنهما كل شيء .

ونهضت أتجول في الغرفة ، ثم هممت بالخروج ، فلحقت بي
فتحية .

— عمو .. رايحة معك .

ولما وافقتها لحقت بي وفايدة :

— وأنا عمو .

ذهبنا الى الحديقة العامة ، فجلست على مقعد ناء فيما راحتا
تلهوان حولي . وأخذت أتأملهما ، فبعد الآن لا أعتقد أنني
سأرى هذا الحب ، ولا ألتقي به . وعند العصر عدت بهما حتى

العمارة التي يسكن فيها أخي ، ولما هممت بتوديعها أصرتا أن
أدخل معها . لكنني قبلتهما وألويت أسير الى خزامى .

لقد قاطع سليم وابراهيم خزامى وليلى بسبي ، ولم يكن
عملهما بالحقيقة إلا تهرباً من مسؤوليتهما الجديدة أمام
ليلي .

ولقد مكثت في اللاذقية يومين آخرين لم أرَ فيها أخوي .
كنت حزينا حتى أنني ، يوم الرحيل ، ودّعت أختي بالصمت
والدموع .



الفصل الخامس

كان الجوّ الضبابي الكثيب الذي توجّهت فيه الى الجامعة
يفتح صباح آخر يوم من أيام العطلة . لم يكن ثمّة أحد ، فعبرت
الحديقة الى المكتبة .

وتقدّمت الى سحاب باسم متفاقم الوجيب ، وصافحتها
بشوق وقوة فالتمعت على تخوم عينها تألقة لا تنضب .
— هيا بنا الى النادي .

وخرجنا . كانت ترتدي تنورة نيلية في منتصفها مثنان
شديدة الجاذبية ، وفوق القميص البيضاء تنطرح كنزتها الرمادية
الجميلة . خرجنا من المكتبة وسرنا معاً ، وأخذ رنين كندرتها
يطنّ في أذني كوقع بيانو .

— أنت غاضب ؟.

— حدثيني عن رحلتك .

— ذهبنا بالباخرة ورسونا في بورسعيد . كان القبطان رقيقاً جداً ، وأحد الطلاب الذاهبين معنا ، يعزف كمنجة تذهل اللب .. يا الله .. ما أروعه . وبعد بورسعيد الى القاهرة . زرنا المتحف ، وقصر النيل والأهرام ، وحديقة الحيوانات ، ثم القناطر الخيرية . القناطر الخيرية أحلى مكان في الدنيا ، وقد ذهبنا في الجانب الثاني — وهو مليء بأشجار عالية نخيلة — وتوغلنا فيه ، وكنا مجموعة من الشبان والبنات . آه .. نسيت ان أقول لك .. ذهبت من هنا مع ابن خالتي .. وبالطبع ، أنت تعرف ، لو لم يكن معي لما استطعت الذهاب . بقينا في القناطر ساعة من ألد الساعات ، وكان معنا صاحب الكمان .. كان هناك بعض الثقلاء .. واعتقد أنهم لم يوفقروني .. ولكني طبعاً لا أبالي بهم . كانوا يتأملوني بعيون منحرفة ، ويمشون ورائي بخطى غبية كأن في أرجلهم مخدراً .. المهم : عشنا في مصر أياماً لا تنسى ، نسي واحدنا نفسه . وقد ذهبنا للأقصر ، فرأينا معبد الكرنك العظيم ، وركبنا هناك زورقاً نيلياً أكثر من ساعة .. يا إلهي ما كان أحلى تلك الأيام . ولقد زرنا إسكندرية أيضاً ، وسهرنا في نادي الصيد ، وحضرنا فيلماً في سينما أمير .. ولست أدري .. ولقد عدنا بالباخرة نفسها ، ودعانا القبطان الى عشاء عنده .. كان القبطان قبطاناً فعلاً .

وابتسمت سحب وهي تطلق من فمها أمامة استعذاب . قلت لها :

— حسناً .. اذاً فقد قضيت أياماً حلوة .

كانت منتشية ، فائقة الحيوية ، وفي عينيها يتألق البريق
الأبدى الروعة ، بظلاله التي لا تنسى . رأيت أن من غير
المنطق أن أشق قلب هذه البشاشة بسكين الحداد ، وأعلن لها أن
أمي قد ماتت . ماتت قبل أن تعرف أنني خطبت .

— ام .. أحسن كآني لا زلت في مصر .

وأغمضت عينيها . وشعرت ببعض الانقباض ، لكنني لم أدر
سببه . نهضت عن الكرسي ، فنهضت معي ، وعند الحديقة
ودّعتها وخرجت .

ضربت بناتيء من الارض ، فدمدمت بشتيمة عابرة وسرت .
قصدت بيت فائز ، ولما وصلت كنت قد أنهكت . رأيته في
السبو يسمع بعض الأغاني الامريكية ، واستقبلي بترحاب
شديد ، وأشار الى كنبه وثيرة . فغطست فيها .

ابتسم فائز من جديد مرحباً بي ، وسألني عن الصحة ، وعن
أيام العطلة ، وأرسل ترحيباً آخر ، وسؤالاً عن أهلي ، لم ينتظر
جوابه ، ثم انتقل لراحة بحوية بالغة .

— رأيته في اللاذقية .. كم اشتقت لها في مصر .. يا الله كم
اشتقت لها . إنها مثال العقّة ، وديعة ، عاقلة ، مهيبة ، يندر
أن يوجد مثلاً . المهم أنك تلقى فتاة كواحة مثلاً ، تثق بأنها
شريفة ، وتنتهي مشاكلك .. فتاة مثل واحة تناسبني وتناسب
كل شاب . أقول لك هذا الكلام ، يجب أن تفهمه ، يجب . إن

واحة لا تقبل بأن تعطي شفتيها لإنسان .

كانت ذقني تستند على أصابعي . سألته بدون اكتراث :

— ما رأيك بتصرفات سحاب في مصر ؟

هز رأسه متأقفاً ، ورمقني بنظرة متخلصة :

— ها قد سمعت من غيري ، وتكلمت أنا ، فلا تهمني بالجن

والتحيز .. قلت لك إن المطلقة لا يمكنها أن تبتعد عن الرجل

أكثر من أربعة اشهر .. والآن سنة ونصف . ها قد سمعت من

غيري ، فلا يمكنك أن تتكلم . هل تعتقد .. بشر اتركها ..

واحة أحسن منها . أنت محتاج لفناة مثل واحة ..

صمت فائز كأنما شعر بأنه أكثر من الكلام في مسألة لا

تخصه ، وقد يتحمل بسببه مسؤولية ما في المستقبل .

طلبت منه أن يتابع ، ولما تلكأ : « أنا لا أتكلم في

مشاكل غيري » لمح في عيني تصميماً لعله كان حيوانياً ، كنت

أحس به أشبه بالتنويم . ونهض فوضع بعض الأسطوانات ، ثم

جلس . طلبت منه ثانية أن يتحدث عن كل ما رأى . فغمغم

بضحكة متحرّجة بضع كلمات ، ثم فرك أصابعه كأنه

ينتقي الحروف :

— انطلقت الباخرة من اللاذقية .. وبقينا في البحر يومين ..

فأصبح الرفاق ، هذا يتكلم من هنا ، وهذا ينتقد جهرأ .. عن

القبطان . ولقد رأيتُه بنفسه يمسك ساعدها فيقودها الى ظهر

السفينة ، ويشير لها الى شيء لم أعرفه ، فتغرق في الضحك ..

أنت تعرف ضحكها .

أجل .. إن ضحكها أشبه ببريق الأمل اذ يندلق في الفؤاد .
— ومن بور سعيد إلى القاهرة ، فزرنا أجل ما فيها : المتحف ،
الأهرام ، قصر المنيل ، وغيره .. والقناطر . وفي القناطر ،
بعد أن تجولنا قرب السد الصغير الذي وقفت عنده السيارة ..
اجتازنا جسراً في الأول ثم لفتنا على الشمال فوصلنا جسراً ثانياً ،
تحت السد .. تجولت مع هذا ابن خالتها قليلاً ثم غابا مع شاب
وقفاة أخرى بين شجر السرو ... وهناك ، في ذلك الموضع ،
شيء طبيعي أن يأتبك أحد أبناء البلد ، يجلبابه الواسع ، ويقول
لك « عايز حاجة حلوة » .. وما أحلى تلك الحاجات .. بنصف
جنيه . المهم بشر ، لن أحلف لك ، ولكن صدق بأيّ قسم أنها
لم ترجع كما كانت .. وخاصة بعد حفلة القبطان في العودة . أنا
أتكلم لك جاداً .. لست أدري ما الذي يجذبك إليها .. و..

صمت فائز قبل أن يتم ، ونهض فقتر الأسطوانات ووضع
أخرى إيطالية . قلت له :

— اذا كنت أقبل بسحاب بعد أن عاشت مع رجل من
الكويت سنتين .. فكيف أرفضها اذا عاش معها قبطان يوماً
او اثنين .. العملية نفسها ، سوى أن الأولى تمت بورقة ، أما
الثانية ، فبالإرادة ... اسمع فائز : دعك من سحاب ، فأنا
أريدها ولو كانت بغيّاً . اذا افترضنا أن تخميناتك صحيحة
— وأنت تحكم عليها بمقاييس لم أعد أقبلها — فالهم في الموضوع

أنها تمت بإرادة . وأنا الذي سيجعل سحاب تمتنع عن هذه الأعمال ، ولكن حيا بي ، لا يسبب من هذه المقاييس . نحن نختلف فائز ، منبعاً ومصباً .. أنت تصلي وأنا لا أصلي .. أنت تؤمن بوجود الله ، وأنا لا موقف لي تجاه هذه الناحية ، ولا يعني أن أقف موقفاً ، لكنني أعرف أننا يجب أن تنفض هذا المجتمع ، ولا بد من أن يشقّ أحدنا الطريق الأول بأعصابه .. وقد يكون بكرامته ولكن ينبغي أن نشق طريقاً .. ينبغي .

انسدل الصمت فجأة ، وأخذ كل منا يتعابث بشيء قريب منه ، وبعد حين اقترحت عليه أن نذهب ودون أن أنتظر منه الموافقة ، نهضت . وأوقف اليك آب ، ثم تزلنا الى الشارع وهو يمسك بساعدي .

عند باب العمارة كدنا نصطدم برجل يسير متباطئاً ، هو الآخر ، ساعد زوجته . انقبت الى أن فائز يقبض على ساعدي بالطريقة نفسها : بصورة لا شعورية ، ولا قيعة لها على الإطلاق .

لقد أمسك القبطان بساعد سحاب هكذا . وضع أصابعه الغليظة على امتداد يدها من الكتف حتى المرفق ، وسار معها بضعة أمتار ، ثم رفع أصابعه . إنها ما كانت تسمح له لو أرادت .

تري هل أشعر القبطان سحاب بأنه رجل ؟ ..

- فائز .. أحسن أنني بحاجة لكأس من النبيذ ... تعال الى هذه العمارة لترى .

وسرت فساروا ورائي . اشتريت مرة بطاقة مزدوجة لحفلة

رقص تنكرية، ثم لم أعتز على فتاة تشاركني حضور الحفلة فزقتها.
اشتريتها من سحاب، فقد كانت مكلفة ببيع البطاقات في
الجامعة. ولم يدر بخلدى أن أصرّ على ذهابها معي - لتذهب أمها
مع ابنتها مثلاً.. لماذا لا تذهب - فقد كنت أدرك بصورة
قبلية أنها سترفض، لقد كانت في دمشق.

يبدو أن الانسان في مصر شيء آخر.

أحسست أنني شديد العطش، فرفعت رأسي وقلت لفائز:
- نخب واحدة. للقاع.. لا ترجعه.

وأفرغت الكأس في جوفي كلها.. وقد انسكب في حلقي
بطعم جديد لم أتبيّنه من قبل.

فكرت أنني سأثل، فتابعت الشرب. لماذا أخشى أن أثل؟
يجب أن لا أخشى شيئاً.. بل لا بدّ في بعض الأحيان من الثمل
كي يفكر الإنسان بعيداً عن رسوباته، وتحكم معايير الاجتماعية
اللاشعورية برقبته؛ يفكر من منطلق جديد.

لقد ماتت أمي، ماتت وليس لها قيمة. لم يبك عليها أحد
الا أبناءها وأصدقائها، وهؤلاء بكوا بدافع الحب، وكلهم
كانوا يقولون إنها ارتاحت. إذا كان الموت راحة بالنسبة لأمي - لقد
كان راحة فعلاً، فهي تأمل بعد الروماتزم أن ينتقيها الله
للجنة - فهو بالنسبة لي انتهاء لا مبرر له.

ولقد تزوجت منيرة.. ما أكثر ما أحببت في حياتي..
لقد أحببنا بعضنا.. سحاب المرة السادسة فيما أظن، ولكنها

صادقة وعميقة .. لقد أحببنا بعضنا ، تلك كانت المرة الأولى ،
وكان بيننا شبه اتفاق على أن فتروج . لو التحقت بالجيش لتزوجت
منيرة . لكن حبنا أيضاً لا مبرر له ، لو كان .. لانتهى بالزواج ،
لكان ينبغي أن أتزوجها .

فأثر يحدثني عن واحة . إن من المؤسف أني لم أع كلمة واحدة
منه ، فواحة فتاة رائعة يطيب عنها الحديث .

يبدو أنه كان يحدثني من زمن طويل ...

— ... الى ان واحة أصلح الفتيات لي ... ولذلك أحبها .

— هل تريد أن أقول لها ذلك ؟ .

فضحك ولم يجب .



أطلقت تنفّسة قوية ، وأخذت أعبّ النظر الى الحديقة .
 ما يزال إرهاق العمل في الليل يستقرّ في عروقي .. إن الصحافة
 متعبة . لقد انبثقت البراعم فوق رؤوس الأغصان .
 -مرحباً .. أراك مكشراً؟-

كان الصوت الناعم لواحة ، فنهضت عن كرسيّ مرحباً بها ،
 وقدمت لها كرسيّاً آخر ، فجلست يحاني . سألتها بتشوق
 هادئ عن أهلها وأبيها ، وعن أيام عطلتها . فأجابت ببشاشة
 وغبطة ، ثم أسرعت تقول ، كأنها تخشى ألا تحين لها
 فرصة الكلام ..

- أتدري ماذا أحضرت لك من الكنيسة ؟. من عند أبي ،

فهو يحتفظ بأشياء قديمة ، قد لا يكون لها علاقة بالدين .
وأعطيني صورة لستة رجال رياضيين عراة ، يتمطون بجو
كامد الضوء ، قاتم اللون ، قاعدته حمراء غامقة ، وحفافه
سوداء إلا من وهج صاعقة تهوي من فوقهم . هزرت
رأسي باسماً :

— التيتان .. أشكرك من كل قلبي . ولكن هل تتوقعين
لي نهايتهم نفسها ؟.

فرفعت حاجبيها :

— ألم تقل إنك تحبه ؟ حسبت أنك ستسّر به .

فأسرعت أطمئنتها الى غبطتي القوية بالرسم . وشكرتها ، ثم
سألتها إن كانت قد أحضرت لفائز كنافه . فضحكنا معاً ثم
أعلنت أنها لم تحضر شيئاً .

أمعنت النظر الى عينيها فجأة فأطرقت ، وحولت نظري
الى قاسيون تنحدر عن سفوحه بيوت دمشق وتتجمع في القاع ،
ثم أطلقت زفرة غير واعية . وعدت أحلق بواحة من جديد ،
فتطرق وتعبث بكتابها . سألت فجأة :

— أخبرنا عن تكشيرك يا أستاذ .. اسمع بشر ، هل تراجع
البرنامج معاً ؟ . قل لي ماذا وراء غضبك !! .

— ماتت أمي في العطلة .

أدركت دون أن أنظر الى وجه واحة أن تقبضاً سريعاً قد
عجنه ، وتسلسل الى أذني صوتها العميق حنوناً ، شديد التأثير .

— الله يرحمها . لقد ارتاحت من مرضها .. وأنت لم تعد بحاجة لأحد .. ومع أنك .. تحبها حقاً فثلك من يتحمل فقدما بصبر .

جاشت نفسي ، فالتفت نحو واحة ببسمة صفراء — ما أندر ما يمر المرء ببسمة صفراء ، وما أشنع — فرأيت عينيها ترتعشان تأثراً .

— لقد ماتت أُمي . أجل ، مات جذر الطهر والحب الذي يربطني بالعالم . كيف استطاعت الحياة أن تكون مقفرة بهذا الشكل ، أن تجعل أحداً يشعر أنه كل إنسان في لا إنسان ؟ . لقد ماتت أُمي التي أحببت كل شيء : الله والفقر والألم ، والناس ، ماتت بالروما ترم جلدأ مجمعدأ ، وعظامأ ناثثة زرقاء . لقد ماتت ببطولة ، ودفن حبأ بلا احتفال . وستنضم الى قائمة الموتى من أسرتي على التلة الشرقية الباردة . يشعر الإنسان أنه كان بطلا ، ويشعر أيضاً أن هذه الصفة ، قد رحلت منه الى الأبد ، لانه يدرك أنه لا يملك بنفسه قوة حقيقية ، أنه كل إنسان في لا إنسان ، أنه لا يسعه سوى أن يموت ، كأُمي ، موتأ صامتأ مغلوب البطولة ، يموت بلا تحد .. التلة الشرقية الباردة ، ما أشنع التلة الشرقية الباردة !

كانت واحة مطرقة . وخيم السكون من جديد ، فنظرت الى سفوح قاسيون .

ومن بعيد أقبل فائز فتفحص المنتدى قليلاً ، ورأنا فجاء

وجلس قريباً من واحة . وأخذ بلا مقدمات ، يستفسر عن صحتها وأبيها ، والعطلة ، برزانة مغللة بالحنان والاهتمام ، ويحاول أن يتقصّى ما أمكن من التفاصيل .

وران الصمت من جديد ، فالتفت الى ضاحكا :

— أراك صامتاً أيها الإباحي .. على غير العادة .

فغمغمت واحة :

— كنا سنخرج الى الحديقة .. هل يمكن أن نترك الكتب

بضع دقائق ؟

أكد فائز : — طبعاً .. لقد جئت لأدرس . اتركها ساعة .. لا عليك .

نهضت واحة ، فنهضت معها بصورة آلية . واستحييت أن انظر الى فائز ، فتابعته تقطيعتي وسرت .

نزلنا الدرج صامتين . وعند الحديقة قلت لها :

— واحة اعتبريني أخاً .. فائز يحبك ، ويريد أن يتزوجك ، وهو يملك بيتاً فاخراً . ولعله يريد أن يتأكد من ردك قبل أن يصارحك .. وهو مستعدّ للانتظار . ولكن — اسمحي لي — إذا كان هناك غيره فأشعره بذلك .

هزّت واحة رأسها نقياً : ليس هناك أحد بعد ..

سألته مستغرباً « أبداً ؟ » فهزّت رأسها ثانية .

انعطفنا نحو مدخل الجامعة صامتين ، وخرجنا ، لم نكن ندري أين نذهب ، ولم نفكر أين . كان كعبها العالي يدقّ على

الرصيف برتابة ، وهيكلها الرخامي الجميل يتمايل بهدوء وانسياب .

— واحة .. هل .. كلا . هل تذهبين معي الى السينما ؟ .

لم تنظر الى واحة ، بل خفضت رأسها موافقة .

شعرت بالحرج من صمت خيم ولم أستطع تبديله ، فأخذت أتكلم ، ثم اكتشفت أنني ثقيل فصمت .

— لا ضرورة لأن تتكلم .. أنا أعرف أنك لا تفتح فمك الا

لتلقي نكتة . إني مسرورة لوجودي معك ، فلعله يقدم لك بعض السلاوى . وإني مسرورة ايضاً لأننا نسير بصمت ، فهو أبلغ تعبيراً ، لكنني أعترف لك انك تدهشني ، وما كنت لأظن أن أثقّال العالم كلها ستحزنك .

التفت اليها أسأها إن كانت تظن أنني حزنت بسبب أمي ،

فقالت إنها لا تدري .

— لا أظن .. لست أدري .. أنا ايضاً لست أدري . أي

فيلم تريدن ؟ .

هزت يدها هزة قصيرة لا مبالية ، ولم تتكلم . وسألت

نفسى : ما الفائدة من الذهاب الى السينما ؟

— هل نذهب الى غرفتي ؟ .

ولم تنظر لي ، مرة أخرى ، بل خفضت رأسها بالموافقة .

وهكذا مضينا الى الغرفة قدما ، واذا وصلنا الى بداية

الدرج نظرت حتى أعلاه ثم سارت .

فتحت لها الباب ، وكانت تلهث ، ودخلنا . وبعد أن أغلقته أخذت تكحّ بطريقة خشنة مخرشة ، ثم وضعت يداً على صدرها ، وأخرى على فمها . اقتربت فوقفت بجانبها حائراً متضيقاً . وفي هنيهات انتهى السعال ، ونظرت إليّ بابتسامة تشق طريقها وسط الدموع .

قلت لها بتأثر عميق :

— واحة ، ألم أقل لك استشري طيباً ؟ . لقد كنت أكحّ مثلك — لا تخافي — ولكنني في النهاية صرت أبصق دماً . أنت لن تبصقي دماً طبعاً .. ولكن يجب أن تستشري طيباً . لا يمكن أن تبقي هكذا يا واحة ..

ابتسمت : — لا تحزن .. سوف أستشير طيباً . والآن .. أنت عندك غرفة مجهزة ، حلوّة غرفتك ؟ من رتبها لك بهذا الشكل ؟ . حلو ، حلو . سأصنع لك شايًا ، سأصنعه بطريقة خاصة ، وستحبّها كثيراً . وأسرعت تهيء النار ..

جلست على السرير ، واذ رحت أتأملها أدركني شعور غريب جعل نظراتي تركد على تقوسها بجانب الساور . هذه ساعة لم أعش مثلها منذ سافرت ملك وهلال . إن أحداً ما ، من جديد ، يعتني بي بصورة غير معقولة ولا متوقعة .

حملت واحة الصينية وعليها قدحان من الشاي ، وتقدّمت إلى السرير فوضعتها عليه ، ثم تناولت قدحاً وقدمته لي ،

وأمسكت القدرح الثاني ، وابتسمت . رشف كل منا شيئاً من شايه وتأملنا بعضنا .

ابتسمت ، وشعرت أنني يجب أن أقبلّ واحدة ، فتهضت إليها وهي تتأملني بترقب باسم ، فأخذني بعض الارتباك . لكنني تقدّمت منها وتناولت القدرح من يدها ، فوضعتَه على الطاولة . ورفعتها من يدها عن السرير وقبلتها .

كنت أظن أنني سأعود الى مجلسي ، لكن يديها تدلّنا من فوق كتفي ، وارتمى رأسها على نحري ، ثم تهدّلت جفناها فأغمضت ، وراحت تتنفس أشبه بالنائمة .

كان في - بطريقة ما - يلثم شعرها لثمة طويلة ، بدأت ولم تنته . مددت يدي بهدوء وطوقتها ثانية وسكتنا . وبقينا واقفين بعض الزمن .

وسعلت فجأة ، سعلة حادة جافة ، فسحبت يدها بسرعة ووضعتها على صدرها ، ثم رفعت الثانية تضعها أمام فمها ، فانلقت منه بصقة استقرّت عليها .

أسرعت ثمّ يدها الأخرى الى جيبيها وتغلق الثانية، فقبضت عليها ، وفتحت أصابعها بالقوة ؛ كان البصاق أصفر كقمح أيار ، فنظرت إليّ برعب . سحبت منديلي ومسحت يدها ، ثم قدتها للمغسلة ، فغسلتها ، وأتيت بها الى الكنية ، وناولتها قدرح الشاي باسم :

- لا تخافي .. أنت لست مريضة بشيء ، ولكن يجب أن

تراجعي الطيب غداً . ستستعملين بعض الأدوية .. استربتومايسين
فيما أعتقد دواء يعطى للتقوية ، ويستعملونه لأيّ طارئ ، صحي .
لا تخافي شيئاً ، لقد كان لون بصاقي أحمر .. أما لون بصاقيك
فأصفر .. اشربي الشاي ، لقد صنعت شاياً رائعاً .. وأنا أشربه
دائماً هكذا : مغلياً حتى تتفصّد مرارته وتمزج مع السكر بحيث
يشعر الحلق ، أو مؤخر اللسان لا أدري ، بالمرارة والحلاوة معاً ..
تلك هي الحياة .. مصيبتها أنها إما مرّة وإما حلوة .

ابتسمت واحة ، وأحاطت القدح براحتيها ، وأخذت
ترشف منه باستغراق وسعادة .

— هل تذهبن معي الى الجريدة ؟ .. تحرّرين ريبورتاج مثلاً ،
او تكتبين زاوية في الصفحة الأدبية ؟
فازدادت ابتساماً :

— كلا سأذهب الى الطيب .
ونهطت عن الكرسي ، فوضعت القدح على المغسلة ، وأصلحت
من شأن ثيابها .

— أنت أنيقة تمام الأناقة يا واحة خانم .
فهزت رأسها ضاحكة العينين ، ثم وقفت كمن تذكر شيئاً
سحيق البعد :

— نسينا الكتب عند فائز يا خواجه ! ماذا سيقول ؟!
لا بأس سأذهب أنا اليه . سرح شعرك وتوجه الى الجريدة ..
وغداً في العاشرة .. لا ، بعد العاشرة ، فقد تكون تعباً من

الشغل ، أنتظرك في المنتدى .

نظرت الى واحدة ، رغم شغفي ، باستغراب مقطب .
وتذكرت فجأة ، معنى أن أكون في مكتب الجريدة ، وأعود
من الشغل متعباً . وحمجت بعينها فاذا بهما تديان بلا شيء .

— واحدة ، تعرفين شيئاً عن حياتي الخاصة ، في الجامعة مثلاً؟..
أتعرفين لماذا أعمل في الجريدة ؟.

— لتتقذ نفسك من الإفلاس .

قالت ضاحكة ، وجعلت تمشط شعرها .

هممت أن أخبرها كل شيء عن حساب ثم امتنعت . ليس
من الضروري أن تعرف إذا كانت جاهلة حتى الآن .
وإن لم تكن ، فلا بد أنها صمتت بهذه الطريقة لتتجنب
الاستماع .

وكان لا بد أيضاً ، من الاعتراف بأن واحدة تحمل شعوراً
معيناً ، غير أنه لم يخطر لي ، ولست أدري — دائماً لست أدري —
لماذا لم أصحح لها اعتقادها منذ البداية . وسألت نفسي متى كانت
البداية ، فلم أستطع أن أتذكر .



فتحت الباب لثريا فدخلت ، وانبعثت في الغرفة منها حيوية مفاجئة ، إذ أخذت تتكلم بلا هوادة ، تسأل عن أهلي ، وعن ترحيبهم بي ، وتجيّب بنفسها على الأسئلة ، ثم تنتقل الى ملك وهلال ، فترقب السرير ، وتهيء الساور ، وتعلق ثيابي في الخزانة ، وتدخل حذائي تحت السرير ، ثم تبحث عن الكلمات تحت الوسادة فتضعها في الدرج ، تتكلم عن الفوضى ، وبقاء قدحين بلا غسيل ، واخيراً تهزّ رأسها مؤنبة ..

جلست على السرير وقلت لها :

— ثريا .. سأخبرك بشيء ، ولكن لا تغيّري من سلوكك ، فأنا نفسي لم أغير ، سمعت ؟. لا تغيّري شيئاً من بشاشتك ،

وتفتحك هذا الصباح .

وقفت ثريا قرب المغسلة فاغرة القم ، منتظرة العينين ،
فقلت لها إن أمي قد ماتت .

.... ولكنك كنت تحبها !..

امتدت يداها الى الصنبور ففتحته وعيناها لا تزالان
عالقين بي . نهضت فأغلقت عينيها ، وأدرت ذقنها نحو المغسلة ،
ثم نكست يدي رأسها :
- اغسلي الكوين .

فطفرت من عينيها دمعان ، ووقفت بجانبها محزونا جامدا .
اسرعت تقول : لا ، لن أبكي .. ولكن كيف لا .. إنني
أبكي فعلا .

- أعتقد أنه ما كان يجب أن أخبرك .. فنحن سنحزن بلا
فائدة . شباط يقترب من نهايته ، والربيع يسدق الأبواب
بأصابه الخضر .. لا فائدة من الحزن ، وأنا نفسي لا أدري إن
كنت حزينا . هل تريد أن تبكي عيناك ؟ .. أنا أريد .
ابتسمت ثريا وسألت :

- أشعر كأني كينيت لك كأس نبيذ ، ترى أعندك نبيذ ؟
فأجبته بهدوء طلق : - اذا كان هناك بائع ، فهو شعرك .
اسمعي .. لم تخبريني كيف قضيت هذه العشرين يوما من شباط ..
لا يهم ، ليس من الضروري أن تخبريني .. ماذا سنفعل الآن ؟ .
أراك استلقيت على السرير .. هل تشربين نبيذاً ؟ .. سأذهب

فأشتري . بضع دقائق وأعود .

كنت أريد إرادة لا أعلم ماأناها من ثريا أن تترك موت أُمي جانبا ، فتظاهرت بأني ذاهب ، وسرت باتجاه الباب . لكنها انتفضت ملتاثة وأسرعت تقف أمامي :

— كيف تشتري نبذاً ؟!

فابتسمت وقلت لها ، إنني بكل بساطة اذهب الى الخمارة فأبادل بعض النقود بزجاجة وأحضرها . ثم أمسكت زندها أحركها من طريقي فأبت أن تتحرك . شددت عليها فقاومت ، وأخذنا نضحك .

تركزت حواسي فجأة من زندها . ماذا كان شعوري بالضبط خلال اللحظات التي مضت ؟.. حاولت أن أتذكر فلم أستطع .

— لماذا عبت ؟ هل تعتقد أنني سأشرب نبذاً ؟!

لم أستطع أن أتذكر : كنت أضحك .. وكنت أحاول نرفزة ثريا .. المزاح معها بالضبط . ولكنني أمسكت زندها منذ دقيقة

أخذ إحساس أشبه بإحساس المستيقظ من التخدير ينز في أصابعي .

— لا، لن أشتري نبذاً .

ولم تتحرك بل راحت تتأملني بحدقتين جامدتين .

— هل تريد أن تشرب نبذاً ؟.

سألتي بخفوت وضعف .

— لا ، إصنعي لنا شايًا . وسنشربه مع شيء من الجوز ،
وسيكون للثنين تأثير النبيذ .

أفلت زنديهما ، فتقدمت نحو المغسلة ، ورفعت القدحين
بيدهما . سقط أحدهما فجأة ، وحاولت أن تلتقطه فسقط الثاني .
تطلعت إليَّ يجمود مشوب ببعض الاعتذار ، فنظرت إليها
ببعض العصبية : هل قامت القيامة ؟
واستمرت في تهيئة الشاي .

عندما طأطأت حدقت — ولعل ذلك للمرة الأولى — بامرأة .
كان ثمة قوس ملتحف بالشهوة والتشهي .
لقد اعتادت ثريا أن تأتي إلى الغرفة ! واعتدت أن أستقبلها
كل أسبوع .. إن ذلك يبدو عجيباً .

تقدمت فوقفت بجانبها دون أن تشعر بي . كان شعرها النبيذي
يتموج فوق وجهها وهي ترقب الشاي يغلي ، وتخفف توقد
النار تحته .

نهضت ، فشفت عندما رأيتني بجانبها ورفعت يديها إلى
كفها ، ثم حملت بي قليلاً وابتسمت ابتسامة بطيئة .
أذكر أنني كنت أبتسم ، ولست أدري بأية طريقة . تأبطتها ،
فرفعت ذراعيها آلياً ، وقبلتها وهي تلتصق بي بكل استسلام .
— هاتي الشاي وتعالى .

أحكمت إسدال الستارة على النافذة ، وأحضرت كيساً من

الجوز ، ثم جلسنا على السرير . وبينما صبت الشاي ، أخذت
أكسر الجوز وأفصصه ، ثم ألقمها بعضه ، وأتناول البعض ،
ونشرب من الفنجان .

بعد نصف ساعة ، عندما كنت أقبلها ، شعرت أن تكثفاً
موهنًا يعتصم بصدغي وعيني . وأخذ إحساسي بالعالم الخارجي
يتقلص ، فنظرت الى ثريا ... واستغرقنا السرير .
وبعد دقائق أخرى - قد تكون كثيرة - استلقيت على
ظهري ، وأخذت يدي تلاعب عنقها بطريقة خالية من الإحساس .

- رأسي ثقيل .

- ورأسي ايضاً .

- متى ستذهمين ؟

- يجب أن أذهب الآن .. وسأعود قريباً .

نهضت فتمشطت ، وسحبت من حافظتها امرأة صغيرة
وشغلت نفسها بهما قليلاً ، ثم لبست ثيابها .

كنت مسروراً ، ورحت أراقبها بغبطة . تغطيت ، وتشاءبت
ثم انقلبت على جنبي . ثم سألتها :

- ثريا ، مبسوطة ؟

فانفجرت شفتاها - كنت أقبلها منذ لحظات فيما أعتقد -
وقالت :

- تمام من زمان بعيد وأنا أترقب هذا اليوم ..
لا أدري لم تأخرت ، ولا يهمني أن أعرف ... لكنني أرجو أن
يكون ضميرك قد مات .

سألها متثابراً : — هل تعتقدين أن ما فعلناه له علاقة بالضمير ؟

فغردت وهي تبحث في الغرفة عن شيء لا أعرفه .
— ضمير ، ما ضمير ، لا أعرف ... أعرف أنني سررت وتلذذت ، وشعرت أنني امرأة ، وكل شيء . وسأتيك كلما استطعت حتى أرزق منك بولد .

انتفضت من السرير وتأملتها باستغراق ودهشة ، ففتحت عينها تعجباً ، ووقفت عن الحركة .

— لا أريد أن تحبلي مني أبداً .. ما أحلى أن يأتيك ولد مني وينسب لصلعة هذا الأجذب ؟

فنهزت مؤنبة : — يا حبيبي .. الولد سيكون .. ولن يكون إلا منك .

ثم أضافت :

— أعتقد أن هذا الأجذب عاقر .. وقد يكون حيواناً .
لا يهم .. لا يهم .. سأتيك في مرة قادمة ، فأودع ضميرك بالبنك منذ الآن .. بئس الضائر الذي يديره زوجي .

وفتحت الباب . ووقفت عنده برهة ، ثم ابتسمت وودعتني .
وفجأة أصبحت الغرفة ساكنة ! . هذه الشيطانة ، متى نظفت وأزاحت الشاي والجوز ، ورتبت كل شيء !! ما عدا السرير .. إنه ما يزال فوضوياً ، تتكبدّه نضارة ثرّة بقيت منها .
تلمظت شفتي الدبقتين .. لم يبق من القبل شيء ! واتحت كل الآثار .. لبست ثيابي وانطلقت الى الجريدة .

٤

- هل أخذت ملاحظات عن الأستاذ ؟
 - كنت أتمتع بالنظر الى فستانك الجديد ، كيف يلتصق
 بك كأنه يغتم فرصته ، وكيف تبعدينه عند الصدر مرغما ،
 وعند المنتهى طواعية ، وتشدينه اليك بين بين كأنما ليحفظ
 سرا .

- أترى أن الطقس جميل اليوم ، يا إلهي ما احلاه !
 سعلت قليلا ، وتأملت الغيوم الخفيفة تسرح تحت السماء
 ثم قلت :

- لقد عوّدتني على الإعجاب به .. لم أكن أحبه سابقا .
 فضحكت ، ولمع بريق عينيها الخالد . ومرت سيارة

كاديلاك ، وتأملناها معا حتى اختفت .

- سأشتري لك سيارة كاديلاك .

- يا الله ، اشتغل ... ولكن لماذا تشتريها لي ؟

غمزتها بعيني فضحكت .

- وبيانو .. وآخذك معي الى الولايات المتحدة ؟

ضحكت ثانية : - متى تذهب للولايات المتحدة ؟

- الفلوس كل مشا كلنا . ولكن عندما نتخرج من جامعة دمشق العتيقة ، سنذهب .. سنكون متزوجين حتى ذلك الوقت .. وقد يكون لدينا ولد .. ما رأيك ؟ هل نمتنع عن إنجاب الأولاد بضع سنوات ؟ أم أن ذلك سيكون صعباً ؟ .. أجل ، فكلانا نحب الاولاد . قولي لي متى سأخطبك ؟ . لدي الآن ما يقرب من ثمانية ليرة ، بعد شهرين ستكون حوالي الألفين .. أوه .. سحب خاتم ! سأخطبك بعد شهرين .. بعد شهرين ستكونين لي ، ونذهب لحفلة .. تنكرية .. راقصة ، ناقصة .. وأمسكك من شعرك ، فأجرك كما تجر الحريم .. ستكونين طبعاً ديكولتيه .

كانت سحب تبسم وتنظر من النافذة بشرود . تأملت هذا الهيكل الحلو بنظرة موشورية وقلت :

- سحب ، أتعرفين أنك كعبة أنوثه ؟

فغمغمت دون أن ترفع عينيها عن النافذة :

- تلك هي مصيبتى .

شعرت بكلماتها تبشر أذني فقلت :

- ولكنني أحبك لأكثر من ذلك ، لطبيعتك ، ونوع تفكيرك في الحياة .

وهزّت رأسها نقياً ، وججعت ببعض الكلام ، ثم تنهدت وأعلنت :

- أما أنا فلا أستطيع أن أحب .. قلبي ميت .. إنه أسود من الفحم .

وكانت نظراتها لا تزال تشرد عبر النافذة .

- لا يهمك ، الفحم يتأثر بالحرارة ، سوف أحرقه من جديد بماطفتي .. اصبر عليّ شهرين فقط ، بعدئذ أتوجك .

وتقلّصت ابتسامتي اذ وضعت يدها تحت ذقنها ، وتبسّمت بشرود مستمرة في تأمل الشارع .

وتعالى فجأة صفير القطار الحاد يمزق السمع . وعندما انقضت ضجّته كان فائز قد جاء فحيّاً وجلس أمامي . ولم يضع الوقت عبئاً فبدأ يسأل عن « صحة الآنسة سحاب » وتتمّنها بالرحلة ، ولم ينس الدرس فانعطف نحوه . وأراد أخيراً أن يتطرّف فشم بعض الأساتذة ، واتّهم الآخرين بالغباء . شعرت حينذاك أن فائز حقير .

- أعتقد أن الآنسة سحاب قد قطعت شوطاً كبيراً في الدراسة .

وأكدت له الآنسة سحاب أنها ذاكرت البرامج ثلاث مرات ،

فما كان منه إلا أن أخذ يطري نشاطها من ناحية ويبين من ناحية أخرى صعوبة الموادّ مركزاً على «تاريخ اللغة الانكليزية» .
أمس كانت فائز يتهم سحب بحرق ما يدعو به بالحرمان .
وأمن خرقها بنفسه . عاشرت امرأة ليست زوجي لمجرد رغبتني
في ذلك . سوف يعده فائز انتصاراً عندما يسمع به : هذا الخرق .
ذلك لأن قانونه قد سنّه رجل مثل فائز .

وتقدّم فازداد انسجاماً مع سحب . كان يسألها كمتحرّرة ،
وينصت كمصلح ، ويعطيها فرصة كافية للكلام كمن يعطيها
بذلك حقاً .

— الفيلم جيّد .. لقد رأيته بنفسه .. وأعجبك فيما أعتقد؟

رفعت سحب رأسها نقياً ، قاستدرك :

— أعني هذا النوع من الأفلام اذا راعينا أنه خاصّ ،
ونظرنا له كمستمتعين ، يقدم لك شيئاً مسلياً . ألم تشعرى بذلك ؟
فهزت كتفها :

— انسحبت منه ، ولم أتمه .

غمزت بعيني لسحاب فابتسمت ، وعلقت :

— بلاغتك فاشلة اليوم يا فائز .. عندما تتكلم مرة ثانية
يا صديقي عن فيلم ، فلا تمدحه لمجرد أن حضرته فتاة تجلس
يحافبك .. ربما كان عليك أن تذكر أنها انسحبت منه ولم تتمه .
فجمعهم محمراً : — إذن فأذواقنا مختلفة .. فأنا قد أعجبني
الفيلم ...

وأُنقذه أن واحة حضرت فجلست بيني وبينه في بشاشة
مستحبة . وكان لا بد أن تشبك الالتهان بجديث ، ونحتفظ
نحن بالصمت حتى يحين تدخل فائز بينهما ، فيسأل واحة عن
الصحة وأيامها « وكيف الدرس » . وسرعات ما أفلح
فأخذا يتحدثان .

قربت جذعي من سحاب ملياً نظرة عينيها . فوششت :
— لماذا كنت قاسياً مع فائز ؟ .. أنت غاضب لا تزال ؟ .
فالبسنت وممت :

— إني أحتقره وقد أغاظني .

فردت باستياء ساخر :

— أنا أعلم أنه يفتابني .. ولذلك عاملته بهذا الأسلوب ..
ولكنك تضايقت منه لأنه كان يتحدثني وأنت لم تكن .. لا تنكر .
سحنتك مقلوبة : . ماذا جرى .. منذ حدثتك عن الرحلة
وأنت متضايق . وقد انزعجت انا نفسي يوم ذاك ، فلم أسألك
عن أحوالك .

أملت رأسي يساراً وقلت :

— لقد ماتت أمي .

فهزت رأسها قليلاً :

— البقية بحياتك .. أنت حزين ؟ . لومات أمي لما حزنت .

وددت أن أسأله عن شعورها تجاهي ، مع أن سؤالاً كهذا
ليس لائقاً . وفتحت فمي ولكن لأسأله عن رحلة مصر ، لعلني

أكتشف بعض الحقيقة عن أقوال فائز : اذا كان ثمة شيء
فلتخبرني به ، فليس أهون من الغفران ، لقد ارتكبت أمس
نفس ما ارتكبته في مصر ، ولم يكن ثمة من حساب . ولكنني
أغلقت فمي .

قطع انفرادنا سعال عنيف من واحة ، فالتفت نحوها بسرعة
لأراها تنظر اليّ بخشية ، نظرة من يتوقع عقاباً . واذ هدأت
مدّت يدها الى كتابها وسحبت منه ورقة ، تبينت فيها وصفة
طبية ، أعطتها لي . سألتها عن الدواء فقالت إنها ستشتريه .
أعطيتها الورقة وطمأنتها ، وطلبت اليها أن ترتاح ، فلا تسهر ،
ولا تتعب ، ثم قلت مازحاً : « ولا تشربي » ، فضحكت .
كانت سحاب تنظر الينا بعينين هادئتين ، وفائز يتأملنا يجمود .
أعلنت واحة أنها ذاهبة لتتمضمض ، فافترحت سحاب أن
تذهب معها .

كان عليهما أن تنزلا الى المقصف . وخلال غيبتها سألتني
فائز برصانة بريئة :

— بشر .. أين ذهبت وواحة ذلك اليوم ؟ ..

فنظرت اليه مؤنباً وقلت :

— هل تعتقد أنني آخذها الى بيتي ؟ ها قد أصبحت تشك
فيها كما شككت بسحاب ، فماذا جرى لك ؟ .. أنا لا أشك
بعفاف سحاب رغم أكاذيبك كلها .. يا سيدي لقد ذهبت
بها الى دار الطالبات ، لأنها كانت متعبة وقلت لها إنك تحبها

وتريد أن تتزوجها . والآن هل أرضيت نفسك ؟ . انبسطت ؟ .
هنه فائز بسرور مكتوم :

- يخرب بيتك ، ما أقوى عصيتك !... هل يعقل أن
أشك بواحة ؟ . لكنني رأيتكما تخرجان معا .. ماذا قالت
لك ؟ . أعني ماذا كان ردّها عندما أخبرتها عني ؟ .
حاولت أن أتذكّر ، فلم أستطع . لقد مرّت الحادثة دون أن
أنتبه لما قالت . وأعلنت لفائز أنه لا يمكنني التذكّر .

وأقبلت سحاب وواحة ، فأخذت أتأملها حتى وصلنا .
سحاب أطول وأملأ وأحسن ، وأروع عينين . اما واحة
فشقراء ، أرشق وأبيض ، و... هناك صفة لا يمكن حصرها بالجسم
والروح ، ولا يمكن التعبير عنها ، تلقاها لديها . وأخذنا
مكانها ، فبادر فائز ، كأننا سرّ مما أخبرته عن واحة ،
يفتح حديثاً اجتماعياً ، لم يطل بي الوقت حتى ملته ، فنظرت
من النافذة ، كانت سيارة اولدزموبيل ، طويلة سوداء لامعة
تقف قرب درج النادي ، فحوّلت عنها طرفي ، وتأملت
سحاب تصغي لفائز بانتباه ساخر ، تستند على راحتها بذقنها
المدبّبة الناعمة . شدّ ما هي جميلة ! ترى هل يمكن المقارنة بين
« فعلها » و « فعلي » ، وهل يمكن بعدئذ المقابلة بينهما ،
ومحوهما ؟ . ولكن سحاب لم تفعل شيئاً . من المؤكد أن إرادتها
تتحكم بها ، ولكن نزواتها لا تتحكم بتلك الإرادة .

ولكن لماذا أدخل من باب جانبي ؟ . إن الإرادة نزوة ، ذلك

لأنها عند سحاب ، متحللة من مفاهيم الإرادة التي يعرفها الناس .
هل تمكن المقارنة ؟ . ما الفائدة من إمكانها ، ما دمت
لا أستطيع ابتلاع حكمها ! إنها طبعاً ممكنة . ولكن هذا المجتمع
المليء بالتشويهاة وعقد النقص قد صاغ حكمه على هذه القضية
لصالحه ، وعلى أن أعتنق هذا الحكم ؛ وها هو الآن يغدو حكماً
لا يمكن قبوله ولا التخلص منه .

إن علاقه القبطان بسحاب ، بفضّ النظر عن كل تحليل
ومنطقي ، علاقة لا يمكنني أن أقبلها ممن ستكون هذا العام
زوجتي . غير أنه لا بد من الاعتقاد أنها لم تتعمق فتصل لمستوى
ما وصلت اليه علاقتي بثريا . ها قد عدت للمقارنة . لا بأس ،
لتكن علاقة سحاب بالقبطان كاملة ، فما هو موقعي ؟ .

سقط في أذني فجأة صوت مؤذن الجامع يتعالى « الله اكبر ..
الله اكبر » ، فبرزت رأسي . إنه لا يمكن الحكم بهذه الطريقة ،
ولو علم زوج ثريا بما وقع لها معي ، فلا شك أنه سيشوهمها ،
وسأكون أنا السبب ، وستكون معارضي لكل ما يتصرف به
مبادرة وعنيفة وقطعية .. لا أعتقد أن ما فعلته مع ثريا جريمة ،
ولا أعتقد أن ما فعلت بنفسها - لا : ما فعلته معي ! - جريمة
أيضاً . إن ما حدث بيننا - هذا الحادث العذب الذي لا ينسى -
قد تمّ بعيداً عن القسوة والإرغام .

كانت سحاب لا تزال تصغي الى فائز بانتباه ساخر . وخيل
إليّ أنها تنصت بطريقة ما لما كنت أفكر فيه . ترى هل تعرف

أنت ما أفكر فيه مريض وأنه بسببها ؟ . وما هو موقفها مما فعلته .. لا .. لا يمكن أن تكون قد فعلت شيئاً .

قد تفكر بتحرّر ، لكنها لن تستطيع تنفيذه .

هفت بفائز فجأة : - هل انتهى العلامة من محاضراته ؟ .

فردّد باقتناع باسم : - صحيح .. المجتمع لا يتقوم بغير أخلاق . لا بأس في أن تكون متحرراً ، ولكننا شرقيون ، نعيش مجتمعاً خاصاً .. عندك الآنسة واحدة مثلاً .. نموذج كامل ..

زفرت سحب وقالت :

- أنت تتكلّم كمشايعنا . كأنك لست مسيحياً .

كنت حينذاك أنظر الى رجل طويل ، كثّ الشاربين ، اكتنز باللحم وما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً ، يتقدم نحونا ويخصّ أحداً بابتسامة مطمئنة . وازداد اهتمامي به عندما ازداد اقتراباً . وتبيّن أن من الضروري أن أقنع أنه جاء إلينا .

نهضت سحب ببشاشة مفاجئة :

- أهلاً .. أهلاً ... تفضل . يا جماعة . أقدم لكم ابن خالتي :

المهندس موفق ، مدير السكك الحديدية .. هذه الآنسة واحدة .. والسيد بشر .. والسيد فائز .. زملائي في الصف .. أهلاً ، ماذا جرى للصور ؟ .

جلس القادم الجديد بيني وبين سحب . وبدوت يجانبه ، كأنني ابنه . طرفت عيناى بعيني فائز فقرأت فيهما معنى شديد الخصوصية . وحولت نظري للمهندس فرأيت يده تخرج من

جيبه رزمة ، ظهر انها مجموعة صور .

تناولت سحب الصور من يده ، وسحبت أولها ، فناولتها لفائز ، وفائز لواحة ، وواحة لي .

كانت الصور الاولى عادية . بالنسبة لي ، لكن سحب علقت عليها واحدة واحدة . ولما نزح ما يقرب من نصف المخزن ، وصلتني صورة شحنت صدري بالتوتر .

إنها أصابع ضخمة تمتد فتمسك امتداداً من الكتف حتى المرفق ، وتتصل حين تختفي خلف هيكل جميل بديع ، بيد غليظة ، ملتصقة في أعلاها بجسم ضخم ، حمل على رأسه عمرة مائلة ، أما الامتداد فصاحبته سحب .

رمت الصورة ونظرت الى الحديقة . كانت الاولدزموبيل ، لا تزال جاثمة قرب النادي . ثم تلقّنت عيناى الى واحة فرأيتها قد رمت الصور هي الأخرى . وراحت تتفرس بي بوجد عميق . ابتسمت ، فابتسمت وسرعان ما ارتبكت ، إن لواحة شعوراً لم يعد يخفى عني ، ويجب أن أنبها الى أنى لا أملك ما يقابله ، ولكن بطريقة لا تجرح شعورها .

نظرت ثانياه الى السيارة السوداء الكبيرة ، وابتسمت لواحة فسألتها :

— هل اشترى لك سيارة كاديلاك ؟ .

فابتسمت بعبور ، وعبثت بالصور أمامها .

— يالى ، يالى ، ما أحلى هذه الصورة . لم أكن اظن أنها

ستنجح ، ايه ما أحلى النيل .

تناول فائز الصورة ، ثم ناولها لواحة ، ثم انتقلت لي . ما أحلى النيل فعلاً : زورق محفوف بالماء والهدوء ، ومبطن بالروعة ، يضم السيد موفق ، وعازف كان ، وفتاة أخرى ، وسحاب بينهم ، وفي عينيها نظرة شريفة حاملة ، تمخضت عن ممزج من الحزن والفرحة والذكريات .

شعرت بتقلص مفاجئ في صدري ، وتأملت واحة بنظرة مقرفة ، فرأيتها تبتسم . حولت عنها عيني متعب الجبين ، وتفحصت فائز قليلاً . كان قد انسجم مع سحاب يتأمل الصور .

أما المهندس فقد اشرب من تحت رأسه تكتل ضخمة ، وراح يحملق بكل صورة تمسك بها سحاب باسم ، مرتكزاً على مرفقين جثا على الكرسي الحديدي تحته .

كان حتى ذلك الحين كل شيء عادياً ، غير أنه كان من الضروري أن أصرف هذا البخار المغيظ ، الذي احتدم في صدري وأخذ يتجشأ في حلقي .

نهضت بلا كلام ، فرفعت سحاب عينيها متسائلة ، والتفتت واحة بدهشة آسفة . ثم استدار رأس المهندس نحوي ، فطلب مني أن أجلس فنواصل الاستئناس ببعضنا .

ودعتهن بإبتسامة خامدة . وما لبثت واحة أن طلبت مني الانتظار ، ثم ودعتهن ، ولحقت بي :

— تعال خذ كتبك من دار الطالبات .

ابتسمت ووقفت حتى لحقت بي ، ثم خرجنا الى الحديقة معاً .
قلت لها بكثير من التحاشي والتغطية : - واحة ، ألا
تعتقدين أن فائز سوف .. يتضايق لأننا خرجنا معاً ؟ .

فهرّزت رأسها بغضب :

- الحياة قد تستطيع فرض بعض الأشخاص علينا ، لكن
هذا لا يعني أن نتقبلهم ..

ابتسمت حين علت نبرة صوتها ؛ ثم تابعت بهدوء سادر :

- بعض الناس يحبّون لا شك ، لكن حبّهم يكون أبداً
مقايضة . إنهم يريدون أن يستولوا على شيء ما ، دون أن يحقّ لهم
هذا الاستيلاء . ويدركون ذلك بأنفسهم . فيشعرون أنفسهم بأنهم
يحبّون ثم يقتنعون بأنهم يحبّون . وهم بهذا الحب لا يشعرون
بأي نوع من الإنسانية ، ولا بأي إحساس يرقى بهم عن مستوى
سوق الحميدة . وعندما يتأكدون أنهم قد أعطوا بديلاً لما
يريدونه ، يطمئنون ، ويحاولون فرض إرادتهم بطريقة ما ، لا
تلبث أن تفقد جاذبيتها وحيويتها لأنها لا تجد في قلوبهم نابضاً
يعطيها الحركة . إنهم يشعرون بزيغها ، ولذلك يتردّدون ،
ويرتبكون ، كما يفعل فائز معي . وقد يقاومون هذا الزيف ،
فيغازلون ، لكن غزلهم يخرج من أفواههم ، كما يخرج الهواء من
المنفاخ ، وينطلقون مع ذلك ، فلا يشبهون بانطلاقهم الا قطاراً
يسير على قضبي حديد . وهكذا تخرج كلماتهم خالية من كل
نكهة ، مليئة بالبرودة والغريزة . الى أقصى ما يمكن أن تحرك

في فتاة : غريزتها .. ولو كان فائز على قليل من الإحساس
لفهم كم ..

كان مسيل الكلمات من غم واحة البندقي يولد بي زخماً شعورياً
ضخماً . من المؤسف أن فتاة كهذه لم يعد بإمكانني أن أحبها .

بلغنا دار الطالبات ، فدخلت واحة ، وبعد قليل عادت
تحمل لي كتاباً ودقيراً :

• - لا يمكن أن أدعوك للدخول ، طبعاً .. مع السلامة .
فاعترضت :

-- و كذلك لا يمكن أن أذهب بهذه البساطة .. سأدخل
قليلاً ، فألقي نظرة سريعة ثم أذهب .

ومهمت بالدخول فصاحت :

- يا يسوع .. يا إله السماء .. أين أنت قادم ؟!

ثم ضحكنا ملء صدورنا .



٥

الباصات تعجّ ، وجرس الترام يقرع فوق قضبي الحديد ،
والرصيف يزدهم بالمعاطف ، وبائعي اليانصيب العراة . كل شيء
في حركة ، حتى أصابع الجالسين في مقهى « الهافانا » التي لا تني
تمسك النرد أو الحجارة .

- ألعب .. شيش بيش يلعب .. والفكر يقدح دخاناً .

- الحبّ مات ...

تدحرج النرد على الطاولة المربعة المرسوفة بأربعة وعشرين
مثلاً تشبه المسلات .

- العب .. لقد أرسلنا حبّنا إلى مقاهي دمشق . هل
تحركت من الخضراء ؟.

— من البيت .. مخفر الشرطة بجانب بيتنا .
تدحرج النرد مرة أخرى . وصرخ الندل السمين المدور
العينين : « واحد حلوة .. واحد وسط » . ما أشدّ تعب العمل
في الجريدة !

— ايه .. متحرّرة وبس؟! .. لقد كان القبطان قبطاناً فعلاً ..
كان يأتيني الصوت من وراء ظهري . التفتّ ببطء ، وتأملت
قائمة تتحدّب فوق طاولة نرد أخرى ، وتدير لي ظهرها .
الشعر خفيف ، والبذلة بنية ناصلة ، والحذاء أحمر صقيل .
— أنت لم ترَ شيئاً .. لقد كان عازف الكمان يعزف على
أوتار قلبها .

بدأت العقد تتكلّم .

— وعندما ركبا في زورق ، زورق طويل مثل الجندول ،
جلست تصغي كأنّها تتلقّي وحيّاً .
القائمة المتحدّبة لا تزال تدير ظهرها لي .

— لقد سمنت حياة التشرّد .. كلما جئت للجنوب
أو أردت الخروج منه ، ضيّعت خمسة أيام في استجابات تزقّ
الأعصاب ، إذالم أضيع أكثر منها في السجن .. شيش جهار ..
تصوّر أنه لكي تأتي من الخضراء لدمشق ، يجب أن تخرج جواز
سفر ، بينما لا يفعل أبو البشر ذلك ... يعود الإنسان بعد ثلاثة
أشهر الى قرابته ، فيفاجأ بأنّه ، حفظاً لنفسه ولقرابته ، مضطر
أن لا يزورهم . وعندنا في « اللديدة » يعيش الشعب بعيداً عن

هذه الضرورة : إذا لم تزره فأنت تعاديه ، وإذا عاديته خرجت
على المألوف فكسبت دفعة واحدة كثيراً من الأعداء ... بيش
دورت .. غلبناك .. رح انكبت .

— عاهرة .. وأبدأ عاهرة ..

متى يكون الإنسان شريفاً .. وكيف يمكن ؟ .

بعض الألحان ، برغم شيوعها واعتياد كل الناس عليها، تبقى
في الذاكرة رمزاً لأشياء ألصق بالإنسان من مجرد لحن أو أغنية،
وقد يحاول أن يحب غيره لحناً جديداً ، وقد يحبه ، غير أن وزنه
النوعي يبقى دائماً أقل من وزن اللحن الأول . كان المتحدث
ورائي ما يزال يعزف لحنه المفضل . وكلما عزف أحدث
في نفسي تضاييقاً عنيفاً ، وهزني حتى جعل هذه الغلائل العمياء
من العاطفة تبدو شبكة غبارية خائفة .

يمرّ اليوم حافلاً للدرجة التي ينسبك فيها أن البارحة لم تض
إلا منذ ساعات ، وأنت هناك غداً سيأتي بعد بضع ساعات ،
ويشعري أن سحاب لم تعد خطيبي ، بقدر ما صارت سحاب
الإمساخ الذي أصاب وجدان الناس حولي .. ليتركوا غيرهم
يعش كما أراد هؤلاء الذين يهاجمون الرجعية ، وينادون بالتحرر
والبعث .

نهضت أكظم غيظاً هادئاً ، فوقفت بجانب القامة المتحدبة .
انتبه دريد وصالح فأمرعنا اليّ ، وأمسكاني بساعدي ،
واضطراني الى الخروج : لن يكون شيء سوى الفضيحة .

سرت صامتاً ، وكذلك سارا هما الآخران . أخذت أضيّق ذرعاً بالشارع ، وأشكو من ضوضائه ، فاقترح صالح أن نتناول غداءنا في غرفتي . وهكذا قادتنا أقدامنا الى طابق ثالث على رصيف أحد الشوارع ، أسكن في غرفة منه .

فتحت الغرفة لهما وعدت الى مطعم « أبي عيسى » . وفي طريقي مررت بجانة فابتعت بعض النبيذ ثم عرجت للمطعم الصغير . كان مزدحماً كالعادة ، والطلاب يقفون في طابور طويل واحداً واحداً ينتظرون أن يأتي دورهم فيأكلوا . ناديت أبا عيسى عدة مرات ، فلم يرّد . أخذت من جيبي ورقة وكتبت عليها بعض أسماء المأكّل ليرسلها مع « علي » الى الغرفة . ومددتها له ، فتناولها تناولاً آلياً .

— مجنون .. والله لا أقبلها ولو انقلبت ذهباً .

تلقتُ جهة الصوت فرأيت صاحبه يشعل لفافة ، فاقتربت منه وأنا أحس بين عيني ظلاماً كثيفاً .

— ما هذه التي لا تقبلها ؟

فشرح لي :

— هذا الأهل ، يقول إن صاحب المطعم أمس قد أرغمه على

أكل صحن ملوخيّة ، وهو لا يحب الملوخيّة .

تراخت عضلات وجهي : « عفواً » واستدرت لأبي عيسى

فأشار لي أن انتهي كل شيء .

عدت الى الغرفة فوجدت دريد وصالح يقفان بالباب ، كل

على رجل واحدة . تأملتُها باستغراب ، فصرخا معاً :
— أبا البشر .. عندك عشيقة يا ملعون دينك .. يا بورجوازي ..
يا منحلّ .. يا عدمي ..

سألتها ما الخبر ، فوصفا لي ثريا ، وقالاً إنها جاءت تسأل
عني . ثم ألحّ صالح أن أحدثها عنها وعن حقيقة علاقتي بها .
— لاشيء ، نمت معها في أسبوعين متتاليين مرتين . وماذا
قلتما لها ؟.

فأجاب :

— قلنا إنك ذهبت تحضر غداء ، كنا نودّ أن نرى وجهها على
الأقل .. لكن جسمها فخم .. فقالت إن الماء سيقطع بضع
ساعات وأوصتني أن أقول لك لتأخذ الحيلة ، ثم عادت تتعثر
في مشيتها . أبا البشر عندك واحدة مثلها وتزوّج ؟ . أقسم لك
أني أقبل بها يوماً فقط عشيقة بدلاً من سنة أتزوّج بها غيرها
أيّاً كانت .

قلت معاتباً : — لا تنضمّ للقائمة صالح .. هناك كثيرون
يعرّضون بي وبها . لا تعتقد أنني سأنسحب .
قال دريد : — لكنك سمعت ما يشاع عنها ، ألم تسمع ؟ .
ما رأيك بعد هذا كلّهُ ؟.

ابتسمت بسخرية وتقدّمت للصنبور وغسلت يدي . وتابع دريد :
— إنهنّ لن يفهمنا بشر .. كلهنّ يبحثن عن عريس .. إن
أحلامنا وأبيات الشعر لم تعد تجدي . اتركها بشر ، ولا تكن

عنيذاً .. واحة أحسن منها . صحَّ أن واحة مسيحية ولكن
لا ضرورة لأن نتزوجها .. الزواج لا قيمة له ولا ضرورة . ألم
تقل إن المجتمع صفر ؟ ..

هزرت رأسي موافقاً وابتسمت :

— أنت تنسى أنني أحبها ، وتنسى أنك تجهل مدى حيي لها ،
وتعلقي بها .. إنها بالنسبة لي أبو هول جديد يقف رابضاً أمام
المسوخ ، فيتحدّى الزمن أربعين قرناً أخرى دون أن يستحيل
أو يتغيّر .

وغمرت لدريد بعيني : — إذا كانت غيداء قد خطبت ،
فهذا لا يعني أن سحاب ستخطب .. إنها لا تستطيع أن تعيش
مع غيري .. أنا أعرفها حق المعرفة ، ولنفرض أنها فعلت أيّ
شيء ، فهذا لا قيمة له . إذا لم يستطع وجودي أن يمنعها حتى
الآن بأن تعتقد أنها لي ، فهي معذورة . وتأكد أنها إذا خاتني
بعد أن نتزوج ، فلن أعترض عليها .. لكنني سأزوجها مهما
حدث .. حقاً .. بل ما أحلى ان المجتمع صفر . سأرى غداً
ماذا يقول هؤلاء المسوخ عندما تتأبط ساعدي ، وتسير بجانبني
كالبطة ، سعيدة ، مترفة الخطى .. ولن نطيل المكوث
في الجمهورية ، بل سنسافر لأمريكا لنكمل دراستنا ، ونعود لهذه
الجامعة أساتذة . المجتمع صفر .. لا تخف عليّ ، إنني أفهم كل
ما يدور حولي .

ذكرني صالح متلعثماً : — لكنها لا تحبك بشر .. هل لهذا

علاقة بالمجتمع صفر ؟.

مززت رأسي بلامبالاة . كنت موقناً أن صديقي قد مزّها .
وأن هذه ناحية لن يدركها صالح ولا غيره .
أقبل (علي) بالطعام . فوضعه على الطاولة ، وجلسنا
حوله .

- إنها لا تحبك بشر .. يجب أن تعي هذه الحقيقة . لو كانت
تحبك لما فعلت شيئاً في مصر .
ضحكت بعناد وبساطة :

- هل يعني أنني لا أحبها بعد أن اتخذتُ كما تقول عشيقة ؟.
مرحباً محافطين .. حتى كلمة عشيقة غير مقبولة . صالح ، يجب
أن تقترح أسماء جديدة ، لأن المسميات تغيرت ، أنا لا أعيش
بورجوازيًا ، ولا في ترف عاطفي ، لأتخذ عشيقة . هذه التي
أعشقها فعلاً ، وتمتيت أنت لو رأيت وجهها ، تحس بوجودها
وتحس أنها تفتصب منذ خمسة أشهر .. خذ هذه زجاجة لكل
منكما . لنشرب نخب المجتمع صفر .

استلقيت على السرير ، وبعد ثوان جاء صالح فاستلقى بجانبني ،
أما دريد فقد ذهب الى المغسلة أولاً فصوصن يديه وفه ، ثم جاء
فاستلقى بجانبني الثاني .

أمسك كل منا زجاجته ، ووضع فيها بين شفتيه . وأخذنا
نمتصّ منها بهدوء واستغراق ، حتى شعرت بعد قليل بتحسن
غير طبيعي يعمر صدري . تتم صالح بخفوت :

— يا إخوان ، لست أدري لماذا يحدثني قلبي .. ثمة شيء ما
في عالم الغيب .

أفقت عند المساء وكانت زجاجتي على صدري . نظرت الى
صالح ، كانت زجاجته مستلقية على صدره أيضاً ، وقد اندلج
كل ما فيها عليه . والتفت لدريد ، فعجبت أني لم أجد زجاجته .
فركت عيني جيداً ، ومددت يدي تحت الوسادة ، فاصطدمت
بالزجاجة الثالثة .

نهضت وأنا أحس أن بصدغي تكشاً ، فغسلت يدي
وتمضمضت ، وجلست أعد الصفحة الأدبية حتى استغرق الليل .
كان شعور طبيعي ، لا يزال يعمر صدري .

استيقظ صالح فرمقني بزاويتي عينيه ، وضحك ، ثم نهض :
— تم أباً الدرد ، درد ، تم .

ففتح دريد عينيه ، ونشم ، ثم ضرب أنفه باصبعه ، ونزل
عن السرير .

— وسخّمه ، يا ملاعين ، ماذا ستقول ثريا ؟ .

ابتسم صالح وهو يهز رأسه هزات قصيرة حاملة :

— قل لها إن ثورين عرباً قد ناموا عليه !

وخرجنا الى الشارع نتضحك ، وما لبثنا أن انضمنا
بصورة قطيعية لتجمّع وقف ينصت الى راديو أحد البقالين .
... ومدعومة بتأييد قبيلة (الحوالد) وسكان الجبال ، وهي
مسيطرة على المنطقة الجبلية كلها ، ومعظم الألوية الشمالية ...

سيداتي وسادتي سنوافيكم بعد حين بما يصلنا من أنباء .. »
انبعث في صدري لهب يوذّي عنيف الوهج ، فقبضت على
ذراع أحد الحاضرين أسأله عن الخبر :
- ثورة .. ثورة .. ثورة في بلاد السفوح الخضراء والعروبة
النائية .

كنت وصالح ودريد يجاني تشرب الحروف . قبضت على
ذراعيهما بعصبية وقلت إني ذاهب الى الجريدة ، ثم طرت عبر
الشارع .

كان مبنى الجريدة أشبه بخليّة نخل ، وسرعان ما وضعت فيه
بين النشاط الذي دبّ فجأة ، والحميّة التي عبثت حتى بالورق .
أخذت أصحّح الأوراق وأعدّ المقالات ثم أغدو للطبعة فأرى
عملية صفّ الأحرف ، وأعود فأكتب افتتاحية الصفحة الأدبية
عن الثورة ...

وكان مفروضاً أن نعرق ، وأن نسرّ بالعرق وأن نتحرّك
الأيدي فنشعر بأن هذا الشرق البعيد قد حرّرها لتمسح عن
جبيننا عاراً ، وأن هذه الأيدي قد لاقّت أخيراً المعول الذي
تفتح به كوة الحرية ، وتطلّ على الدنيا بصباح جديد .

بعد ساعة حضر الى الجريدة صالح ودريد ، فدخلا عندي
وأخذنا يسألان فوراً عن آخر الأنباء .

لكزني صالح بيده فالتفت اليه باسمي :

- اكتب أن طلاب الجامعة كلّهم يطلبون التطوّع .. أبا

البشر ، اكتب عنواناً كبيراً ، وطلاب الجامعة من الجمهورية العربية ، وغير الجمهورية .. اكتب ، لعينيك .. عاش صاحبنا !
شم دريد وضرب أنفه بإصبعه ، ثم ضحك بلا مبرر ، فأشعل سيكارة ، وأخذ يتجول في الغرفة .

وبين كلمات صالح المتدققة ، وعصبيّة دريد التي استهلكت علبه لفائفه ، بلغ الليل بنا الساعة الثالثة . كانت كل شيء قد اكتمل ، حتى الإرهاق . وعدنا الى غرفتي ، وانطرحنا على السرير والكنبات .

— لقد حدث شيء جديد يا جماعة .. لكنني لا أدري كيف أُعبر عنه ، وليس يهمني أن ينتهي الى نصر بقدر ما يهمني أنه حدث ، وأنه أثبت أن الناس ما زالو بخير .. يعيشون كرماء .. يا إلهي دعمهم ينتصروا . هذه المرة فقط .

تمطّى صالح ، ثم تنهّد وقام يغلي شايًا . تسطّحت على السرير منهكاً ، فأقبل إليّ دريد ، يرمقني شرراً ، ويضع أصابعه على وركيه ، ثم يأمرني أن أنفخ بالشبابة . أعلنت له أنني كسرتها ، فطّ رقبتة « كيف كسرتها ؟ ! » وازداد توتراً :

— كذاب .. لم بشر ، لم .. أسمعنا بالله لحنًا هكذا .. أنت تعرف ألحاني .. لحنًا فوق مستوى البشر .. اليوم مناسبة خاصة ، وأنا أحب أن أسكر بلا نبذ ولا بيرة .

تقلّبت على جنبي ودمدمت :

— كسرتها دريد .. كسرتها منذ يومين . اتركني فأنا متعب .

عندما أتعلم الاكورديون سأعزف لك ما تشاء .. وقريباً
سأتعلم . ولكن اتركني الآن فأنا متعب .

تقرّس بي دريد بنظرة كبيرة محزونة ، واستدار بطيئاً
مطرقاً الى كنبته فجلس :

— تلك كانت آخر ما أطرب له بهذه الدنيا . لقد فقدت
إنسانيتك بفقدها . كسرّها !! ولست أدري لماذا ، ولا يهمّني
أن أعرف ، ولكن المناسبة ستفوت دون .. دون .. كيف يمكن
أن تكسرها لتتعلم الاكورديون ! أبقيها يا أخي ، وماذا يضريك ؟
ستفوت المناسبة دون أن ..

وهزّ يده هزات عصبية متضايقة ، فقلت له .
— دريد ، الثورة لن تنجح ، دعك من المناسبة ، فهي ستضيف
لنا انهماكاً جديداً .

أقبل صالح مرعداً :
— روح انكبت . أتعرف ؟ . والله إن لم تنجح لأقطع رقبتك ،
أنت تعبان من الشغل ولا تعرف ماذا تتكلم .

لم أعد أعني من صالح كلاماً ولا من دريد ، فقد قتل رأسي
كالخذروف ، ونمت بسرعة وأنا لا أزال أتردي ثيابي .

في الصباح أيقظاني بقوة ، ففتحت إحدى عيني ، ورفعت
رأسي الى الأعلى . ولم تمض ثوان حتى ارتشقت حفنة ماء على
وجهي ، ففتحت العين الثانية وتأملت زائغ البصر . نظرت
الى الساعة « الساعة السابعة والنصف ؟ » وأطلقت لها شتيمة

ضخمة . وقفزت فاعتسلت وغيّرت ثيابي ، وانطلقنا الى الجامعة .

لم يكفّا طيلة الطريق عن الكلام . كان يبدو أن صالح قد أصيب بنوع من الهستيريا وأن دريد قد ذاب في بحر من الشعور . أخذ البرد يحتكر قدمي بصورة تحرق الأظافر ، ولما وصلنا للمقصف ، كنت أشعر أن أصابعي قد انفصلت عن قدمي ، وفي دقائق أفطرنا وصعدنا الى البهو . هناك أمسك صالح بيد دريد قليلا ، وصاح « علا » ثم أخذ يرقص دبكة جنوبية ، وشرعنا نرقص معه ، فتقدّمتنا حتى مدخل النادي ، ثم نزلنا درجاته حتى الساحة ، وهناك تابعنا الرقص . وفي دقائق تملكته النشوة فصاح « الى متى يصمت الشعب العربي » وعلا صوته بأغنية « علا » ، فجعلنا من أنفسنا كورسا وصرنا نردّد مقاطعه .

بدأ الطلاب يتوافدون ، ثم تدفّقوا علينا ، فشاركونا الرقص والغناء ، واتسعت الحلقة بسرعة وروعة . وبعد دقائق كان عددها قد بلغ المئات ، وصالح يتوسطها برقص منفرد ، وأناشيد كانت تخلق معه لساعته . وتأجّج الحماس ، فصارت ضربات الدبكة تختلط بالأغنيات وتشقّ سجع السماء .

بدأت أشعر بالتعب ، وصارت خطاي ثقيلة ، فأفسدت إيقاع الرقص . وهكذا انسحبت بهدوء وجلست على أحدمقاعد الحديقة حيث أخذت أسعل بين الحين والحين . انتظمت الحشود الراقصة أربعة أربعة ، تتقدّمها الطالبات ،

وترادفت في صفّ طويل ، خرج من الجامعة . كان صالح يتعالى
على أكتاف بعض الطلبة في المقدمة ويصيح :

بدنا ثورة تعجّ عجيج

من الاطنطي للخليج

ومن حلب للمحمية

كانت الهتافات تتبعه خشنة قوية من الحناجر . ثم ما
لبثت أن خفتت ، فتوارت عن مسمعي .



تمددت على المقعد ، وتسلسل اليّ النعاس . كانت صورة
صالح آخر ما فكرت به قبل أن أنام .

وبدا أن المصادفات قد حرّمت عليّ النوم ، فقد
أيقظتني واحة ولم أغف أكثر من ربع ساعة . سلّمت عليها ببشاشة
متعبة ، وقمت فسرت معها الى المقصف ، وجلسنا حول طاولتنا
المعهودة .

— لماذا لم يشترك المواطن الريفي بالمظاهرة ؟ .

— المواطن الريفي انحلت قواه وأخلاقه .

وأسرعت أحضر الشاي وأعود فأقول لها :

— اشربي من هذا الشاي الساخن ، لتصبحي أدفاً وأدفاً .

ارتبكت فتناولت فنجانها ، واحتست منه جرعة كبيرة .
كان الشاي حاراً ، فدمعت عينها فوراً ، فابتسمت ، ثم انفضّ
من فيها سعال عنيف متلاحق . ونهضت بسرعة فدخلت غرفة
المقصف الثانية ، أسرع اليها وقد توترت أعصابي ، وأخذت
أثأملها بحزن شديد . وبينما راحت تكحّ بعنف وحدة وقفت
بجانبا لا أريم ، وليس بوسعي أيّ عمل .

رفعت يدها الى كتفي ، فأطبقت بسترتي ثم شهقت وترنّحت
بسعلة ضخمة . رأيت فيها ينتفخ ويغلق ، فنظرت اليها وقد
جمّدتني الرعب . وفاجأتها سعلة ثانية ، فاضطرت الى أن تبصق .
وانقذت على الأرض كتلة لزجة قائمة الحمرة ، تأملتها واحدة
لثوان قليلة ثم تهاوت مغمى عليها .

التقطتها فأسندتها على الكرسي وعدوت الى صنوبر المقصف
فأحضرت لها إبريق ماء ، تضرّعت منه ثم شربت قليلا وألقت
رأسها على الجدار لاهثة شاحبة .

تقدّمت بالإبريق فصببت على كتلة الدم بعض الماء ، وسال
الخليط أحمر قانياً ، فبدا أنه سيلوّث أرض الغرفة . مسحت
السائل برجلي ، ووضعت منديلي فوق الكتلة ، ولففتها به ، ثم
حملتها . كانت قاسية الملمس بحيث توحى أنها ليست مجرد دم .
— سأتي حالاً .

وخرجت من الغرفة الى الساحة الأمامية ، فرميت المنديل
في مياه بردى ، وتأملته يطفو ، بعد أن غاص وشله فوق الماء ،

متلونا ببعض الحمرة هادئاً رصيناً متلوياً ، ثم يخفني تحت الجبيلة التي تجثم فوق النهر .

عدت الى واحة ، فرأيتها قد استفاقت . فتحت الباب الثاني وخرجت بها متابطة ساعدي .

— شدي حيلك . . لا تخافي ، سيتوقف الدم في بضع ساعات .
اعتبري ماصاري ولا تخافي ، أنت صحتك أفضل من صحتي ، ولن تمكثي في المستشفى سوى بضعة أيام .

نظرت اليّ كسيرة خائفة وتمتت : — كيف سأدخل الى المستشفى ؟!

— تعالي للطبابة .

وذهبتا للطبابة وهي تقع قريبة من المشافي ومديرية التسجيل معاً . وهناك انتظرنا الطبيب نصف ساعة . وبعد أن جاء ذكرت له ما حدث فأسرع يكتب ورقة إحالة للمستشفى .

— أهو تدرنّ يا دكتور أم التهاب ؟

— ستأخذ صورة شعاعية أولاً ، لقد جاءت اليّ منذ أيام ، ولم تذكر لي أنها تبصق دماً فأعطيتها وصفة . لكنها لم تستعملها فيما يبدو . هل استعملت الوصفة يا آنسة ؟

كانت واحة مقعضة العينين ، فرفعت رأسها نقياً . ونظرت اليها متعجباً ! لكنني لم أستطع أن أسأها سر ذلك . قلت لها :
إني ذاهب الى مديرية التسجيل ، لأخذ وثيقة تثبت أنها طالبة ، وطلبت منها أن تنتظرني حتى أعود .

وعلى الطريق عاد غموض قضية الدواء يحيرني . إن أباهما
راعي كنيسة ! ولكن ماذا يمكن لراعي كنيسة أن يعمل أكثر
من دفع نفقات تدريس ابنته ؟

حصلت على الوثيقة من «عبدالله افندي» بسرعة استثنائية .
وعدت لمحاسبة المشافي ، فدفعت خمسين ليرة تأميناً وأعطيت
الوثيقة وتقرير الطبيب . وهكذا أخذت أمراً بإدخال واحة
الى المستشفى .

وخلال عودتي ملأني غم عميق ، وشعرت بأني سأدخل
المستشفى لأحفر قبراً . وفي الطبابة كانت واحة لا تزال
تنتظرنني ، ونهضت اذ رأته ، فسرنا معاً للمشافي في الجهة
المقابلة للعيادة . وانعطفنا للقسم النسائي حيث استقبلتنا
مرضة متوسطة الطول والعمر ، فسألت عليها وأعطيتها الورقة ،
ثم قلت :

— هذه مريضة درجة أولى ، فضعيها إذا أمكن في غرفة
منفردة .

قادتنا الممرضة الى غرفة صغيرة تدخلها الشمس حتى الضحى
فأشارت الى السرير . والتفت لواحة فقلت :

— لا تهتمّي بشيء .. المستشفى كثير الراحة والهدوء ،
وسيعتنون بك فوراً . سأذهب الى دار الطالبات ، فأحضر لك
ثوباً وبعض الأدوات الأخرى . اجلسي على السرير ، وارتاحي ،
سأعود حالاً .

كان رأسي يطنّ كصناجة ، وجبهتي تنفقل . مشيت وكأن
بساقتي سلاسل . وبرغم قرب الدار فإني لم أعد إلا بعد نصف ساعة .
أعطيت لوحاً حوائجها ، ومجلة ابتعتها لها ، ثم استأذنتها
أن أذهب : « سأعود في المساء ، إن عليّ اشغالا » .

قلت مبتسماً ، فتأملتني بخجل ، وأشارت لي أن أقرب :
- والنقود .. كم دفعت نقوداً ؟ .

فابتسمت وسرت دون أن أتكلم . ودعتها مشيعاً بنظرة
منها قلقة صامتة كثيرة التعبير .

عدت الى غرفتي فنمت . كنت منهكاً فبقيت نائماً حتى
السابعة . وعندما استيقظت تغطيت كأن ثقلاً انزاح عن صدري ،
وما لبثت أن تذكرت الجريدة ، فساءني أنني ملزم بالذهاب اليها ،
وكان لا بدّ من الذهاب .

توجّهت أولاً الى مركز البريد ، فأرسلت لوالد واحة برقية
عن مرضها ، ثم ركبت الباص الى الجريدة .

ومن المكتب اتصلت بالمستشفى ، واستفسرت عنها فقالت
المرضة إنها أعطيت مقيئاً ، ودواء موقفاً للسعال ، وقد بقيت
كثيراً من الدم الأسود المتصلّب كتلاً كتلاً .

ألقيت السماعة ورأسي يدور : نفس ما مرّ بي . ترى ماذا سيحلّ
بواحة .. وانكبيت على المكتب أهيمه مهام الطبع ، التي
أنيطت بي .

٧

عدت الى غرفتي في الثانية فوجدت دريد وصالح نائمين على السرير بملابسهما . أعددت الشاي وبحثت عن قرص اسبرين فبلعته ، ثم جلست حتى غلى الماء ، فأيقظتهما .

— ما هي آخر الأنباء ؟

— الزحف الى العاصمة .

جلس دريد يفرك عينيه ، بينما قفز صالح وراح يرقص في الغرفة . تأملته بغبطة ثم صببت الشاي ، ودعوتهما للشرب . أقبل إليّ صالح وأخذ يقبّلني ويضحك بلا سبب . ونظرت اليه فابتسم . كان دريد ينقر برجليه على الأرض .

— صالح هل تذهب الى هناك ؟

فالتمتعت عيناه ونظر اليّ بتصميم .

— بسيطة نركب الباص الى حمص .. ومن حمص الى
البوكمال ، ثم نتخفى وندخل الحدود العراقية وتتابع من هناك .
وبعد تفحص سريع فائز حدث بين عيني دريد وعيني صالح
قررنا أن نذهب . لم يكن ثمة شيء للمناقشة ، فأخذنا نشرب
الشاي احتفالاً بالسفر السعيد . أعلن دريد فيجأة :
— تعالوا نكتب وصايانا .

ضحك صالح حتى تقوّس على قفاه ، ثم أقبل يهتّز نحو السرير ،
فانطرح عليه كأنما أخذته نوبة . وقام دريد بصمت وهدوء ،
فأخذ ورقة من دفتر رسائلي ، وجلس الى الطاولة ، وراح يفرك
صدغه مرة ، ويكتب مرة أخرى .

ثم وضع يديه في حجره وقال ، وضحكته لا تزال تذرّع
الغرفة جيئة وذهاباً :

— أوصي بنيابي الملوثة بالدم لمتحف دمشق ، وبنيابي التي لم
تلوث لصاحبنا . ولست أملك غير الثياب .

وأطلق قهقهة . التفت اليه دريد ، وطلب منه أن يهدأ
ليرتّب أفكاره ، فانطلقت ضحكته أعنف وأقوى وأكثر تردّداً .
نهضت ، فأحضرت الدفتر ، وجلست على الكنبه . كتبت
اسمي والتاريخ ، وألحقتها بكليشه « أنا الموقع أدناه » ثم وقفت .
لمن أوصي ؟

معى ألف وخمسة ليرة — لقد نقصت أمس خمسين ، لا بأس —

فلمن أوصي بها؟. سحاب؟. لندعها الآن جانباً . من المؤكد أن ليلى تستحق حصّة : حصّة لليلي .. خزامى؟. لست أدري ، إنها تشغل وعندهازو جها . قليل لخزامى . والباقي؟. لأحسب أولاً كم سأعطي لليلي ولخزامى . خمسمئة مثلاً لليلي؟.. لا بأس . ومئتان لخزامى ... وحوالي مئة ليرة لبنات أخى الثلاث .. والباقي؟ بقي سبعمئة ليرة . لنر .. حسناً اربعمئة منها لسحاب ، والباقي لواحة ثمن دواء وطبابة .. جيّد ، ها قد انتهينا من النقود .

كسبت وصيتي ، ووقعتها بوضوح وأناة ، ووضعتها في مغلف أزرق ، تأملته قليلاً ، ثم أسندته على الطاولة بعناية . واستلقيت على الكنب وأطلقت زفرة طويلة ، ثم أغمضت عيني . استيقظت في العاشرة ، فرأيت صالح يخلق . ودريد لا يزال نائماً . حدثت بصالح منحرف الرأس :
- لماذا تخلق؟.

- لنستقبل الموت بأناقة . هل أفاق دريد؟.

ضربت دريد على كفله بضع ضربات فاستيقظ ونهض ، وأصلح من شأن ثيابه : « الوصية على طاولتك » وتقدّم فغسل وجهه وسرح شعره ، ثم التفت لصالح وتقرّس به باسماً ، وقبله .. - آي .. عاش صاحبنا .

أشعل دريد سيجارة : « صرت مدمناً » وأخذ يتمم بكلمات غامضة . وراحت حلقات الدخان الفاتر تخرج من فمه

يهدوء حتى أنهى صالح حلاقتَه وقال « هيا يا جماعة » . وتقدّمتنا الى الباب ففتحناه ، وتطلّعنا نرمق الغرفة بوداع .

— ستأتي ثريا غداً فتجد الوصية .. سأترك الغرفة بلا إقبال .
خرجنا الى الشارع فسرنا بخفة وكثير من الكلام . وبعد دقائق وصلنا « للمرجة » وحجزنا ثلاثة مقاعد ، ثم طفقنا نتجول بانتظار حلول الميعاد . قلت :

— يا أخي .. ألن نودّع أحداً ؟

فقرر صالح بسرعة :

— أبداً .. ولا أيّ إنسان .

وخيم الصمت فجأة . سرنا حتى « الحميدية » ورحت أقرّس بازدهام الناس عمداً كأنني لن أراهم بعد . وعدنا من شارع آخر أخذت أتحسّس حيطان عماراته بلذّة عابثة . ثم انتهينا الى المرجة ونحن لا نزال صامتين .

اقتربنا من السيارة ووقفنا .

كان الرجل يغلي ، والمحرك يشخر برتابة .. هذه السيارة ستقلّنا الى حمص ، ومن هناك الى البوكمال . أشعل دريد سيكارة وأخذ صالح يهتّز على كعبه .

كان الركاب يصعدون ببطء ، والسائق يستند على المقود ، ويشرب من فنجان شاي . معاون على ظهر السيارة يحزم الأمتعة ؛ لم يكن معنا أمتعة . وحولنا يتصايح باعة الفواكه ، وصبيبة يحملون جرائد متنوعة . ابتعت « جريدتي » . وأخذت أقرأ بلا

تعيين . « الزحف على العاصمة . » وبعد قليل تركتها ، ورحلت
أتأمل الساحة الصغيرة بلا اكتراث .

الرجل ما يزال يغلي ، والمحرك ما يزال يشخر . انتهى
فنجان الشاي ، رفعه السائق بيده ، أخرجه من نافذة صغيرة
يحاذيه . امتدت يد فتنأولته . بعد ثوانٍ أرجعته مليئاً . تحركت
يد السائق فأعادت الفنجان الى مكانه . استلقى على المقود ثانية .
— ركاب حمص ... ركاب حمص .

أقبل شرطي فرّ من أمامنا وسار . الباعة ما زالوا
يتصايحون ، والمارة يتدافعون بأكتافهم وأيديهم دون وعي .
— تمسح أستاذ ؟

فمد دريد ساقه .

وضع صالح أصابعه تحت إبطه ، وأمسك بيده الأخرى
ذقنه . شخر المحرك شخرة قوية ، ثم عاد لسيرته الاولى .
فرغ الفنجان الثاني . امتدت اليد اليه وعادت بالثالث .
— متشكر أستاذ .

أنزل دريد ساقه الثانية .

شخر المحرك من جديد بقوة واستمرّ على نفس المستوى .
أطلت بعض الرؤوس من نوافذ السيارة ، وبقيت أخرى
في الداخل .

— ركاب حمص ، ركاب حمص .

نهض السائق عن المقود ، وأمسك بكلمة حديدية ، تتوج

قضيباً حديدياً وأرجعها للوراء . شخر المحرك برتابة . بر بر بر
بر بر بر .

تزلزلت الدواليب بهدوء ، وتقدمت السيارة بهدوء .
- مسكة .. شكولاه ، أستاذ .

تمطت السيارة ببطء ، ثم أطلقت هدرة مشبعة بالدخان
وانطلقت . ومّر المحرك من أمامي ، فالباب ، النوافذ ،
الوجوه .. المؤخرة .

امتدت من عيني صالح نظرة مبتسمة تفيض حرجاً . هزرت
رأسي وسرت ، وسارا معي .



الفصل السادس

- استعملت حتى الآن خمس زرقات .. في عشرة أيام . لقد توقفت عن السعال منذ اليوم الثالث كما قلت لك ، فأخذنا لها صورة . وقد رأيتها مع الطبيب . وستخرج لتعيش في الجبل ما يقرب من نصف سنة . يجب أن تؤمن لها كل الراحة والهدوء ، والتغذية الجيدة .

شكرت الممرضة ودخلت الغرفة ، فحييت « الراعي » الجالس صامتاً حزيناً بقرب السرير . واعتدلت واحة في جلستها وتبسمت ببطء ووداعة .

- أصبح أنني سأخرج من المستشفى ؟

- أجل بعد ثلاثة أيام . وستذهبن الى مكان ريفي هادئ

ترتاحين فيه ، وتتناولين دواءك .

نظرت واحة الى أبيها بحنان ثم تلفتت الى وقالت :
- أتعرف أنك أعجبت أبي كثيراً ، حتى لقد تمنى أن
تكون مسيحياً .

وغرت أباها بنظرة حبّ كبير .

ابتسمت ، فجلست بجانب رجل الدين الصامت المبتسم
أيضاً . كانت ثيابه السوداء ، تمتدّ تحت ذقن طويلة بلون
الياسمين . ومدّ يده فقبض على معصمي وقال : « رعاك الله
يا بني .. الأديان لا تهتم » .

مكثت قليلاً أتناوب النظر مع واحة وأبيها ، ثم أطرقت
نحو السرير . تكلمت مع « الراعي » قليلاً ، ثم استأذنت
بالخروج . وأوصلني والدها الى الباب بينما ودّعتني هي بلهفة ،
ونظرة طويلة لم أستطع تحملها .

لقد زحمني الزمن . ومن يعلم أين سحاب الآن ؟! . منذ
أسبوع لم أرها . الجريدة والثورة ، وخطابات رئيس الجمهورية ،
وثرثيا . ما أقسى ما يعيش الإنسان ، وما أكثر ما يضيع من
حياته . منذ أسبوع وأنا أعيش في حلقة مفرغة من مراوغات الحياة .
دخلت الجامعة ، وبحث عنها في الحديقة ، فلم أجدها . ولم
تكن كذلك في المنتدى ، ولا في المقصف . عدت الى المكتبة
فلم أجدها أيضاً . وهكذا أسقط في يدي .

جلست على أحد مقاعد الحديقة متعباً ، منهّداً ، متلاشي

القوى . وكرّث عشرة أيام من الزمن من مخيّلي ، فانقطعت عما حولي الى تذكرها وإحياء احداثها .

لقد اختفى صالح . اختفى عندما سمع بذبح قائد الثورة . وبعد أيام سمعت أنه ذهب الى الجنوب . ومنذ ذاك انقطعت أخباره ، فلم أسمع أحداً يتكلّم عنه .

وجاءت اليّ ثريا منذ خمسة أيام ، متعطّرة ، متجمّلة ، وأغرقتني بمزيج من أريج القارورة وأريج الجسد . لقد كان مجيها ذاك المرة الثالثة التي ألّقي بها فيها جساً لجسم . وشدّماشعرت بعد نهاية اللقاء أنّي غدوت حيواناً . وأن بعض اللحظات التي مرّت عليّ قد أفقدتني الشعور بالعالم الخارجي ، فامتنعت عن التلقّي الحسّي لأي شيء آخر امتناعاً مطلقاً . وبرغم محاولتي العنيفة لكي أقبلها بعد « اللقاء » ، وأخفّ بالتدريج من احتدامها ، فقد كنت أتفتّت بقرف هائل ، لا يعدله سوى خمودي بعد اللقاء ، وتهافتني قبله . وكنت كلما سمعتها تقول إنها تريد أن ترزق مني بولد ، صرخت بوجهها كالوحوش لأمنعها عن الكلام . كان مجرد التذكّر بأن « ابني » سينسب لغيري كافياً لأن يجعلني أحتاج . وكان يزيدني تهيجاً أنها لم تكن تعبأً بصراخي ، بل تأتي اليّ وتسلبني هذا الصراخ بالتحام قصير .

وفي المرة الثالثة ، شعرت أنّي قد صرت حيواناً من نوع جديد . كنت أقبل ثريا بهدوء قبلاً طويلة كأنما أتمرّن على إيجادتها وأحسنّ بالتهاب في صدري ، فأطبق عليها بقوة ، وأزداد تضمرّاً .

ولقد فقدت بسبب ذلك الاهتمام بكثير من الأشياء . لم يعد
يسترعي انتباهي أيّ حادث أو قضية . والأشياء الثلاثة التي
كانت تفرض عليّ نفسها هي ، سحب وواحة والجريدة : سحب
لم ألتق بها منذ أسبوع ، ولقائي بواحة كان يتمّ مجلوداً بسيّاط من
حزن ، وأما الجريدة فكانت تعني بمجرد تذكّرها : الإرهاق
وذوبان القوى .

وكنت دائم البحث عن سحب ، وقد أعلمني فائز أنها
صباحاً تأتي الى الجامعة ثم تغادرها ضحى فلا تأتي إلا في المساء ،
ولم يكن بالطبع ممكناً أن ألقاها في تلك الأوقات ، كما لم يكن
ممكناً أيضاً أن أذهب الى بيتها ، فأنا لا أعرفه .

وكان مجيئي اليوم فشلاً آخر في العثور عليها . وزادني
الفشل تعباً فاستلقيت على المقعد في تراخٍ وكسل . ورحت
أتمثل البعد بين بيتنا عند (المجتهد) والمثدنة الرمادية العتيقة ،
وبيني الآن . ورميت رأسي الى الوراء ، كأني أنقض
منه نوعكاً .

من بعيد كان دريد يتهادى بقامته الطويلة الناحلة ، ويمسك
بيده سيجارة . وتأملتته حتى أقبل اليّ ، فرفع يده بالتحية دون
كلام ، وانتظر حتى اعتدلت على المقعد فجلس يجاني .

استمرّ يرضع سيكارته بصمت ووجوم ، وينفض رماده حتى
انتهت . ورمى عقبها على الأرض فداسه ، ثم التفت اليّ وقال :
— أتريد ان تسمع شيئاً عن صالح ؟ .

حدقت به وقد تفتحت مسام جسمي فوراً وكلية .

— عندما ذهب الى الجنوب ، دخل الى الخضراء دون أن يعلم عنه السلطات . وبقي متخفياً يومين حتى تأكد من أن أحداً لم يش به أو يشعر بوجوده . ثم حاول أن يتصل بالحلقات السرية للحزب العاملة من أجل الانقلاب . وكانت الخطة أن يغمروا الخضراء والمدن الرئيسية ، بمناشير تهاجم السلطات هجوماً عنيفاً ، ثم يحدث ضباط الجيش الانقلاب .

وقد أوكل أمر المنشورات الى صالح . ويبدو أنه كان شديد الحماس فغمر الأسواق بها فعلاً ، لكنه ارتكب غلطتين : أرسل رفاقه يوزعون في النهار ، ثم ذهب يوزع بنفسه طيلة يومين كاملين بلا انقطاع ، حتى جاءه الأعراب .. لم يستطع الهرب منهم بالطبع فقبضوا عليه .

صمت دريد قليلاً فأشعل سيكارتة وأتم :

— قلعوا أظافره .. ربطوه بأحزمة تمنعه من التفتوط والتبول .. سلطوا عليه الأضواء بمنتهى الشدة كضوء آلة عرض الأفلام . ولقد قال الضابط الموكل بتعذيبه — وقد قصّ لاهل صالح ما جرى ، وطلب منهم أن ينقذوه — إن ذلك لم يؤثر على صمته أبداً إذ رفض أن يفوه بأية كلمة ، وقد أدى تدخل قرايته الى أن أوقفوا تعذيبه وأرسل « للعمقة » على الحدود .. أنت تعرف العمقة : باستيل جديد .

ومجّ من سيجارته نفساً طويلاً ، ثم أخرج الدخان من فمه

بقوة محرقة :

— الحياة لا تطاق في كل مكان .

ونفض يترنح في مشيته مطرق الرأس هادئ الخطى .

بعد قليل نهضت فبحثت عن سحاب مرة أخرى ، ولما لم
أجدها توجهت الى المستشفى . والتقيت ثانية بواحة على فراش
المرض . لكنني لم أطل الجلوس ، فقد شعرت أن ولادة شيء
جديد في صدري قد تمت دون أن أعي .



كان إحساس بالنعومة والطراوة يسري في أعصابي ، فأشعر له
بكثير من الارتياح . وأفقت لأرى ثريا يحاني ، تسح براحتها
البضة الناعمة وجهي ، وهي تجلس على طرف السرير . ابتسمت
ثم انقلبت على جنبي الثاني مغمغماً بصوت متناوم . انتقلت ثريا
الى الجانب الثاني وأخذت تتابع تسحها . فتحت فمي وعضضت
إصبعها فانتفضت بضحكة كبيرة ، ثم ازدادت تعابثاً . جذبتها
من يدها فوقعت فوق السرير ، وقبلتها .

— ثم سأخبرك شيئاً .. قم اغسل وجهك ، وسأعطي لك شايًا .
نهضت أعبث بشعري الى المغسلة ، فرشقت على وجهي بعض
الماء وتسوّكت ، ثم تحاملت الى الكنبه فانطرحت عليها

وتناولت صحيفة عن الطاولة أخذت أقرأ فيها .

— ماذا ستخبرني الخاتم ؟ .

تركت السماور وتقدمت الى السرير ، فجلست عليه باسمه .
رفعت رأسي اليها بجملة مرحة ، ثم انكفأت أتابع قراءة
الصحيفة بتقصّد ، دون أن أخصّها بأيّ اهتمام . ونهضت الي
فانترعت الجريدة ، ووضعتها خلف ظهرها .

— احزر !

— هيا تكلمي ، لا تطلعي روحي .

— مرّ الميعاد أمس ، ولم يحدث معي طمّث .

استغرقت بقراءة الجريدة قليلاً ، ثم سألتها بأقلّ اهتمام :

— وبعد نذ ؟ ماذا يعني هذا ؟ .

— يا حبيبي .. قال طالب جامعة .. معنى هذا أني حبل

يا أستاذ .

أحسنت أن دبّوراً قد عضّني . رفعت اليها عينيّ معقود
الحاجبين ، وحدجتها باستغراب ، ثم تراخى تقطّبي ، فرحت
أحملق فاغر الفم ، حائراً ، متفرّساً . ونظرت الى بطنها : إنه
هو هو ، لم يتغيّر .

— كيف .. حبل ! كيف عرفت بـ... .

وعدت أحملق بها يتنازعني شعوران سلبان يتضارباني
كحجري رحي : شعور غريب بالفرح ، وشعور فظ بالثورة .
— ومن قال لك إنه ابني ؟ .

فأسرعت تؤكد مرحلة ضاحكة :

- أجل ، أجل .. اسكت ، إنه ابنك .. إنه يقول لي ذلك .

- ولكن اصبري حتى تتأكدي أنه صبيّ !!.

فهزت رأسها بفرح غامر ، وهرعت الى الشاي . فاطفات النار ، وجاءت تتراقص جذلي ، باللغة العذوبة .

نظرت الى بطنها بريبة كنت أحس بضرورتها . أحقاً هنا تستقرّ نواة سوف تصنع في المستقبل ولداً ؟. هذا يعني أنني صرت أباً بالضرورة ، وغداً عندما يولد صبيّ صغير ، كيف يمكنني أن أتوارى من حياته ، وأتركه ينادي هذا الأصلع البشع « بابا » ؟! إن هذا ليس معقولاً !.

إن ثرياً تكذب ، يا لها ، وليس معقولاً ان ينشأ « ابن » ثمة لثلاثة لقاءات .

- ثريا ، اسمعي : إذا كنت حقاً حبلى فسوف أجهضك . تعالي اجلسي على السرير . فليس أنا من سيجهضك . اسمعي ، إذا كان معقولاً أنه .. أف .. اذا كان صحيحاً أنك حبلى ، فيجب إجهاضك . سوف يأتيك أبناء في المستقبل ما شئت . أما أن يأتيك ولد مني وينسب لزوجك ، فهذا لن يتم . أحقاً أنه مني ؟ .. قولي أحقاً انت حبلى ؟.

كانت ثريا تضع يدها فوق فمها وتتأملني فاغرة العينين :

- أنت مجنون ! ستقتل طفلاً بريئاً بسبب ذلك ؟! هل تفكر فيما تقول ؟. إجهاض ..!

قلت بإصرار :

— أنت حبلى حقاً؟.

فنهزت : — أنت ما دخلك ؟. أجل إني حبلى .. ولن تفعل شيئاً معي .

كان صدرها الرحب يهتز تأثراً وهي تستند على الجدار .
حركت رأسي بقنوط ، وعدت أنأملها بقرف ناثر .

— ثرياً أنت لا تفهمين .. أنت فقط لا تفهمين .. تصوّري أن زوجك انتزع منك هذا الولد .. طلقك ، طردك ، عمل أي شيء فأبعدك عنه .. فهاذا تفعلين ؟. هل تجدينه منطقاً ، هل تجدينه معقولاً أن تُحرمي من ابنك ؟. تكلمي .. هل تقبلين لو وقفت الدنيا بوجهك أن تتنازلي عن شجرة منه ؟.
رفعت ثرياً رأسها بكبرياء مهزومة ولم تجب .

— إنه ليس معقولاً .. قولي إنك لست حبلى ثرياً .. لا تخضي أعصابي .. قولي إنك تحسّين النبض ، لتعرفي تقبلي للفكرة في المستقبل .. قولي ذلك وسأحضر دواء من رفاقي بالجامعة يمنع الحبل في المستقبل ، فنقضي على هذه المشكلة .

— كلا ، لن أقول .. إني حبلى .

غغغمت مهزوماً أنا الآخر : — يا إله السماء .. لقد أوقعيني في مشكلة لا يمكن التغلب عليها .. ابني ، من أعصابي وذرات جسمي ينسب لغيري ؟

ارتفقت بالكنبه ، وغطيت عيني بأصابعي ، وشعرت

بدوار ثقيل . كيف يمكن أن يحدث هذا !

أحسست بثريا تقترب مني ، تصبّ الشاي في الفنجان :
اشرب الشاي .

رفعت يدي عن عيني فتناولت الفنجان ورشفت منه قليلاً ،
ومكثت أحمله برهة كأني متخدر ، ثم وضعته على الطاولة ،
أُتجول في الغرفة .

وأحسست بها ثانية تتبني أنى سرت ، فوقفت ونظرت
إليها . وحدقت بي ضارعة العينين ثم قالت :

— بشره لا تكن قاسياً . سوف أربيّه على أن يحبك ،
وسأقول له عندما يكبر إنك أبوه ، سأعلمه كيف يتصرّف
مثلك ، ويفضّب مثلك ، وأعوّده على أكل العصص وكل شيء .
وأجهش صوتها فأطرقت ، وخرجت كلماتها تتملّص من بين
الدموع وتوحي بتقطعها وبلاغة تأثيرها . إن صاحبته لا تتكلم ،
بل تتلاشى :

— أنا أحبك بشر .. فلا تكن قاسياً . لماذا تتمسّك به
هذا التمسك ؟ افرض أنك رحمت للحرب ، وتركته عندي ..
لو ذهبت لأيّ مكان .. لأمريكا .. كما تقول ، ألن تتركه عندي ؟
عندما يكبر سيعرف أنه ابنك ، بشر ، صدّقي ، وحياتك ،
والله ، سيعرف أنه ابنك .

قاطعتها بعصبيه مشمّزة .

— اصمتي ثريا .. اصمتي . إنه يستعصي عليّ أن أصدق أنك

حبل . يستعصي ، لا أدري لماذا . صحيح أن بعض الناس يفعلون مثلنا ، لكني لا أعلم كيف يتصرفون ، ولا أريد أن أعلم . أنا أعرف فقط أنه شيء غير طبيعي ، غير معقول .. افهمي هذا الشيء .

اقتربت ثرياً مني ببطء وإطراق ، فانضوت تحت ذقني ، ودموعها تنسجم فوق خديها بمسيل للماع . أمسكت عنقها بأصابعي ورحلت أتحسسه .

— انا لا ألومك .. ولا أدري إن كان ينبغي أن ألوم نفسي .. غير أننا نواجه وضعاً لا يمكن مواجهته ، لا قبل لي بمواجهته .. كيف أجعلك تفهمين؟! غداً عندما يكبر بطنك ، وتحسين بالفرحة انتظاراً لمولود جديد ، لن تفكري بأن بريئاً منذ جاء الدنيا زُيِّف أبوه .. يا إله السماء! تخيلي ذلك فقط !

تحوّلت عني بهدوء ، وتقدّمت نحو الطاولة ، مطرقة باكية ، فأمسكت جزدانها وتمتت :
— هل أذهب ؟ .

نظرت إليها ببلاهة :

— أين تذهبين ؟ .

فرفعت عينيها بتساؤل خنوع :

— إليه ؟ .

نحرت ، وسرت في الغرفة جيئة وذهاباً ، وفي نفسي طمي عصبي حادّ . وعدت أشعر أنني متعب ، شديد التعب ، فتقدّمت

الى السرير وتسطحت عليه :

- هل أذهب ؟ .

- كلا .

وأقبلت اليّ بهدوء ، فدحلت يميني ، والقت رأسها على
يدي ، وراحت تقبّلها .

- هل ستسقطه ؟ .

فتضّيت عيني سخرية : - ألم تقولي إني سأقتل بذلك
نفساً بشرية ؟! هل يمكن أن أسقطه .. سوف ينمو بالطبع ،
سينمو مزيف الأب ، وسيحبّ إنساناً لا يمتّ له بصلة ، ويناديه
« بابا » ..

نهضت ثريا عن السرير منكسة الرأس ، وعلقت جزدانها
بساعداتها ثم خرجت .



وبقيت وحدي بعض الوقت ، فتقلّبت على السرير وكأني في
بحران ، ثم نهضت . كان رأسي يدور وأعصابي متهالكة . لقد
تركت ثريا في ذهبي محرّكا .

خرجت الى الشارع أسير بخطوات صفراء . ووصلت متجراً
للزهور ، فاستندت على جداره ، التقط أنفاسي وأشم رائحة
ذكية . كان عرير الحافلات والحركة التي لا تفتقر يلاً ان الشارع
صخباً وضجة .

ومرت من أمامي سيارة اولدزموبيل ، ثم وقفت عند
تقاطع الشوارع تنتظر إشارة المرور . كانت السيارة سوداء
برّاقة طويلة ، رحت أتأملها فارغ الذهن .

وفجأة طرفت عيني بشعر أسود تجلس صاحبتة في مقدمة السيارة ، فضرب قلبي بلا سبب . ولكني تبينت ، إذ حدثت أن سحاب تجلس فيها منتصبه الظهر ، تميل الى اليسار كي تتمكن من رؤية شيء ما . وحملت بالسائق ، فلم يطل بي الوقت حتى عرفت فيه ابن خالتها .

أعطيت للسيارة إشارة مرور ، فانطلقت . وتابعت مسيري عبر شارع فرعي . كنت أشعر أن رأسي قد يتهاوى عن كتفي في أية لحظة ، وأن في جبتي احتداماً يكاد يشقّ عظامها وينفجر . وعبثاً حاولت أن أبعد عن ذهني صورة سحاب ، أو أوّجّل تفسيرها . غير أنه كان لا بدّ من الاعتراف بأنني تضايقت ، وتلك صورة لم أدر كيف أفسرها .

من الواضح ، حتى الآن ، أن شيئاً غير الإرادة الواعية يتحكّم بسحاب . وحتى إذا كان الحكم عليها بأنها سوّية أو غير سوّية ممكناً ، فذلك شيء لا قيمة له . السؤال هو : هل أتزوجها بهذه الكيفية ام لا ؟ والجواب محير .

- إنها لا تزال تأسر حواسي وتثير بي نزعة عاتية لأن أعيش ، بأيّ مستوى ، وبعكس أيّ مفهوم ، معها . غير أنه لا بدّ من أن تكون لي بعد الزواج ، وإلا فما الفائدة منه ؟!

جلست على عتبة عمارة ضخمة ، تنهض في شارع منزو ، واستندت الى الجدار مرهقاً .

بعد قليل حرّكت قدمي نحو المستشفى .

٤

كانت واحة نائمة ، وأبوها يجلس بجانبها شاحباً بالغ الحزن .
وأوحى إليّ الجوّ فور دخولي ، بأن شيئاً ما قد حدث ، فتطلّعت
إلى رجل الدين الوقور ، وسلمت عليه . سأله عما حدث بكلمات
يبطنها الخوف ، فأجاب بخفوت :

— لقد بصقت دماً من جديد .. وليس في المستشفى دمٌ كافٍ
لتعطى منه .

ثم حوّل رأسه إليها وغمرها بتظليعة نصف باكية .
جلست بجانبه صامتاً مقلوب الوجه ، ورحت أتأملها
مستجاة على السرير ، مغطاة حتى العينين ، وقد تناثر شعرها
الأشقر على الوسادة ، وراحت تتنفس ببطء وسكون . كان

جوّ الغرفة يَحْتَشِدُّ بصمت مؤلم الإيحاء ، والراعي يجاني يتأمل
ابنته بنظرات مغلوقة ، ووجه ممطوط زحمة الحزن .

تلفت حولي ، وعجبت أن الممرضة لم تأت ! سألت الراعي
عنها ، فأجاب أنها ذهبت مع الطبيب . وعدت الى صمقي ،
فكثت قليلا ، موزّع الخاطر ، ثم نهضت ففتحت الباب ،
وأطلت منه . لم أجد أحداً . والتفت للراعي فرأيتة يحملق بي .
تركت الباب ، وسرت في رواق المستشفى على غير هدى .
لم يكن ثمة أحد ، ولكني سمعت بعد هنيهة وتوتة تنبعث من
انعطاف الرواق ، فاتجهت اليها .

كانت هناك لائحة صغيرة كتب عليها « الخبر » معلقة قرب
باب مفتوح . نظرت منه فرأيت الطبيب والممرضة ينحنيان فوق
مجهر أسود . واستأذنت بالدخول ، فالتفت الى الطبيب ،
ثم ابتسم ، ودعاني اليه .

دخلت بخشية وصمت ، ووقفت الى جانبها أتأمل دون أن
أفهم شيئاً . وبعد قليل هزّ الطبيب رأسه وقوّس شفته السفلى
الى الأعلى ، ثم أخرج زفرة طويلة :

شعرت بقلبي ينعصر ، ولا أدري لماذا خيّل لي أنه يعني
واحة . ولما خرجا من الخبر تبعتهما حتى دخلا غرفتها . وهناك
لقيت فازر . كان يجلس بجانب الراعي ، ويتحدّث اليه بوقار .
أعلن الطبيب أن مزيداً من الدم ضروري لها ، وأنه ينبغي
أن تسعف به أسرع ما يمكن . وكان طبيعياً أن تتقدم نحن

الثلاثة بعرض دمنّا .

أشار إليّ الطبيب بعينه أن لا ، فاستغربت وحركت رأسي مستغهماً . أشار الى الراعي ، وكان قد عاد للحديث مع فائز . وعدت أنظر للطبيب فهزأ بصبه يقطع بالرفض .

اقتربت منه وهممت ، أن قضية واحدة أهمّ من قضية مسلم يعطي دماً لفتاة مسيحية ، فرفض أن يقبل . وهممت أن أصرخ ، ففتح عينيه محذراً ، وخرج من الغرفة .

لحقت به متحرّقا ، وفتحت في لأسأله من جديد فمضي الى المخبر يقطع عليّ فرصة الكلام . ولما سرت اليه ، وطرقت الباب ، لم أسمع رداً .

عدت الى غرفة واحدة شديد الخيرة مبلبل الفكر ، وكانت قد أفاقت ، فتهاكت على طرف السرير ، وعصرت جبهي . إن أباهما يرفض أن يختلط دمي بدمها !! والتفتت اليّ تستفسر عن سبب قلقي ، فقلت لها إني متعب ، وليس ثمة قلق . وعادت تسألني متى ستخرج من المستشفى ، فطمأنتها الى أنها ستخرج سريعا ، وأنها ستذهب الى الريف .

— اذهبي الى ضيعتنا ، واسكني بيتنا هناك ، فليس فيه أحد . ستسليين مع ثلاثين زوجاً حاماً ، وتتمتعين بالغاية ، والنهر ، والمنحدرات الحشيشية .

ابتسمت واحدة بحبور ، وأغمضت عينيها . كان فائز لا يزال يتكلم مع الراعي ، فتأملته بدون اكتراث ، وكأنه تحوّل الى

أراجوز. نهض الراعي وتوجه الى الباب، فأسرع فائز يفتحه له، ثم يغلقه ويعود فينظر الى واحة متفحصاً .

- نامت !؟

التفت اليها وأخبرت رأسي .

- اي بشر .. حدثني .

فنظرت اليه بنصف اهتمام : لقد أدركت أنه سيقول شيئاً .

- ألا تزال تريد .. لقد رأيته أمس في « الكانداز » .

تثاءبت ، ثم تطلعت الى فائز بكسل واجم ، أنتظره أن يتابع كلامه .

- كانت مع رجل في حوالي الأربعين ، أشيب قليلاً ، ذي حواجب شعرها قليل لكنها سوداء وبارزة ، هكذا ، جبهة . ولقد رأيتني ، فلم يبد عليها أبداً أنها تعرفني .. كانت تشرب بيرة في زاوية المخسر فيها ضوء أزرق ، علقت بذراته نفخات الدخان من سجائرها .

نهضت عن الكرسي وخرجت ، ثم اتجهت الى المخبر فرأيت فيه من بعيد الراعي والطبيب والمرضة . اقتربت فخرج الراعي ومرّ بقربي مطرقاً . وثابتت سيري فتواصل الى أذني صوت الطبيب يقرر بهدوء :

- ... مليون ونصف فقط .

وعجبت من الرقم ، ثم دخل في اعتقادي أنه يتكلم في ميزانية المشافي او كلية الطب .

وقفت عند الباب حتى التفت اليّ الطبيب . وإذ لمح في

عيني نفس السؤال أطرق يعمل فوق المنضدة ، ولم يعرني انتباهاً .
كنت أشعر بضيق شديد ، فتركنت المستشفى دون أن أرى
واحة ، وعدت الى الجامعة . وهناك ضيّعت ما يقرب من ساعة ،
ثم تفديت في المطعم ، وصعدت الى المنتدى حيث استرخيت على
كنبة جلدية زمناً ، ثم رحت أعطّ في نوم متعب عميق .



استيقظت قبيل الغروب . كانت شمس أيام آذار الأخيرة
ترسل أشعتها دافئة شقراء وادعة ، والأفق يستلقي وراء الجبال
في إيجاء سادر مكتوم ، وعلى المدى تتراعى أشجار الغوطة
الغربية ، وتتايل نصف مكسوّة بالورق ، كأنها راقصات باليه
يتلّوين في بحر من الضوء والسكون .

وانبعث من قلب الحديقة الداخلية للجامعة ، صوت مؤذنها
يصيح « الله أكبر .. الله أكبر » تذكرت سحب وواحة ،
وأمي وثرىا وطفلي الذي لن يكون ، ثم نزلت الدرج بخطى
وثيدة ساجية ، معتزماً أن أتوجه الى الجريدة .

ولكن ها هي ذي سحب تقبل مسرعة حافلة : إنها الثورة

نفسها التي دفعتها لطرح وليدتها على رصيف حديقة ما في قلب دمشق المهتريء .

ابتسمت بتعاطف حزين ، وتوجّعت إليها فابتسمت هي الأخرى وقالت « مرحبا » . وتقلّصت ابتسامتان من الشفاء ، لتستقرّا في العيون . كان جفناي نصف مطبقين ، أما جفناها فقد غابا تحت أثقال الكحل ، ليظهرا في استطالة مفتولة قرب الزاوية الخارجية لعينيهما . تأبّطت بعضي وتمتت :
— أعتقد أن لا فائدة من الكلام .

فردّت بابتسامة تحمل وعداً :

— تعال نسير .

وسرنا معاً ، فخرجنا من الجامعة ، واتجهنا الى النهر ، ولم يكن ثمة ما يسمع سوى دقات خطواتها على الأرض . كانت تتدلّى من يدها اليمنى محفظة طحينية ، وتعلّق ببصر اليد نفسها حلقة ذهبية .

وصلنا جسر الحرية فابتسمت وأشارت :

— ها هنا قلت لي إنك تحبّني .

وامتدّت ابتسامتها ثم تحولت إليّ وسألت :

— أما زلت تحبّني ؟

فهزرت رأسي هزات قصيرة هادئة .

انسدل الجفنان الغائبان ، وتابعنا السير . كان الشارع مزدحماً فتأبّطت يدي حتى اجتزاه ، ثم مشينا على الرصيف الثاني .

— لست أدري .. أحسّه في دمي .. لقد تأكدت أنه لا يمكن
الاكتفاء برجل ..

قاطعتها بحركة من يدي :

— كفى ، إني أرى كل شيء .. هناك فرق وحيد بينك
سابقاً وبينك لاحقاً ، إنك لم تعودى تهتمين بأن ينهشك الناس ..
ابن خالتك (موفق) « يعبدك » أليس كذلك ؟ وهو الخطيب
الجديد ؟

كانت تهز رأسها بلا مبالة ، وتنتظر بتحفظ انتهاء كلامي .
ولما صادفتها الفرصة قالت بدعة ساخرة :

— لقد سعدت أن ألتقي برجل مثلك يعيش حياته كما يريد ،
يتزوجني ونفعم المجتمع بطوفان من خروجنا عليه ، نجعله صفراً .
لكنني لم أستطع أن أقاوم طبيعتي . حاولت جاهدة أن أقصر
عليك .. لكنني كلما التقيت بشخص ، يشعرني بأنه رجل ،
كان يقيدني . صحيح أنه كان يتعذب حتى يصل اليّ ، وقد
كنت ألتذّ بتعذيبه ، لكنه كان يصل .. كان يصل مثل الوحش ،
في تلك اللحظات كنت أعبد .. كان يشعرني بضاً لتي وانسحاقى ..

وصمتت سحاب لحظات ثم أضافت :

— أما أنت فكانت أشعر بصحبتك أني من الملائكة . ولا
تحسب أنني لا أتوق لهذا النوع من الشعور — الشعور الذي أكون
فيه عالية ، بعيدة عن قعور المجتمع .. عن لحم الإنسان ودمه —
وبالرغم من أنني لم أتعذب بسبب هذين الشعورين المختلفين — إذ

كنت أتقلب بينهما دون تفكير - فقد تمتت يوماً أن تغازلني ..
أجل تمتت كثيراً .. وشد ما امتلكني هذا الحنين ، او الرغبة
الهائلة في أن أشعر بشبق روحي لا يقاوم .

وطعجت سحب شفتيها ، ثم رفعت أصابعها في حيرة
لا مبالية ، واستأنفت :

- سأتزوج قريباً .. ابن خالتي طبعاً ، وهو مأفون أحمق ،
يمكن إرضاءه ببضع ساعات على السرير . وبعد ذلك أتصرف
كما أشاء . لا تظن اني عاهرة ، فليس ممكناً لأي حيوان أن
ينالني . مهم .. هناك نوع من الرجال يشعرون المرأة بوجودها ،
ويظنون على ذلك حين يلاحقونها باستمرار ، حتى يفترسوها ..
هؤلاء أحبهم .

والتفتت اليّ باسمّة ثم قالت :

- اذا أردت أن تصبح عشيقتي ، فاتصل بي بعد شهر العسل .
سأستسلم لك كما تريد ، فأنت الوحيد الذي كان معي شريفاً ،
رجلاً ، وإنساناً ، في الوقت نفسه ... ويضايقني أنك اشتغلت
بجد لتتزوجني ، ثم رأيت أن هذا الزواج عبث . وأنا لن
أستطيع أن أكون لك كما تريدني .. هي ، قل لي ، أما زلت تحبني ؟
وابتسمت . كانت ما تزال تتأبط يدي .

- تعالي .

وصعدنا الدرج الى غرفتي .

فتحت لها الباب ، واتجهت مبادرة الى الكنبه ، وجلست

عليها ، وأخذت تتأمل طاولتي والكتب المبعثرة ، وتبتسم .
- انتظري قليلاً .

أغلقت الباب وخرجت الى الحانة . ومن هناك ابتعت لترأ
عرقاً ، وزجاجة ويسكي ، وأخرى كونياك ، وعدت بنصف
كيلو لحم مشويًا .

وفي الغرفة رفعت ما بيدي الى الأعلى لاستعرضه أمامها .
ثم وضعته على المنضدة بعد أن أزحت الكتب فرميتها في الخزانة .
كانت تبتسم .

- لم أذق العرق في حياتي ..

أتيت بكأسين وملأتهما نصفاً عرقاً ، والنصف الثاني من
الزجاجتين . ودرت وراء الكنبه فاستندت بظهري اليها
وشددت ، فانزاحت نحو الطاولة ، فيما كانت سحب تقهقه ملء
صدرها .

- والآن انغمسي .

امتدت يدها الى الكأس فجرعته دفعة واحدة ، ثم كزت
على أسنانها ، وكشّرت ، وعصرت عينيها برهة ، فنظرت الى
جاذلة الحياّ مراحة الجفون .

- يطيب لي أن أنسى الدنيا بزجاجة وبعض اللحم .. أريد
أن أشرب الحياة ، أعبّ الحياة ، أمتصّها ، وأنسفع على أعصابها ،
وأنغمّر في أعماق لذائذها ووجودها .. هؤلاء الذين تقيّد بهم
المبادئ شدّما يثيرون قربي . كيف يستطيع البشر أن يكونوا

عبيداً طيلة هذه المدة ، وبهذا المستوى الحقيير من الكرامة ! أنا
أعرف أنني لست نبيلة ، ولكنني أحب أن أكون كذلك ، ولست
مجيدة .. ولا يهمني أن أكون مجيدة ونبيلة أم لا ..

جرعت سحاب بعض كأسها الثانية ، وتناولت لقمة لحم
فمضغتها بتلذذ وتابعت :

— لقد انتشيت ، ولكن لا تحسب أنني سكرت .. أنا لا
أسكر ، لأنني سكرانة دائماً .. سكرانة لأنني أشعر دائماً أن كل
ما جاء به البشر حتى الآن ، ليس إلا ثقافة مغرقة في الضحالة .
لقد قضى المفكرون أجيال الزمن الغابر وهم يحاولون أن يقيضوا
البشر بلعنات سموها أخلاقاً . ولكن أحداً منهم لم يحاول أن
يفهم أن البشر دوافع ، وكتل عاطفية تقيدت جسداً ، ولا
ترغب في أن تتقيّد روحاً ، لا تريد هذه السجون الحقاء أن
تكبلها ... ما الذي تقيده الأخلاق إذا كانت وظيفتها الحد
دائماً ؟! لقد وُجد الإنسان على الأرض ، ووجدت معه نزعاته
وطبائعه .. ولكن الله منذ بدء الخليقة يشترك مع الفلاسفة في
إيجاد كل ممكن ليكتبوا به هذه النزعات وهذه الطبائع ..
هأه .. عفواً .. إنهم لا يأتون بحلول .. ونحن نريد أن نودع هذه
العاطفة قلب الكون ، وننتعق من تقوينا .. لقد انحرفت
أنا بالطبع ، انحرفت جداً ، ولكن .. هأه .. عفواً املاً لي
الكأس ، فما أبعد أن ارتوي ، كما يقول الشاعر ، بعد ما أظلماتني
الحياة .

ملأت لها كأساً أخرى ، ولنفسي ثانية ، فجرعتها كلها
وتابعت :

— انظر الينا أيها الله ، إننا نموت جوعاً.. أنت محبّ ولست
قاضياً . إن حياتي مضیعة بين أشداق الزمن المرهق ، والمسافات
المتقشرة . وهذه الأيام التي تمضي ، فيزداد تشاقلها بالألم والتعب
واللايطاق ، أراها تجرّج أثقالها على حسابي .. إني أعيشها
بأعصابي ودمع عاطفتي ، وشجن أفكاري ، والبقية من
طاقتي ..

ونهضت متبائلة فائرة ، وراحت ترقص في الغرفة ، وكأسها
الفارغة بين أصابعها . وسريعاً ما أخذت تدور وتدور ، وتنتقل
من زاوية لزاوية ، وتضحك ، وترفع بيدها الكأس ، وتبكي
وتبتسم وكأنها استحالّت الى إلهة ترمح فوق بحار نشوة لا يمكن
أن توصف . ورحت أرقبها باسمها ، جارعاً من كأسها مرة
ومحرّكاً أصابعي فوق الطاولة مرة أخرى .

وتوقّفت فجأة ، ثم فتحت ذراعيها وأشارت لي :

— أريد أن أرقص الدبكة ، فلم أرقصها في حياتي . ولكن
اطرح هذه الساعة من يدك أولاً ، فقد دقت ثوانها عنقي ..
إنني لا أحمل ساعة كما ترى .

نهضت فأمسكت بيمنها ، ووقفنا استعداداً ، وتبادلنا
النظر فابتسمنا ، ثم أطلقنا ضحكة عالية .

— ابدأي الحركة باليمين هكذا ، فالشمال ، هه ، عالمين ،

فالشمال ، ارجعي الشمال بخفة ، ارجعي اليمين بقوة ، حرّكي
اليمين ، الشمال ، هذه هي الدبكة .. يا الله .

أخذنا ترقص ببطء أولاً ، ولما أتقنت سحاب الحركة ،
أسرعنا نطوف زوايا الغرفة كلها .

— ما اسم هذه الدبكة ؟

— الجبلية .

شعرت بدمي يفرور ، وتقصّد العرق مني بسرعة . وشبكت
أصابع سحاب بأصابعي والتحم ساعدانا واستغرقنا الرقص هونا
وسرعة .

— انتبهي ، فكتفانا يتدافران .

— لماذا تبعدما ؟ .. اتركها يلتصقان .

وتابعنا الرقص . وبدأت أغني « دلعونا » فأخذت
تشاركني الغناء .

— قرفصي هكذا ... نطّي .

وحاولت أن تفعل فضحكك ، واختلّ توازنها ، لففت
ساعدي بذراعي بقوة فمادت ترقص فترة من الزمن لا أقدرها .

— لقد تعبت .. أف .. لذيذة .. هذا سريرك ؟ .

سحبّت منديلي فجفّفت عرقى : أجل .

— هل أرمي ثيابي ؟

تقدّمت نحوها بابتسام وأخذت جيدها بين أصابعي ، وعلى
وجهها الخريفي الضاحك رحت أسكب فوارة شعوري التي

كنت أحسنّ بها لدرجة الاختناق . كانت مداركي تتصبّى هذا
الوجه الذي أحبيته ، بسعادة راكدة ، لعلّها لم تكن غير كآبة
عميقة مغطاة بطبقة من عدم الاكتراث العميق . كنت أشعر
أنّي أحتضن حقاً من جمال الأبد .

— كلا ..

فارتفع حاجباها ببطء فأنزلتها ، ثم رفعتها بسرعة وقالت :
— كما تريد .. هل أذهب ؟

— أجل .

— والآن الى اللقاء ... وداعاً ربما .. عد الى واحدة فهي
تحبك ؛ لقد قالت لي ذلك مرة .



كان المساء قد نثر ضوءه الأسود على الوجود حين عدت الى
المستشفى . ودلفت الى غرفة واحدة .. ثم وقفت جامداً .
وبدا كل شيء لي مقلوباً : الممرضة في حركة عصبية والراعي
يقف أمام ابنته فيحجبها عني ، وكتل من الدم تتناثر في أرض
الغرفة . هرعت الى واحدة ، فوقفت بجانبها مذعوراً . كانت
أصابعها تعصر المخذة بقوة وبطء ، وعظام وجهها تبرز بانفعال ،
لكنها كانت ساكنة . وعلى السرير استلقت بصقة سوداء جامدة ،
وتناثر شعرها الأشقر وراءها .

نظرت الى رجل الدين الواقف يميني ، ثم الى واحدة ،
وهزني أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً . عدت أحملق بها طويلاً ،

وشعرت بعد لحظات أنني انقطعت عن العالم الخارجي . لقد كان كل شيء يوحى بالموت .

تحرّكت واحة قليلاً فتيقّظت حوامتي . وفتحت عينيها ببطء ، وتأملتني بنظرة طويلة مطفأة ، خيل إليّ أنها تبسم . ثم رأيت أصابعها تتراخى عن الوسادة ، وجفنيها ينسدلان ببطء كثير ، ثم انفصلت عنا . كان شيء يموت بسكون ومجبور عميق . وكان الراعي يبكي .

انتهت الممرضة من مسح الدم ، وأقبلت تبكي هي الأخرى ، وتسوّي من وضع السرير .
- ماتت .

التفتّ الى واحة متجهمّ الوجه عابساً ، ورأيت أطياف راحة غامضة تسرح على وجهها النقي ، بينما لا تزال أصابعها تمسك بالوسادة .

تركت الغرفة بثورة مكتومة وبحث عن الطبيب . وفي دقائق وجدته في غرفة الأطباء جالساً بسكون وراء المنضدة .
- أتريد أن تفهمني أنها ماتت لأنه لا يوجد ما يكفي من الدم ؟

فبرز رأسه ببطء وشرود : - كلا .. كنت أعلم أنه ليس هناك فائدة ..

نظرت اليه مقطباً وسألته :

- كنت تعلم .. أنها .. ستموت !؟

وهز رأسه ثانية ولم يجب . وبعد قليل رفع يده وقال :

— هذه ثاني حالة تمر عليّ في حياتي .

وبدأ لي أن الطبيب يدبّل ويخدعني ، فانتفضت بوجهه
وقلت :

— لقد كنت أبصق مثلها دماً .. فلماذا لم أمت ؟. لقد
قتلتموها ، كان يمكن إيقاف السعال ، وإعطاؤها الدم فلماذا لم
تفعل ؟. هل خدّرك أبوها بحماقته ؟

وقاطعني الطبيب بهدوء حزين فقال :

— إنه الكبد وليس الرئة .. الكبد ..

وبدا أنه يلفظ الكلمة الأخيرة لنفسه فقط .

— إنها فتاة تستحقّ العبادة .. ولا ألومك إذا ثرت لموتها .

أغلقت باب غرفته بعنف وسرت الى غرفة واحدة . وعند
الهاب التقيت بالممرضة خارجة ، فاستوقفتنني :

— أين هي التلة الشرقية ؟. لقد أوصتنا أن ندفنها في التلة
الشرقية .

تركت الممرضة بلا جواب ودخلت الغرفة . كان وجه واحدة
يختفي تحت غطاء أبيض .



٧

عندما تبهت الأيام ، وتنطفيء في عين النهار ابتسامة حاولت كثيراً أن أغذيها بدمي ، يتعالى صوت مؤذن من هنا ، او صفير قطار من هناك ، وتتوالد حول الأحداق ابتسامة أخرى عابثة الشعور ، تذكر أن الانتهاء قد اقترب بكل شيء . منذ أسبوع مضى آذار ، فصل الأحلام المصحوبة بالمطر ، وقد كانت هذا العام مصحوباً بالصقيع .

وها أنذا أتأمل من مرتفع قاسيون الأخير ، الغوطة والأبنية المتناثرة فيها كأوشال العين .

— الساعة كم من فضلك ؟

كان سائلي ذا شاربين منظمين بعناية فائقة ، ومرتبياً بذلة

عكرة ووجهاً صفيقاً .

— الثانية عشرة تماماً .. لا ، عفواً .. أعتقد أن ساعتي واقفة ، فمنذ دقائق أعلنت ساعة الراديو الثانية عشرة .
— متشكر سيدي .

نزلت عن المرتفع الى موقف الترام ، وانتظرت حتى أقبل بهجم فوق قضيبه أشبه بالوحش . صعدت اليه بهدوء وجلست . الساعة واقفة .. رحت أتأمل قنّة الجبل . أقبل « شيخ » خفيف الذقن أبيض العمامة رماديّ الوجه فجلس مقابلي .
لم يكن ثمة ما يلفت الانتباه في ذلك المكان النائي سوى أن الشيخ كان يدير ظهره للسائق ، والتكسيات تمر بسرعة مجنونة ، والباصات تنخر محركاتها بهدوء ، والى جانبيها يسعل زموور عربية مازوت .

وانحدر الترام يسير نفس الطريق الذي ساره .
ها هو ذا مبنى رئاسة الجمهورية السابق ، ويقابله على الجانب الأيسر المدرجات الحجرية التي تنحدر من سفح قاسيون . صعدت بعض السيدات سوداوات من رؤوسهن حتى أخامص أقدامهن ، فلأن جناح النساء في الترام وأخذن يتأملن العالم من وراء الغطاء بعيون مستديرة .

أقبل الكساري اليّ فدفعت له ثمن تذكرة ، والتفت الى الشيخ ، ثم تحوّل الى باقي الركاب ، وانتقل الى النسوة السوداوات صعدت سيّدة خلاصة المنظر ، ذات ثياب كحلية

ضيقة وأجفان ملتوية ووجه ملطخ بالحمرة ، فرمت المكان بتطليعة فاترة ، ثم جلست بجانب الشيخ . رحت أتأمل تفاصيل أعضائها بتلذذ كليّ ، ثم حولت نظري الى الشارع ، كان ثمة حمار بلا رسن يسير فيه على غير هدى .

-- تيت .. تيت . وانحدر الترام .

الحوانيت شديدة الالتصاق والمجاورة ، لكن كلاً منها يبيع شيئاً مختلفاً . ها هي ذي صيدلية تزدهم بالأدوية والناس . ها هنا مكتبة علقت على أطراف بابها روايات الجيب وسلسلة طرزان .

التفت الى الشيخ فرأيت أنه يتمم . لا بد أنه يقرأ أورادا .

صعد ركاب ونزل ركاب آخرون .

-- تيت .. تيت . الترام ينحدر .

كان رجل يركض نحو الحافلة بسرعة فائقة ، ويشير بيده . ثم وقف يتأمله بحسرة غاضبة .

أبنية حديثة طحينية اللون ، ذات نوافذ خضراء بلون الخوة ، وحمراء بلون الارجوان ، تستلقي تحت المنحدر ، وتتخامل بين أشعة الشمس الغبارية الوارفة .

السيدة الكحلية الثياب والجفون ، الجالسة بجانب الشيخ ، أخذت تتأملني باستغراب . مسحت ذقني بيدي ففطنت الى أن شعرها بطول الحراشف . نظرت للأبنية من جديد ، واعتدلت في جلستي . كان لا بد من أن ألاحظ أن لجيوب بنطالي وأسفل

ساقيه حراشف من نوع آخر .

صعد ركاب ونزل آخرون .

— تيت .. تيت . الترام ينحدر .

أمامنا حسان يعبرن الشارع دون أن يراعين أن ثمة حافلة
قد تصطدم بهن . ولكن يبدو أنهن واثقات أن الترام سيقف
— إكراما لهن — في اللحظة المناسبة .

بيوت من صلبال من طابقين ترايين ، أخذت تزداد أمام
النظر فتغطي الأبنية الطحينية . إنها حافلة بالأزقة الضيقة التي
تتوارى منها رائحة البشرية ، سوى أن شبكاً مفتوحاً فوق
زقاق مقفر برز منه رأس رجل ذي غلاصم متهدلة ، وحاول
أن يبتسم لرأس آخر غطى شعره الطويل وشاح أبيض والتصق
بحفاف النافذة بخوف وتحفز وبشاشة .

صعد ركاب ونزل آخرون .

— تيت .. تيت ، الترام ينحدر .

المشترتون بتقطع لا نهائي يأتون الى الحوانيت والمحازن
المرتصة : متجر مدافي ، صالون لمسح الأحذية وقف فيه رجل
وسخ الوجه ، مسمكة غفّ عندها الذباب وبعض المشترين من
رجال وسيدات ، حانوت نوفوتيه ذو باب ضيق لا أستطيع أن
أرى ما بداخله .

الشيخ والسيدة الكحلية الثياب والجفون ما زالا يجلسان
أمامي ، ويديران ظهريهما للسائق .

أقبل الكساري يقطع تذاكر للركاب الجدد ويضرب
راحت أيديهم بها .

هنا مخزن لبيع الأزهار ، أزهار بيضاء وصفراء وحمراء ،
برائحة ذكية وبلا رائحة . وإلى جانبه مباشرة فغر باب فيه ،
لينفتح على مراحيض تننة فاحت رائحتها حتى وصلت خطي
الترام . تأملت السيدة الكحلية فجأة برقاقة . فطرفت عيناها
نحو الشيخ . وانتبه هو إلى ذلك فرفع بؤبؤيه إلى الخارج حيث
استقرت على مأذنة .

نساء بكامل أناقتهن يتخيزن على الرصيف ، وقد التوت
بسببهن رقاب من مختلف الأحجام .

مبنى البرلمان السابق . مكتبة صائغ . نادي الضباط . سينما
الزهراء . سينما أمير . ملهى السميراميس .
نزل ركاب ولم يصعد أحد .

— تيت . تيت . الترام ينحدر .

الساحة فسيحة ، لكن خطي الترام يشطرانها ، والإعلانات على
مربعات خشبية مرفوعة للأعلى تحيطها .

إلى الشمال عمارتان رائعتان ، وإلى اليمين عمارات كهلة .
جسر فكتوريا .

— تيت . تيت . لقد وصل الترام إلى النهر . ونزل الشيخ
والمرأة الكحلية .

نزلت وصعد آخرون . كان النهر موحلاً عكراً يسحب

معه ثقلاً أخضر يوحى بالتقزز .

سرت بخطى ثقيلة مطمئنة الى دائرة البريد ، ودفعت في الشباك بمغلف أصفر كبير الى آنسة وقفت في الجانب الثاني . وسرعان ما نظرت الى بدھشة ثم قالت :

— ولكن الكلية العسكرية لم تعلن بعد عن بدء دورة هذا العام .

— لا بأس .. إنه لم يبق ثمة مجال للانتظار .



مؤلفات الدكتور هاني الراهب

المهزومون (طبعة جديدة)
ألف ليلة وليلة . . . وليلتان (طبعة جديدة)
الوباء (طبعة جديدة)
التلأل



دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف:

نيكول برسودر